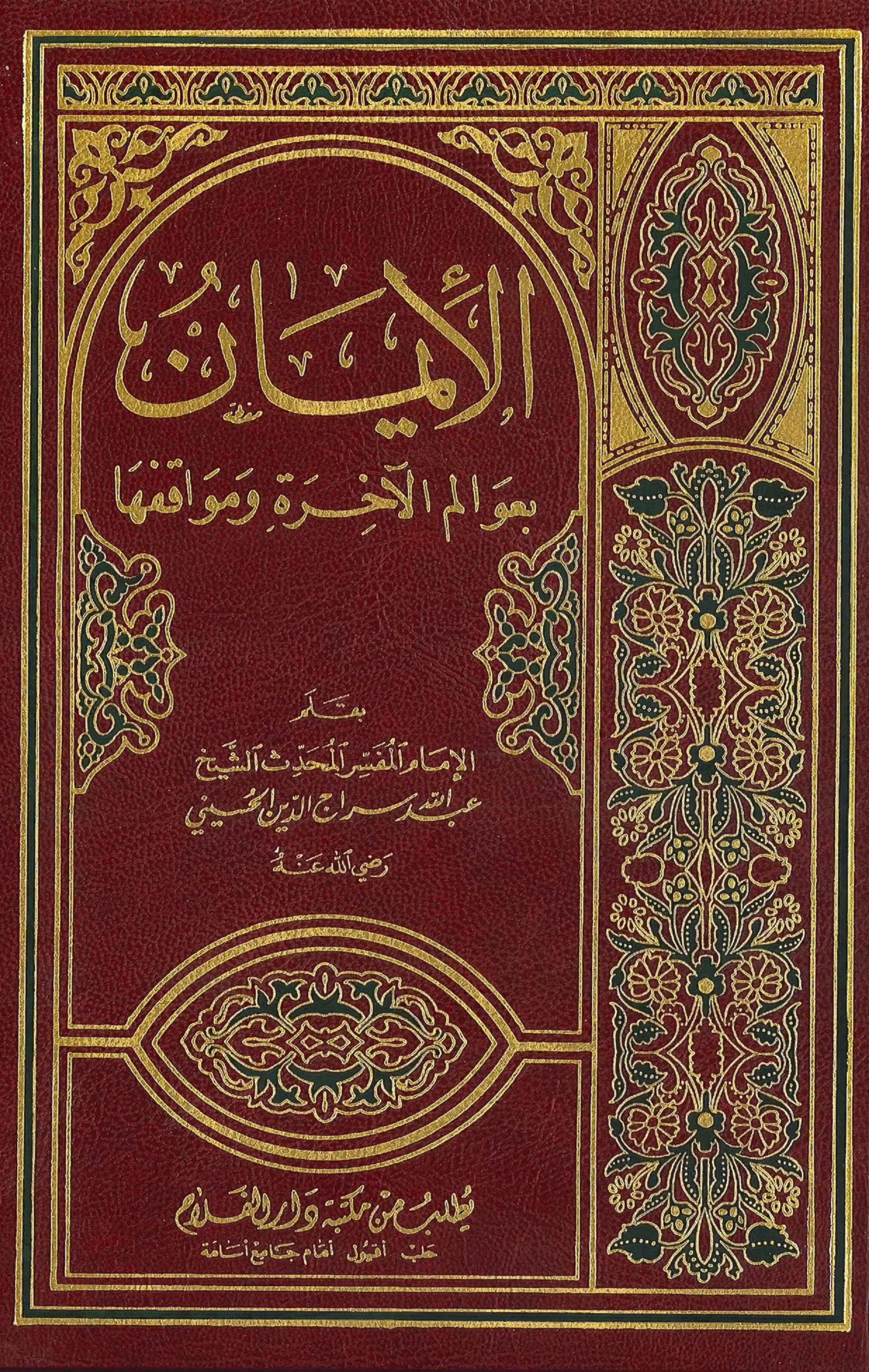
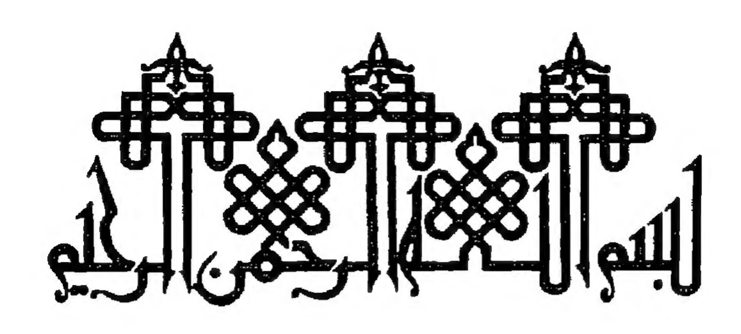
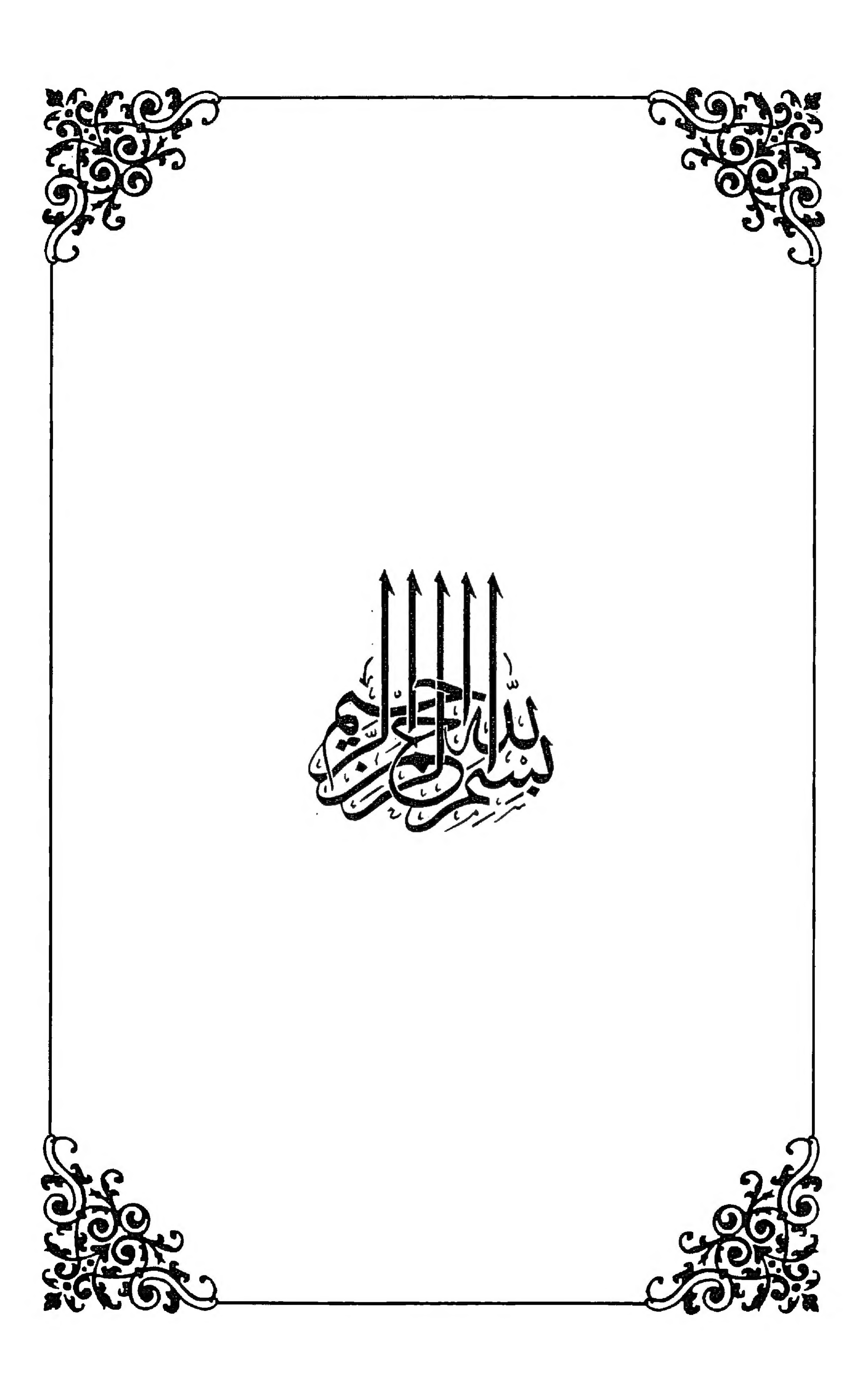

الإيمان
بعوالم الآخرة ومواقفها
بقلم
الإمام المفسر المحدث الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
رضي الله عنه
يطلب من مكتبة دار الفلاح
حلب أقيول أمام جامع أسامة



أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسِّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن أكابر المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنه هو السميع العليم

آمين


بسم الله الرحمن الرحيم



بقلم

عبد الله سراج الدين

يُطلب من مكتبة دار الفلاح
حلب - أقيول - أمام جامع أسامة

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

مطبعة التوفيق
حلب - هاتف ٣٣٣١٥٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمدٍ سيد الأولين والآخرين، وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين، وآله وصحبه أجمعين.

اللهمَّ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وبعد:

فهذه نماذج مختصرة، وفصول مقتصرة، تَرسم في صفحات قلب القارىء الكريم صُوَراً عِلْمية من صُوَر عوالم الآخرة وبرازخها ومواقفها، وتعرضها عليه عرضاً متناسقاً متسلسلاً، تتجلى في ذلك حقائق الإيمان باليوم الآخر، الذي هو أحد أركان العقائد الإيمانية، المذكورة في جميع الكتب الإلّهية السماوية.

وإنَّ كثيراً من شباب المسلمين لا يعلمون من الآخرة غير اسمها، بل ربما يَرى بعضهم أَنَّ البحث فيها أبسط من ذلك؛ وأنه لا حاجة إلى جميع ما هنالك.

فلذا أردتُ ـ والله المستعان ـ أَنْ أُريهم قَبَساً من أنوار الآيات القرآنية الحكيمة، والأحاديث النبوية الكريمة، عساها تُشرق على قلوبهم؛ فتطرد ظلمة جهلهم بآخرتهم، التي سينقلبون إليها مهما

طال بهم العُمُر، وإنَّ كلَّ آتٍ قريب، وإنما البعيد ما ليس بآت، وحينذاك يُكشف عنهم الغِطاء، ويتحقق اللقاء، وتذهب الغَفَلات، وتتوالى عليهم الحَسَرات والويلات، رُحماك رُحماك يا ربَّ البريَّات.

ومَنْ تَدبَّر كلام ربِّ العالمين سبحانه، علم أنه كثير التنبيه، شديد التحريض على ادِّكار الآخرة، والاستعداد المطلوب لها؛ فما يمرُّ القارىء على طائفة من آيات الله تعالى البينات إلا وفيها تصريح بأمر الآخرة أو تلويح.

كما أَنَّ مَن قرأ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رآها كثيرة التذكير بأمر الآخرة، عظيمة التحذير من أهوالها ومواقفها، قوية التنبيه إلى السعي لها؛ والاستعداد إليها.

لا ريب إذاً أَنَّ هذا كله ينبئنا عن خطورة ذلك العالم الأُخروي، وشدَّة هوله، وعِظم أمره، ووجوب الاهتمام بشأنه.

فجدير بنا كلّ الجدارة أنْ نتحدَّث عن اليوم الآخر، وبعض أحكامه، وأطواره وأحواله، متبعين في ذلك كتاب الله تعالى، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، راجين منه سبحانه وتعالى إخلاصاً في القصد، وصِدقاً في العمل، وسداداً في القول، إنه قريب مجيب.

* * *

مقدمة

في أَنَّ الآخرة هي حقٌّ ثابت لا ريب فيها

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ ﴾ ـ أي: اليوم الآخر ـ ﴿ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾.

إنَّ كلَّ عاقل إذا أمعن النظر في الآيات القرآنية الكريمة، يجدها قد سلكت في إثبات الآخرة، والنشر والحشر والحساب، وجميع ما هنالك ـ أحسنَ الطرق التي تُنير العقول، وتُبَصِّرها منهاج الوصول إلى اعتقاد ذلك، والإذعان إليه ـ ونحن نقدِّم إليك بيان هذا.

إنّنا إذا تدبرنا الآيات الكريمة التي تَبحث عن الآخرة، يتضح لنا جليّاً أنّها تستنهض العقول مِنْ غَفلاتها، وتَسْتَفِزُّ الأفكار من مَراقدها، لأجل أن تَضْطَّرها إلى إثبات عالم الآخرة، وإنَّ العقل السليم ليأبى أن يقف عند حدِّ عالم الدنيا الفاني، ويُنكرَ العالم الآخر الباقي؛ وقد جاءت الآيات القرآنية في إثبات ذلك على وجوه متعددة:

أولاً: تنبيه القرآن الكريم إلى أَنَّ النظر في العالم السماويِّ والأرضيِّ يُؤدي إلى إثبات الآخرة:

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

فقد أنار الله تعالى لأُولي الألباب، وهم الذين عَبَروا حجاب الحِسِّ حتى انتهوا إلى اللباب، أنار الله تعالى لهم طُرُق النظر والتفكر في خلق السموات والأرض، وما أودع فيهما من آيات القدرة، وشواهد العلم والحكمة، فجالت أفكارهم في تلك الآيات السماوية والأرضية، مُعتبرين مُستبصرين، فأيقنوا بوجود ربٍّ خالق عليم حكيم، تجلَّت آثار صفاته في مَصنوعاته ومُبدَعاته، وأشرقت أنوار أسمائه سبحانه في مرايا مخلوقاته.

فشاهدَ أُولو الألباب تلك الصفات الإلَهية مسطورة على صفحات الكائنات العلوية والسفلية، وقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ وحينئذ التزموا عبادة هذا الإلَه الربِّ العليم الحكيم وفاءً بحق ربوبيته عليهم، ولازموا ذكره قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم.

ثم إنهم تابعوا السير بعقولهم وألبابهم، يتجوّلون ويتفكرون في أنحاء الآيات السماوية والأرضية؛ وسائر الآيات الآفاقية، فانتهوا إلى نتيجةٍ لهذا العالم، وأيِّ نتيجة، وما أصحها وما أحكمها

وما أصدقها من نتيجة ـ إنها نتيجة مقدِّمات عالم الدنيا كله.

وهي: أَنَّ هذا العالم البديع المُحْكم، والمصنوع المتقن، الذي يسير بنظام وإحكام، فالسماء في إبداع وإتقان، والشمس والقمر بحسبان، والكواكب في سير وانتظام.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وفيها الحبُّ ذو العصف والريحان، وفيها الليل والنهار، والأنهار والبحار، والزروع والأشجار، إلى ما وراء ذلك من آيات الاعتبار لأولي الأبصار.

فأيقنوا أن هذا العالم المحكم المتقن، لا يجوز في مُقتضيات العقول الصحيحة؛ أَنْ يكون أَمره عبثاً، ولا أَنْ يكون بِناؤه باطلاً، ويستحيل عقلاً أن يكون ليس وراءه حكمة عُليا، هي نتيجة لِحِكْمة خلقه ونشأته، بل لا بُدَّ وأَنَّ هناك نَشْأَةً أُخرى وراء هذه النشأة، تتجلى فيها جميع حِكَمِ النشأة الأولىٰ، وتظهر فيها نتائج التكاليف الشرعية، وَيَميز الله تعالى فيها الخبيث مِنَ الطيِّب، والصالح من الطالح، والمسيء من المحسن، وينتقم فيها مِنَ الظالم للمظلوم، ومن الباغي للمَبْغيِّ عليه.

ولولا تلك النشأة الآخرة، لضاعت حكمة خَلْق هذا العالم، ولكان أمره عبثاً باطلاً ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

بَلْ لولا حَقيَّة الآخرة ـ وهي: الحاقَّة التي تَحقُّ فيها الحقائق ـ

لولا ذلك لضاعت حِكمة الشرائع الإلٓهية الحكيمة القويمة، لأنه حِيْنَئِذٍ يتساوى الحق والباطل، والعَدْل والظلم، والفساد والصلاح ـ وهذا أمر باطل مُحال كإحالة وبطلان تساوي الظلمة والنور، والعَمىٰ والبصر، والجهل والعلم، والأحياء والأموات.

وإلى هذا كله نَبَّه الله سبحانه وتعالى العقلاء فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

فالحكمة في الخليقة الكونية، والحكمة في الشرائع الإلٓهية تقضيان أَنْ يكون هناك يوم آخر، فيه المسؤولية والجزاء، ومِنْ ثَمَّ قال أولوا الألباب: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: نُنَزِّهُك عن اللعب والعَبَث في خلقك وشرعك، وإنما خلقت الخلق بالحقِّ والحكمة، التي تقتضي الجزاء بالثواب أو العقاب، ولا بُدَّ في ذلك من جنةٍ ونار ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ثم إنَّهم سألوا الله تعالى الجنة التي وعدهم بها على ألسنة الرسل صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

وقد مدح الله تعالى في تلك الآيات الكريمة أولي الألباب، الذين جالت أفكارهم في أنحاء العالم السماوي والأرضي وما بينهما، وبذلك انجلت لهم حقائق الحقِّ الذي به خُلِقَت

السموات والأرض، وتجلَّت لهم حكمة الله تعالى في خلقه بَدءاً وانتهاء، وحكمة الله تعالى في رسالاته وشرائعه.

وقد ذم الله تعالى الغافلين عن التفكر، ونَعَىٰ على الذين لا يُعمِلون أفكارهم، فلا يتفكرون ولا يتعقَّلون؛ فقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ ﴾ الآية.

والمعنى أوَلم يُثبتوا ويُحقِّقوا التفكر في أنفسهم ـ أي: في قلوبهم وضمائرهم النفسية، أي: فمالهم ـ قبّحهم الله تعالى ـ رضوا أن تكون قلوبهم فارغة من التعقُّل، ونفوسهم خاوية من التفكر؟! فإن هذه صفة الحيوان البهيمي، وليست صفة الإنسان العاقل، فكيف بهم وقد رضوا أن يكونوا في عِداد البهائم الهَمَل، لا تفكير لهم ولا تعقُّل في أمر هذا العالم، وحكمته ونهايته.
﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾.

يعني أنَّهم لو رجعوا إلى صوابهم، وفكروا في ضمائر نفوسهم، لَعلِموا أن الله تعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحقِّ، وأنه لم يخلقها باطلاً ولا عبثاً بغير حكمة بالغة، وإنَّما خلقها مقرونة بالحقِّ، مصحوبة بالحكمة، ومنتهية للحكمة، وإن مِنَ الحكمة تقدير أجلٍ مسمًّى وهو قيام الساعة، ووقت الحساب، والجزاء: بالثواب أو العقاب.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية.

ويُحتمل أن يكون المعنى: أولم يتفكر هؤلاء الغافلون الهَمل

في أنفسهم التي هي أَقرب الخلْق إليهم، وما أودع الله تعالى في هذه النفس من بدائع الحكمة، وحُسن التدبير والصنع، ومِنْ ثَمَّ يَتَطلعون إلى التفكر في الآفاق المحيطة بهم من السموات والأرض وما بينهما، وبذلك يهتدون إلى الحق الذي قامت به السموات والأرض، ويعلمون أَنّه لا بُدَّ من الانتهاء إلى أجل مسمى، وهو القيامة، وما احتوت عليه من الجزاء والحساب.

ثانياً: تنبيه القرآن الكريم إلى أَنَّ النظر في إبداع الإنسان يُؤدي إلى إثبات الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

أقسمَ سبحانه بأفضل مهابط الشرائع الإلَهية المباركة، ومنازل الوحي بالكلام الإلَهي النازل على رسُله صلوات الله عليهم؛ مَهبط نزول الوحي على عيسى عليه الصلاة والسلام، وإنزال الإنجيل عليه، وهو البقعة المباركة من فلسطين، وأشار إلى ذلك بما يَنْبُت عليها من التين والزيتون المبارَكين، الكثيرين في تلك البقعة.

ثُمَّ أقسم بطُور سَيناء، مهبط نزول التوراة على موسى عليه الصلاة والسلام.

ثم أقسم بالبلد الأمين، بلد الله الحرام، مكة وما حولها، مهبط نزول النبوة والرسالة على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وترتيب ذكر هذه المواضع هنا جاء على طريق الترقي.

فقد أقسم سبحانه بمهابط الوحي ومنازل الكلام الإلَهي والتشريعات الإلَهيَّة؛ على خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم، ثم تَعَهَّدهُ بما يُسعده ويُصلح شأنه في أمر التشريع، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: في أحسن كمال واعتدال في الصورة والمعنى.

قال العلامة الراغب: تقويم الشيء: تثقيفه، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وذلك إشارة إلى ما خُصَّ به الإنسان من بين أنواع الحيوان: من العقل، والفهم، وانتصاب القامة الدّالة على استيلائه على كلِّ ما في العالم. اهـ.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ وجيء هنا بثُمَّ ليُشير إلى ما طُويَ ذكره، ولكن دلّ عليه فيما بعده؛ والمعنى: خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ولكن لَمْ نُهمِلْه، ولم نتركه سُدىً، بل تعهدناه بالهدى، وإنزال الشريعة، وبيان الأحكام التي فيها سعادته وصلاحه، ليحفظ عليه حسن تقويمه وكماله الإنساني، فإن الله تعالى الذي أحسنَ الخَلْق والتقويم؛ قد أحسن وأحكم الشرع الحكيم، وجعل هذا الشرع الإلَهي واقياً للإنسان من النقص والتدني في حضيض البهيمِيَّةِ الحيوانية، راقياً به من الإنسان الحيواني إلى الإنسان الربانيِّ؛ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾.

وذلك المَطْويُّ تحت ﴿ثم﴾ هو الذي ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: هَمَلاً بلا تكليفٍ أو نهي؛ يكون فيه صلاحه وسعادته.

وهو المذكور بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ ﴾ أي: بعض أبنائكم الذين هم يلدون منكما يا آدم وحواء لبعض عدوٌّ.

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ خطاب لبني آدم عليه السلام، الذين هم في صلب آدم وسيلدهم، فأكد سبحانه بأنه يَتَعَهَّدهم بالهدى فورَ هبوط البشرية إلى عالم الأرض ـ أي: بأن يُنزل الشرائع وفيها البيانات الثابتة بالبيِّنات، والإرشادات إلى ما فيه الصلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ ﴾ ـ أي: في الدنيا ـ ﴿ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ ـ أي: في الآخرة ـ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ ـ أي: تذكيري، وهَديي وبياني ـ ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ـ أي: ضيِّقة شديدة، مَحوطة بالمساوىء والهموم والمضايق، وذلك في الدنيا ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ الآية.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ أي: فأنزلنا عليه الشريعة، وبَـيَّـنَّـا له ما يضره وما ينفعه على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام، **فهناك قِسم كبير** من بني الإنسان أعرض عن تلك الشرائع، وردَّها، ولم يتصف بالفضائل والكمالات التي جاءت بها تلك الشرائع؛ فرددناه أسفل سافلين، لأنه هو سَفَّل نفسه، ونزل بها إلى مُستوى البهيمية، **ولكنْ هناك** قسمٌ آخر من بني الإنسان آمنوا بما أنزل الله تعالى، وعملوا بموجب شريعة الله تعالى، فارتقوا في الدرجات العُلىٰ، وهؤلاء هم الذين قال فيهم سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي: دائم غير مقطوع، وإنما ذَكر هذا القِسم على طريق الاستثناء لقلتهم بالنسبة لكثرة الذين كفروا.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ﴾ الآية.

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾ المراد بالدين هنا الجزاء المرتَّب على الحساب.

قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: جزاءهم.

وقال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: هو سبحانه الملِك والمالك ليوم الجزاء، وهو المحاسب لا غيره جلَّ وعلا.

وفي الحديث الحسن، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله تعالى: «أنا الملك، أنا الديّان» أي: المحاسب والمجازي.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

هذا خطاب للإنسان كما قال مجاهد وأكثر المفسرين، والمعنى أيُّ شيء يجعلك أيها الإنسان مكذباً بالدين ـ أي: الجزاء والحساب من بعد هذا البيان والبُرهان، وأن الله تعالى قد خلقك في أحسن تقويم، فصوَّرك وعَدَلك، ثم تعهَّدك بالشريعة التي فيها صلاحك وسعادتك، ولم يتركك سُدىً، بل إنّه بيَّن لك ما ينفعك وما يضرك، فمالَك أيها الإنسان ذهبت تُنكر الحشر والجزاء؟!

فمن ناحية القدرة هو أقدر على أن يُعيدك بعد مَوتك، ويُنْشِئك خلقاً جديداً، فإنه لو عجز عن الإعادة لأَعجزه وأعياه خلقك الأول ـ كلا بل هو سبحانه كما قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ ـ أي: بل لم نعجز ـ ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾.

ومن ناحية الحكمة فإِنَّ حكمة أحكم الحاكمين تقتضي أن يعيد

الإنسان مرة ثانية للجزاء والحساب ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾.

وهذا أمر مُبرم ومحكم لا محالة.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ هو خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحينئذ يكون المعنى: ومَن الذي يُكذبك بالجزاء يا رسول الله بعد هذا البيان، والحجة والتبيان، إلى آخر ما تقدَّم ـ أي: فما أحد عنده عقلٌ ورويّة يُكذِّبك بالجزاء؛ وقد جئتَ بالأدلة القاطعة التي تُثْبت ذلك حقاً.

ثالثاً: النظر في حكمة الشرائع الإلَهية يؤدي إلى إثبات اليوم الآخر:

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾.

فالله تعالى الذي خلق العالم هو حكيم، ومن مقتضى حكمته سبحانه إنزال الشرائع يتعهَّد عباده بما فيه صلاحهم، ويدلُّهم على ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا، وَيُحذِّرهم مما فيه فسادهم وشقاؤهم في الدنيا والآخرة، ومِنْ مقتضى حكمة التشريع الإلَهي أن يُعيد الثقلين مرة ثانية، وَيُرجعهم الله لأجل أن يحاسبهم، ويجزيهم بأعمالهم التي عملوها، فمنهم الطائع، ومنهم العاصي، ومنهم المؤتمر بأوامر الله تعالى، ومنهم المتكبر على شريعة الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ ـ أي: رجوعهم ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

فما خلق سبحانه البشر عبثاً لا لحكمة، ولا لأمر ولا نهيٍ، ولا لحساب ولا سؤال؛ بل ذلك ظنُّ الذين كفروا، وجهلوا حكمةَ ربهم الذي خلقهم سبحانه، وإنما خلقهم عن حكمة ولحكمة، وسوف يجمعهم في الآخرة عن حكمة ولحكمة.

فَخَلْقُ البشر بلا تشريع عَبَث، وتشريع وأمر ونهي بلا عودةٍ ومرجعٍ إلى الملِك الحكم العدل باطل، فتعالى الله الملك الحق أن يَخلق ولا يَشرع ما فيه سعادة البشر ومصالحهم، وتعالى الله أن يشرع ولا يُرجعهم إليه للحساب والجزاء؛ لما في ذلك من التسوية بين المحسن والمسيء، والصالح والطالح، والظالم والعادل، فتعالى الله تعالى أن يُساوي بين أولئك.

قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي: كلا ولا.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: لا يُؤمر ولا يُنهىٰ.

فالآيات القرآنية تُرشدنا إلى أَنَّ قضية الآخرة هي حق وحقيقة لا ريب فيها، يؤمن بها أهل العقول الصحيحة، ويستدلون على حقِّيَّتِهَا بمختلف الدلائل الكونية، الآفاقية والنفسية، والدلائل التشريعية.

قال العلامة فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى في: (تفسيره): مِنَ الأدلة العقلية على المعاد، أَنّه قد دلت الأدلة على أَنّ العالم حادث، فلا بدَّ له من مُحدث قادر، ويجب أَن يكون عالماً، لأَنَّ الفعل المحكم لا يصدر إلا من العالِم، ويجب أن يكون غنياً عنها

ـ أي: عن العوالم ـ وإلاَّ كان خَلقها في الأزل وهو محال ـ أي: بل العالَم حادث وليس بقديم.

فثبت أَنَّ لِهذا العالَم إلَهاً قادراً عالماً غنياً، ثم لما تأملنا فقلنا: هل يجوز في حق هذا الحكيم الغني عن الكل أَنْ يُهمل عبيده ويتركهم سدى ـ أي: بلا بيان وتشريع ـ ويُجوِّز لهم أن يكذبوا عليه، ويبيح لهم أن يشتموه ويجحدوا ربوبيته، ويأكلوا نعمته، ويعبدوا الجِبْتَ والطاغوت، ويجعلوا له أنداداً، وينكروا أمره ونهيه، ووعده ووعيده؟!.

فها هنا حَكَمتْ بديهية العقل بأن هذه المعاني لا تليق إلا بالسفيه الجاهل، البعيد عن الحكمة، القريب من العبث، فحكمنا لأجل هذه المقدِّمة: أَنّ له سبحانه أمراً ونهياً.

ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له أمر أو نهي، مع أنه لا يكون له وعد ووعيد؟

فحكم صريح العقل بأنَّ ذلك غير جائز، لأنَّه إنْ لم يَقرن الأمر بالوعد بالثواب، ولم يقرن النهي بالوعيد بالعقاب ـ لم يتأكد الأمر والنهي، ولم يحصل المقصود، فثبت أَنَّه لا بد من وعد ووعيد.

ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له وعد ووعيد، ثم إنه لا يَفي بوعده ولا بوعيده لأهل العقاب؟ أي: الذين لا يليق بمقتضى الحكمة أن يَغفر لهم كالمشركين مثلاً.

فعلمنا أَنْ لا بد من تحقيق الثواب والعقاب، ومعلوم أَنّ ذلك لا يتم إلاّ بالحشر والبعث، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قال رحمه الله تعالى: فهذه مقدِّمات يتعلق بعضها ببعض،

كالسلسلة متى صح بعضها صحّ كلها، ومتى فسد بعضها فسد كلها؛ فدلَّت مُشاهدة أبصارنا لهذه التغيرات ـ الكونية ـ على حدوث العالم، ودل حدوث العالم على وجود الصانع الحكيم الغني، ودل ذلك على وجود الأمر والنهي، ودل ذلك على وجود الثواب والعقاب، ودلّ ذلك على وجود الحشر ـ أي: ليتحقق الجزاء على فعل الأمر، ومخالفة النهي.

فإن لم يثبت الحشر أدى ذلك إلى بُطلان جميع المقدمات المذكورة، ولزم إنكار العلوم البديهية، وإنكار العلوم النظرية القطعية. اهـ كلام الرازي رحمه الله تعالى.

وقد يُعاند بعض الجهال، ويتعامى عن تلك الأدلة كلها **ويقول:** هل هناك من قد ذهب وكشف لنا النقاب عن حقيقة الأمر، ورجع فأخبرنا عما هنالك؟ فإننا لا نُصدق إلا بالعيان، ولا نقبل الدليل ولا البرهان.

فيقال لهذا الجاهل الذي عمي عما ذكرناه من الأدلة: نعم، هناك من ذهب واطلع على تلك العوالم التي سينقلب الناس إليها، وعاد فأخبر عن جميع ذلك تفصيلاً.

وهذا المخبر الذي رأى فأخبر هو أصحُّ العالمين نظراً، وأصدق خَلْق الله تعالى خَبَراً، ألا وهو سيدنا محمد الصادق الأمين، بشهادة أحبائه وأعدائه صلى الله عليه وآله وسلم.

فإذا كان الإنسان يُصدِّق الرجل الثقة المخبر الصادق، الذي يُخبره عن بلد كذا وكذا وما فيها من كيْت وكيْت، فكيف لا يُصدِّق أصدق العالمين سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، الذي

أسرى به الله تعالى ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السموات، ثم إلى سدرة المنتهى، وشاهد هناك عالم الجنة، وأُدْخل الجنة.

واطلع على عالم النار، ورأى ما رأى من ألوان عذاب أهل النار، وأنواع المعذَّبين.

وأطلعه الله على ما هنالك من العوالم؛ ثم عاد فأخبر عن ذلك تثبيتاً وتطميناً للمؤمنين بما غاب عنهم من تلك العوالم، وَحُجةً على المنكرين المعاندين الذين لا يُصدقون إلا بالعيان.

وهذا من جملة حِكَم المعراج العائدة إلى الأُمة باليقين والتمكين والطمأنينة، ليكونوا على يقين في عقيدتهم بلا شك، وكأنهم عاينوا ذلك كله.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾.

ففي هذه الآيات يقسم سبحانه بالنجم إذا هوى، وهذا يشمل جميع النجوم السَّيَّارة، التي تهوي من المشارق إلى المغارب، يُقسم بذلك على حَقِّيَّة هَدْي هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ورشاده وصدق منطقه وصوابه، وَينفي عنه كل النفي أن يكون ضل أو غوى، أو تكلم عن هوى؛ ويؤكد ذلك بإقرار قومه باعتبار أنه صاحبُهم، نشأ بينهم وعاملوه، فهم أعرف الناس بصدقه وأمانته، وصفات كماله، لم يعثروا له على ضلالة ولا غواية منذ صغره صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا تمهيد وإقامة حجة؛

على أنه صادق مصدَّق فيما رآه وسمعه ليلة معراجه إلى العوالم العلوية من السموات السبع، وسِدرة المنتهى، ومستوىً سمع فيه صريف الأقلام، وما هنالك مما رأى وشاهد من الجنة والنار.

وما اطلع عليه من العوالم الغيبية، ونعيم أهل البرزخ وعذابهم؛ واطلاعه على عذاب العُصاة والزُّناة والرباة وما وراء ذلك، ولذلك جاء بعد ذلك القسم والمقسم عليه في تلك الآيات، جاء ذكر المعراج، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم وصل إلى سِدرة المنتهى، ثم إلى عالم الجنة، وعاين ما فيها إلى ما وراء ذلك كما بيَّنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديث المعراج.

فقضايا الآخرة ثابتة بالقرآن، وبالبرهان، وبالعيان من أصدق إنسان؛ في جميع الأكوان، فلا حاجة بعد ذلك إلى حُجَّة وبيان، ولا ريب في قطعيَّة صِدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمانته، الذي صدَّقه الله تعالى، وصدَّقَتْه ملائكة الله تعالى، وصدقته عباد الله، وصدَّقته الأشجار والأحجار والأمدار، وصدقته ـ أي: شهدت بصدقه وأمانته ـ أعداؤه، فإنهم كانوا يُسَمُّونه الصادق الأمين، ولم يَعثروا له على كذبة قطُّ منذ صغره، حتى قال له أبو لهب الذي هو أشد أعدائه قال: يا محمد ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً ـ وتفاصيل ذلك ليس موضعها هنا.

* * *

أثـر الإيمـان بالآخـرة فـي النفوس

إنَّ إيمان المؤمن بالآخرة له آثاره القوية في نفس المؤمن، بل وفي عقله وفي جميع مداركه، وذلك أَنَّه لمَّا أيقن بوجود الآخرة؛ أصبح في حال مَن يعلم أن هناك مسؤولية على أقواله وأفعاله، وَمُحاسبة على ما يُقدمه وما يؤخره، ويبطنه ويظهره، ويُخفيه ويعلنه، وهذا مما يحمله على صدق القول، وإصلاح العمل، وإحسانه في المعاشرة، ويُلزمه بالنصح لعباد الله تعالى، وأداء الأمانة، ووفاء العهد، والقيام بمواجب الالتزامات في المعاملات المالية ونحوها؛ من سائر العقود والالتزامات، وكيف لا يكون حاله كذلك وقد أيقن أَنّ المحاسب والديّان في ذلك اليوم الآخر هو ربُّ العالمين، الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يَعْزُب عنه من مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

فالإيمان بالآخرة فيه إصلاح الدنيا ومجتمعها، وسير معاملاتها، وإصلاح الآخرة، كما أَنَّ الإيمان بالآخرة يدفع صاحبه إلى الجد والعمل، ويمنعه من القعود والكسل، وذلك لأنَّ النفوس البشرية مجبولة على أن تَستعدَّ للمستقبل.

أَلاَ تَرى الولد الناشىء، والذي دخل مرحلة الشباب يتطلَّع

لمستقبله في هذه الحياة الدنيا، ويَستعد له جاداً في الدراسة أو الصناعة أو الزراعة أو نحو ذلك، في حين أنه من المحتمل أن يُدرك مُستقبله الذي يُؤمِّله في الدنيا، ويُحتمل أن يُدركه الموت قبل أن يأتيه مستقبله الذي يؤمِّله من العمر الذي كان يطمح إليه.

ولكنَّ هناك مستقبلاً أكيداً محقق الوقوع، لا مخلص منه، والانتهاء إليه لا محالة فيه، وهو ما بعد الموت، فإن الغَدَ في الحياة الدنيا من المحتمل أن يُدركه الإنسان، أو يموت قبل أن يأتي عليه غد الدنيا، وأما غدُ الآخرة ـ وهو ما بعد الموت ـ فإنه مُحقَّقٌ لا محالة فيه، فإنَّ الموت لا بدَّ منه، ولا يُدرىٰ متى يكون.

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾.

أي: ماذا قدَّمت لغدِ الآخرة وهو ما بعد الموت.

وفي هذه الآية تنبيه وتذكير للعقلاء الذين يستعدُّون لمستقبل حياتهم في الدنيا: أن يعتبروا، وينظروا، ويفكِّروا في المستقبل المحقَّق الأكيد، الذي هو بعد حياتهم في الدنيا، وأن يُعدُّوا عدَّته؛ ذلك لأن الاستعداد لمستقبل محقق الانتهاء إليه هو أولى وأوجب على العاقل؛ من الاستعداد لمستقبلٍ محتملٍ أن يدركه وينتهي إليه، وهو المستقبل في هذه الحياة الدنيا.

فالاستعداد للآخرة أهم وأوجب، وذلك بالأعمال الصالحة، والأقوال الصادقة، والنيات الطيبة، والأخلاق الحسنة، والإخلاص لله تعالى في ذلك.

قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وفي: (المسند) عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذْ بَصُر بجماعةٍ، فقال: «علامَ اجتمع هؤلاء»؟

فقيل: على قبر يحفرونه.

ففزع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فبدر بين يدي أصحابه مُسرعاً، حتى انتهى إلى القبر، فجثا على ركبتيه، قال البراء رضي الله عنه: فاستقبلتُه من بين يَديه لأنظر ما يصنع، فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: شفقةً على أُمته ورحمة بهم ـ حتى بلَّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: «أَيْ إخواني لمثل اليوم فأعدّوا» الحديث.

فالله تعالى أمر بالتزوُّد في الدنيا، وهو اتخاذ ما يُحتاج إليه في السفر، ثم نبَّه سبحانه إلى السفر الأبعد والأطول؛ وهو السفر إلى الآخرة، فإنه أحوج إلى الزّاد، ولكنَّ زاده ليس من جنس زاد أسفار الدنيا، إنما زاد سفر الآخرة تقوى الله تعالى، وذلك بامتثال أوامره واجتناب ما نهى؛ ثم نبَّه العقلاء إلى التعقُّل والتفكير في ذلك، فقال: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

فشأن أولي الألباب أن يتزوَّدوا لآخرتهم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت» الحديث.

وروى الحافظ عبد الرزاق بإسناده، عن أبي جعفر قال: سئل

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيُّ المؤمنين أكيس ـ أي: أفطن وأعقل ؟ـ قال: «أكثرهم ذِكراً للموت، وأكثرهم لما بعده استعداداً».

كما أَنَّ الاستعداد للآخرة هو علامة انشراح الصدر للإسلام، ودخول الإيمان في القلب.

قال الحافظ ابن كثير: روى ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

قالوا: يا رسول الله ما هذا الشرح؟

قال: «نور يُقذف في القلب».

قالوا: يا رسول الله فهل لذلك من أمارة تُعرف؟ ـ أي: علامة لذلك تعرف ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم».

قالوا: وما هي؟

قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتَّجافي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت قبل الموت».

وقد أورد ابن كثير هذا الحديث بطرق متعددة عن ابن جرير أيضاً وغيره.

فإن قال قائل: إنه لا حاجة للإنسان أن يعمل للآخرة ويستعدّ لها، لأَنَّ الدار الآخرة ليست أمراً حقيقياً واقعياً.

فيقال له في الجواب: إن هذا الكلام باطل:

أولاً: إنّ أمر الآخرة وما فيها من الحشر والسؤال والجزاء، كل ذلك حقٌّ وحقيقة واقعية قطعاً؛ شرعاً وعقلاً، كما سبق من الأدلّة على ذلك، وكما سوف يَرِدُ إن شاء الله تعالى في مواضعه من هذا الكتاب.

ثانياً: يجب عليك أيها العاقل أن تُفكِّر في نفسك إذا أنت أعرضت عن أوامر الله تعالى، وتركت ما أوجبه عليك، وارتكبت ما نهاك عنه؛ ثم جاءك الموت وتبيَّن لك أَنَّ الآخرة التي كنت تَجْحدها هي أمر حقٌّ، وانكشفت لك حقيقتها الواقعة الحاقَّة، وقد كنت في الدنيا تَجْحَد وتُنكر، فماذا يكون موقفك حينذاك؟ إذاً لقد خِبتَ وخسرتَ، وأَسِفْت وندمت؛ حين لا تنفع الندامة.

وسوف يكون موقفك إذاً هو الموقف الذي حذَّرك الله تعالى منه، قبل أن تصير إليه:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾.

فتتوارد عليكَ الحَسَرات والويلات، وتلوم نفسك على ما كنتَ تسخر به وتُنكره قبل الموت، فإذا بك تُعاينه بعد الموت!

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾.

كما أن من آثار الإيمان بالآخرة في النفوس أَنَّه يُسهِّل على الإنسان بذل النفس والنفيس في سبيل الله تعالى، وذلك أَنَّ الإنسان لا يبذل ما هو عزيز عنده إلاّ لينال ما هو أعزُّ عنده، ولا يبذل ما هو ثمين عنده إلا لينال ما هو أغلى ثمناً، وإن أعزَّ شيء عند الإنسان نفسُه ثم مالُه، فلا يبذلهما إلا لينال ما هو أعزُّ وأكرم.

فالمؤمن بالآخرة لمَّا أيقن أَنّه إذا بذل نفسَه ومالَه في مرضاة الله تعالى، وفيما يُقَرِّبه إلى الله تعالى، وفي الجهاد في سبيل الله تعالى، وفي المساعدة لعباد الله تعالى؛ قاصداً بذلك وجه الله تعالى؛ وما عند الله تعالى ـ هان عليه بذل نفسه وماله، وسهُل عليه ذلك لإيمانه بوفاء الله تعالى بما وعده به من الجنة، التي أعلن الله تعالى عنها أنها الثمن والعِوَض للأنفس والأموال، في الشراء الذي أعلنه وأعلم به، وأكَّده وحقَّقه:

قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

ولا شك أَنّ هذا الإيمان ينهض بِهِمَّة صاحبه، ويُقوِّي عزيمته على الإقدام والبذل بلا إحجام ولا بخل.

روى الإمام مسلم من حديث غزوة بدر، وفيه قال أنس رضي الله عنه: (فَدَنا المشركون فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قوموا إلى جنَّةٍ عرضها السموات والأرض».

قال: فجعل يقول عميْر بن الحُمام الأنصاري رضي الله عنه:

يا رسول الله جَنة عرضُها السموات والأرض؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم».

فقال: بخٍ بخٍ يا رسول الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يحملك على قولك: بخٍ بخٍ».

قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإنك من أهلها».

قال أنس رضي الله عنه: فأخرج تمرات من قَرنه ـ أي: جُعبته ـ فجعل يأكل منهنَّ، ثم قال: لئن أنا حَييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة.

قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتِل).

وفي: (صحيح) مسلم من حديث أنس بن النضر عمِّ أنس بن مالك رضي الله عنهما يوم أحد قال: (فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد، فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه.

فقال له أنس بن النضر رضي الله عنه: يا أبا عمرو أين؟

ثم قال أنس بن النضر رضي الله عنه: واهاً لريح الجنة، أجده دونَ أُحُد، فقاتلهم حتى قُتِل، فوُجِد في جسده بضع وثمانون مِنْ بين ضربةٍ ورميةٍ وطعنة).

وعند البخاري: (فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال أنس بن النضر رضي الله عنه: يا سعد بن معاذ: الجنةَ وربِّ النضر، إني أجد ريحها من دون أحد.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: فوجدنا به بضعةً وثمانين

ضربة بالسيف، أو طعنة برمحٍ، أو رمية بسهمٍ، ووجدناه قد قُتِل ومَثَّل به المشركون، فما عرفه أحَد إلا أُختُه الرُبيِّع بنت النضر ـ بشامة أو ببَنَانه) الحديث.

ومن آثار الإيمان بالآخرة أنه يُهوِّن على صاحبه الشدائد والمصائب، ويخفِّف عنه المساوىء والمصاعب، وذلك أَنّ الإنسان مُعرَّض في هذه الحياة الدنيا للمصائب والمكاره: في نفسه، أو ولده، أو ماله، أو ما يلوذ به.

فالمؤمن بالآخرة تهون عليه المصائب وما يعتريه من مرض أو همٍّ أو غم، لأنه يعلم أَنّ ذلك من الله تعالى، وسوف يُؤجره الله تعالى على ذلك يوم القيامة.

كما جاء عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما يُصيب المؤمن من نصبٍ» أي: تعب «ولا وَصَبٍ» أي: مرض «ولا همٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا أذى، ولا غمٍّ، حتى الشوكة يُشاكها: إلا كفَّر الله تعالى بها من خطاياه» رواه البخاري ومسلم، وابن أبي الدنيا عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي رواية له: «ما من مؤمن يُشاك بشوكةٍ في الدنيا يَحتسبها» أي: يعلم أنها من الله تعالى، ويَحْتَسِبُ أجرها عند الله «إلا قُصَّ بها من خطاياه يوم القيامة».

وروى ابن أبي الدنيا أيضاً بسند الثقات، عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «صُداع المؤمن، وشوكة يُشاكها، أو شيء يؤذيه يرفعه الله بها يوم القيامة درجةً، ويكفِّر بها عنه ذنوبه».

وأما مَن لم يُؤمن بالآخرة فَحين تصيبه المصيبة، أَو تعتريه الأمراض والآلام والهموم فإِنّها تَتضاعف عليه شِدَّتُها وكُرباتها:

أولاً: لأنها في نفسها مُؤلمة ومحزنة.

ثانياً: لأَنّه ليس هناك شيء يُسليه عن شِدَّتها، ويخفِّف عنه أَلَمها: من أجر يلقاه، أو خير يتلقاه مقابل مصيبته وكَربه، فهو يضيق بنفسه ذرعاً، ولا يجد ما يُهوِّن عليه شدته، ويُسلِّيه عن مُصيبته.

* * *

الموت وحقيقته

قال الإمام الشيخ محيي الدين ابن عربي رضي الله عنه: اعلم أن الموت عبارة عن مفارقة الروح الجسد الذي كانت به حياته الحسية، وهو طارىء عليها بعدما كانا موصوفين بالاجتماع؛ الذي هو عِلَّة الحياة.

وقال أيضاً: والموت عبارة عن الانتقال من منزل الدنيا إلى منزل الآخرة وما هو ـ أي: ليس هو ـ عبارة عن إزالة الحياة منه في نفس الأمر، وإنما الله تعالى أخذ بأبصارنا فلا تُدْرِك حياته، وقد ورد النصُّ في الشهداء في سبيل الله تعالى أنهم أحياء يُرزقون، ونُهينا أن نقول فيهم أموات، فالميت عندنا ينتقل وحياته باقية لا تزول، وإنما يزول الوالي ـ وهو: الروح ـ عن هذا المُلك ـ أي: التصرف في الجسم الذي وكَّله الله تعالى بتدبيره أيام ولايته عليه ـ.

قال: والميت عندنا يعلم من نفسه أنه حيٌّ، وإنما تَحكم عليه بأنه ليس بحيٍّ جهلاً منك، ووقوفك مع بصرك، ومع حكمك في حاله قبل اتصافه بالموت، من حركة ونطق وتصرف، وقد أصبح متصرَّفاً فيه لا متصرِّفاً.

ثم قال: فالموت انتقال خاصٌّ على وجهٍ مخصوص إلخ. اهـ.

وقال الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه: بل الذي

تشهد له طرق الاعتبار، وتنطق به الآيات والأخبار، أن الموت معناه تغيُّر حال فقط، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد: إما معذَّبة، وإما منعَّمة.

ومعنى مفارقتها الجسد: انقطاع تصرُّفها عن الجسد، بخروج الجسد عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها، حتى إنها ـ الروح ـ لتبطش باليد، وتسمع بالأذن، وتبصر بالعين، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب، والقلب ههنا عبارة عن الروح ـ أي: القلب الروحاني لا القلب الصنوبري الجسماني ـ والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة.

ثم قال رضي الله عنه: فكلٌّ ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقته الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء تتعطل بموت الجسد، إلى أن تُعاد الروح إلى الجسد. اهـ.

* * *

كلمات حول الروح الإنساني

أولاً: أما حقيقة الروح الإنساني فقد سُئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنها؟ فأنزل الله تعالى عليه الجواب: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين كان في مكة، سألته قُريش عن الروح؛ كما روى الإمام أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل.

فقالوا: سلوه عن الروح.

فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا هاجر إلى المدينة، سأله اليهود عن الروح، كما جاء في: (الصحيحين) واللفظ للبخاري، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (بينا أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حَرْثٍ، وهو متوكِّىء على عَسيبٍ، إذ مرَّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه ـ أي: سلوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ـ عن الروح.

فقال: ـ أي: بعضهم ـ ما رابكم إليه.

وقال بعضهم: لا ـ أي: لا تسألوه ـ لا يُخبركم بشيء تكرهونه ـ أي: وذلك يُغيظكم بمعرفته الجواب ـ.

فقالوا: سلوه ـ فسألوه عن الروح.

فأمسك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يردَّ عليهم شيئاً.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: فعلمتُ أنه يُوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ الآية).

والمراد بالروح هنا الروح الإنسانيُّ، بدليل ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنَّ اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: أخبرنا عن الروح، وكيف تعذَّب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله ـ فنزلتْ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ الآية.

والمعنى ـ والله أعلم ـ أَنَّ الروح من عالم الأمر الرباني اللطيف، وذلك أن هناك عالماً يُسمى عالَم الأمر، وعالماً يُسمى عالَم الخَلق، وذلك ثابت بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

فعالَم الخَلْق هو: خُلِق بأمرٍ من الله تعالى له: كنْ فيكون، ولكن من مادةٍ، ويجري عليها التركيب والتطوير والتوالد، وذلك كجسم الإنسان المخلوق من تراب.

وأما عالَم الأمر فهو: ما خُلق بمجرد قول الله تعالى له: كنْ، دون أن يكون له مادة ولا تطوير ولا توالد، ومن ذلك هذا الروح الإنساني.

فالإنسان فيه مجمع العالَمَيْن: فجسمه من عالم الخلق الكثيف

المادي، وروحه من عالم الأمر اللطيف.

ثم إنَّه سبحانه وتعالى سجَّل على العباد قلة العلم، وكثرة الجهل، وأن ما عندهم من العلم فهو مما آتاهم وتفضل به عليهم هو سبحانه، وأن العلم المحيط بكل شيء هو لله تعالى وحده:

فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وهذه القِلَّة في العِلْم التي أُوْتوها هي في غاية القلة، ومهما تصوَّرها الإنسان من قلةٍ فهي أقلُّ وأقلُّ؛ وقد ضَرَب سيدنا الخضر على نبينا وعليه الصلاة والسلام مثالاً لهذه القلة في العلم التي أعطيها سائر المخلوقات بالنسبة للعلم الإلَهي الذي لا يتناهى ـ حيث قال لسيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، حين اجتمعا وجلسا على شاطىء البحر، فأرسل الله تعالى عُصفوراً، فوقف على حرف السفينة، ونقر في البحر.

فقال له الخضر عليه السلام: يا موسى ما علمي وعلمك، وعلم سائر الخلائق من علم الله تعالى إلاَّ كما نقر هذا العصفور من البحر.

كما جاء هذا في: (الصحيحين) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يحكي ذلك عن موسى والخضر عليهما السلام، بإقرار منه صلى الله عليه وآله وسلم لذلك.

وهذا المثال جاء لبيان سعة علم الله تعالى الذي لا يتناهى، وقلة علوم الخلائق المتلاشية بالنسبة لعلم الله تعالى، ولم يَجِيء هذا المثال لتحديد النسبة؛ وإلا فلا نسبة ولا تناسب.

فهو سبحانه العليم بكلِّ شيء، عِلماً ذاتياً واجباً، وعلمه قديم لا أوَّل له ولا آخر له، وقد أوجد العالم على علمٍ منه سابق، قال

تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

فعلمه بالمخلوقات سابق عليها، وإلاَّ كيف يُتصوَّر أن يكوِّنها ويصوِّرها إذا لم يكن له علم بها سابق؟ كما جاء التنبيه إليه في هذه الآية الكريمة.

هذا وإنَّ علمه تعالى محيط بما كان وبما يكون، فهو يعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون، ويعلم ما لا يكون كيف يكون لو كان:

قال تعالى في الكفار: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

وقال تعالى في الكفار حين وقفوا على النار، وتمنّوا أن لو عادوا إلى الدنيا ليُصلحوا أمرهم: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ الآية.

ثم إنَّ عالَم الأمر الذي أَلْمحنا إليه هو داخل في عالَم الملكوت؛ الذي جاء ذكره في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، كما أن عالَم الخَلق داخل في جملة عالَم المُلك، وكلٌّ من العالَمين المذكوريْن: المُلك والملكوت بيد الله تعالى، يتصرَّف فيهما كما يشاء، كما هو مقتضى حكمته الموافقة لعلمه سبحانه.

قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

فكل شيءٍ كائن في عالَم الخلق ما قام إلا بالملكوت، وهو الأمر الرَّباني الذي قامت به الأشياء، فملكوت الأجسام الإنسانية هو رُوحها.

وفي: (السنن) عن حذيفة رضي الله عنه، أنه رأى النبي صلى

الله عليه وآله وسلم يصلِّي في الليل، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الله أكبر ـ ثلاثاً ـ، ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة».

وفي: (سنن) أبي داود، عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلةً فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوَّذ، ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحانَ ذي الجَبَروت والملكوت والكبرياء والعظمة» الحديث.

وفي: (مسند) الإمام أحمد، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قُمتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذاتَ ليلةٍ، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعاتٍ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا ركع رفع رأسه من الركوع وقال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قال: «الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والعظمة والكبرياء».

وقد كثرتْ أقوال العلماء في الفرق بين هذه العوالم الثلاثة، والحقُّ ما قاله محققوا العارفين نفعنا الله تعالى بهم أجمعين:

أَنّ عالَم الأمر ـ ويسمى: عالم الملكوت ـ هو عالم الأرواح والروحانيات والنفوس، سُمِّي بذلك لأنه يوجَد بأمر الحق سبحانه بلا واسطة مادة وَمُدَّة.

وأن عالم المُلك ـ ويسمى: عالَم الشهادة ـ هو عالم الأجسام والجسمانيات، وهو ما يوجد بعد الأمر بمادَّة ومُدّة، ويجري عليه التركيب والتوالد.

وأما عالم الجبروت: فاختلف فيه العارفون.

فقال بعضهم: هو مشتق من الجَبْر وهو القهر، فيشمل عالَم البرزخ بعد الموت، وعالم موقف الحشر؛ لأن فيهما يظهر حكم القهر الإلّهي.

وقيل: هو مأخوذ من الإجبار بمعنى الاستعلاء، فيشمل عالم العقول والنفوس المجرَّدَة، لاستعلاء هذا العالم عن تركبه من العناصر.

وعند الشيخ أبي طالب المكي: هو عالم العظمة، فيشمل عالَم الآخرة، وعالم أرض الحقيقة التي تُرى فيها الأشياء على حقائقها.

وقد حثَّ الله تعالى عباده أن ينظروا في العالَمَيْن: عالم الملك، وعالَم الملكوت، ولكن فرّق بين النظرين لافتراق العالَمَيْن:

فقال تعالى في عالم المُلك: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ الآيات.

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾.

فالنظر في هذه الآيات متعدٍّ لما بعده بإلى، لأن المنظور إليه يُرى بحاسَّة البصر وهي العين، ويُشْهَد حِسّاً.

وأما عالم المَلَكوت فقال تعالى فيه: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ الآية.

فأمر سبحانه بالنظر فيه، والمراد بذلك نظر التفكر والاعتبار والتعقُّل، والاستبصار في الملكوت الذي أقام الله تعالى به الأشياء، وأمسك به عليها قُواها وقِوامها، وهذا من الأُمور الغيبية التي لا يَراها إلا من أطلعه الله تعالى على ما شاء منها، وأشهده ذلك،

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾.

وأعظم من أراه الله تعالى ذلك وأطلعه على جميع ما هنالك؛ هو السيِّد الأكرم سيِّدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، حيث قال مُخبراً عن ذلك المشهد: «فتجلَّى لي كل شيء، وعرفتُ، ثم قرأ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾».

كما جاء في: (سنن) الترمذي و(مسند) أحمد وغيرهما.

وفي رواية الترمذي: «فعلِمتُ ما في السموات وما في الأرض».

وفي رواية الطبراني: «فعلَّمني كلَّ شيء».

ثانياً: إن الرُّوح الإنسانية هي: شريفة كريمة، قُدسيَّة عالية، أعلن الله تعالى شَرافتها وكرامتها بإضافتها إليه حيث قال سبحانه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾.

فأخبر سبحانه عن شرف الإنسان: جسماً وروحاً:

أما شرف جسمه فقد سوَّاه هو سبحانه، وأكمله وعَدَّله وأحسنه، كما أخبر عن ذلك بقوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾.

فجسم الإنسان ليس كبقية الأجسام البهيمية الحيوانية، بل هو مُشرَّف بتسوية الله تعالى له، وتعديله وإحسان تقويمه.

وأما شرف روحه فقد أضافها الله تعالى إليه حيث قال: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ والنفخ هنا كناية عن إيصال الروح بالجسم، وإفاضتها على ذراته كلِّها بالحياة بعد أن صار مسوّىً، ومستعداً للروح و﴿ مِن ﴾ التي في قوله تعالى: ﴿ مِن رُّوحِى ﴾ هي للابتداء، أي: من

روحٍ بدءُ خلقها وإيجادها من الله سبحانه.

وفي هذا بيان أَنَّ الروح الإنسانية ليست كغيرها من أرواح البهائم والحيوانات، بل هي في أوج الشرف والكرامة، والاستعداد للفيوضات والمعارف الإلَهية، والقضايا الإيمانية، وفيها الأهلية الكاملة لأن تكون موضع الخطابات الإلَهية الشرعية: بالأوامر والمناهي، والآداب والأخلاق العالية، فَيُخاطبه الله تعالى بقوله: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾.

وبقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

وبقوله: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾ ـ ونحو ذلك.

والروح هي: من العالَم الملكوتي العلويِّ، هبطت إليك من المحل الأرفع، وقُرِنَت بهذا الجسم الإنساني:

فإذا أجاع الإنسان بدنه وشغله بالعبادة، وأقامه في خِدْمة مولاه تعالى بالعمل فيما أمره به ربُّه سبحانه ـ وجَدَتْ روحه خفةً ولطافة، وشعرت باللذة والراحة، فتاقت إلى المستوى الذي هبطت منه، واشتاقت إلى عالَمها العلويِّ المقدس.

وإذا أثقل الإنسان بدنه بالمآكل والمشارب، وأخلد إلى الشهوات وكثرة النوم والراحة، وانهمك في اللذائذ الجسمية، ثقلت الروح، وهبطتْ من عالَمها، وصارت أرضية سُفلية.

ولذلك ترى الرجل الصالح في العمل، الصادق في عبادته لربه، المخلص لله تعالى دينه ـ ترى بدنه عندك في الأرض، ولكنَّ روحه وقلبه في العالم العلويِّ يجول، كما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لحارثة رضي الله عنه الذي عزفت ـ زهدت ـ نفسه عن الدنيا.

قال له: «كيف أصبحت يا حارثة بن مالك»؟

فقال: أصبحت مؤمناً حقاً.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ لكلِّ حقٍّ حقيقةً، فما حقيقة إيمانك»؟

فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرتُ ليلي، وأظمأتُ نهاري، فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً للحساب، ولكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، ولكأني أسمع عِواء أهل النار.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عبد نَوَّر الله الإيمان في قلبه ـ عرفتَ فالزم»[1].

وروى ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان بإسناده، عن محمد بن صالح، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقي عَوْف بن مالك فقال: «كيف أصبحتَ يا عوف بن مالك»؟

فقال: أصبحت مؤمناً حقاً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لكل قولٍ حقيقةً، فما حقيقة ذلك»؟

قال: يا رسول الله، أطلقت نفسي عن الدنيا، فأسهرتُ ليلي، وأظمأتُ هَواجري ـ جمع هاجرة وهي الظهيرة ـ وكأني أنظر إلى عرش ربي، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر

---

(١) قال العلامة ابن رجب الحنبلي: وحديث حارثة رضي الله عنه المشهور قد رُوي من وجوه مرسلة وروي متصلاً، والمرسل أصح. اهـ (جامع العلوم والحكم).

وأورده ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان، وأورده الحافظ في: (الإصابة) وذكره غير هؤلاء من المحدثين.

إلى أهل النار يتضاغون فيها ـ يصيحون ويستصرخون ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عرفتَ ـ أو «لُقِّنتَ» ـ فالزم».

وفي رواية: «عبد نوَّر الله قلبه».

وعلى العكس، فإن الكفار والفجار لما أخلدوا إلى الأرض، وعَمُوا وصمُّوا في شهواتهم البهيمية، وأهوائهم السفلية، فإن أرواحهم هَبَطتْ من عَليائها، وصارت أرضيةً دنيَّة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: لم يتحقق بمواجبها، ولم يتلبَّس بمعانيها، بل انخلع منها ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فاصطاده وافترسه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ بعد أن كان من الراشدين ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ بتلك الآيات الكريمة العالية، فإنها بها يعلو عالي الهمَّة ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مال إلى مَلاذِّها وزخارفها كلَّ الميل، حُبّاً فيها، وهياماً بها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وفي ذلك دليل على دناءة هِمَّته، وخسَّة بُغيته، حيث إنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى، فهو في ذلك ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

أي: شأن الكلب أن يلهث إن تركته أو حَمَلْتَ عليه وطردته، وكذلك مَنْ كفر وأخلد إلى الأرض فهو يلهث على الدنيا متكالباً عليها، فهو إن تركتَه يلهث على الدنيا، وإن حملت عليه بالوعظ والتذكير، والحجة والبينات يلهث على الدنيا، ولا يعلو عنها بهمته وعزيمته ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثالثــاً: ذهب جمهور العلماء إلى أن الأرواح الإنسانية مخلوقة

قبل الأجساد، واستدلوا على ذلك بما جاء في حديث المعراج المرويِّ في: (الصحيحين) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في حديثه عن المعراج: «فلما فُتح ـ أي: فتح خازن السماء الدنيا الباب لنا ـ علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد، على يمينه أسْوِدة، وعلى يساره أسْودة، إذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى.

فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قلتُ لجبريل: مَنْ هذا؟

قال: هذا آدم، وهذه الأسْودة عن يمينه وعن شماله نَسَمُ بنيه ـ أي: أرواح بنيه ـ فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى» الحديث.

فهذا دليل على أن الأرواح مخلوقة ومودعة هناك في السماء، فإذا كَمُل للجسم استعداده لتقبُّل هذه الروح، بأن مضى عليه أربعة أشهر في رحم أُمِّه ـ أمر الله تعالى الملك أن يأتي بهذه الروح، فينفخها في الجنين، فيحيا حياة روحية فوق الحياة النامية التي كان عليها قبل أن تَمضي عليه أربعة أشهر وهو في الرحم، فما يَظهر للجنين من حركة قبل أربعة أشهر؛ فتلك حركة نُموٍّ ـ كما تتحرك الناميات من الزروع ونحوها، وأما الحركة الروحية فهي بعد أربعة أشهر.

واستدل العلماء على تقدم خلق الأرواح على الأجسام بما ثبتَ من قضية عالم الذَّرِّ، وذلك أَنَّ الله تعالى بعد أن خلق آدم عليه السلام، استخرج منه الذراري التي سيخلقها منه إلى يوم القيامة، وأفاض عليها الأرواح، وأخذ عليهم العهد، وأشهدهم على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ـ أي: أنت ربنا ـ ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾.

جاء في: (مسند) الإمام أحمد، عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه في هذه الآية أنه قال: (جمعهم الله تعالى فجعَلَهُم أرواحاً، ثم صوَّرهم فاستنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى.

قال: فإني أُشهد عليكم السموات السبع، والأرضين السبع، وأُشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام: أن تقولوا لم نعلم بذلك.

اعلموا أنه لا إلّه غيري، ولا ربَّ غيري، فلا تُشركوا بي شيئاً.

إني سأرسل إليكم رُسُلي يذكِّرونكم عهدي وميثاقي ـ أي: هذا العهد والميثاق الذي أُخذ عليكم الآن ـ وأُنزل عليكم كتبي.

قالوا: شهدنا بأنك ربّنا وإلّهنا، لا ربَّ غيرك ـ فأقرُّوا بذلك). اهـ.

ورواه الحاكم وصحح إسناده وأقره الذهبي، ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مَرْدُويه وغيرهم.

وقد جاء ذلك المعنى في عدة أحاديث مرفوعة، ومن ذلك ما رواه الترمذي وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كلّ نَسَمَةٍ هو خالقها إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كلِّ إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عَرَضهم على آدم.

فقال: أيْ ربِّ مَن هؤلاء؟

قال: هؤلاء ذريَّتك» الحديث قال الترمذي فيه: حسن صحيح.

ومن الأدلة على تقدُّم خلْق الأرواح على الأجسام، ما رواه الإمام مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الأرواح جُنود مُجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» ورواه البخاري معلقاً.

فالأرواح التي تقوم بها الأجساد هي جموع متجمِّعة، وأصناف مُصَنَّفَة، وهي في عالَم الأمر قبل عالم الخلْق الجسماني، فما تعارف منها في ذلك العالم إلى بعضها ائتلف ههنا في هذا العالم الجسماني، وما تناكر منها هناك اختلف ههنا.

قال العلامة المُنَاوي رحمه الله تعالى حول هذا الحديث: فالائتلاف والاختلاف للقلوب والأرواح البشريَّة، التي هي النفوس الناطقة، مجبولة على ضرائب مختلفة، وشواكل متباينة، فكلُّ ما تشاكل منها في عالَم الأمر تعارف في عالَم الخلق، وكلّ ما كان في غير ذلك في عالم الأمر تناكر في عالم الخلق. اهـ.

ومن الأدلة على تقدم خلق الأرواح، ما رواه ابن مَنْدَه مرفوعاً قال: «خَلَق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام».

وأوَّل الأرواح البشرية خَلْقاً هو روح السيِّد الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، كما أخبر عن ذلك بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كنت أول الناس في الخَلْق وآخرهم في البعث» رواه ابن سعد مُرسلاً بإسناد صحيح.

ورواه أبو نعيم، وابن أبي حاتم في: (تفسيره) وابن لال، والديلمي كلُّهم من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن،

عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «كنتُ أول النبيين في الخَلْق وآخرهم في البعث».

وهذه الرواية تفسِّر رواية ابن سعد، وأن المراد من الناس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم أوَّلهم في عالَم الأرواح، وخاتمهم في عالم الأشباح صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد نبَّأه الله تعالى في عالم الأرواح قبل الأنبياء كلِّهم، فبه فُتحت النبوة في عالم الأرواح، وبه خُتمتْ في عالم الأشباح صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهو الفاتح وهو الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، متى وجَبَتْ لك النبوة؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد» وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

ورواه أبو نعيم، والبيهقي، والحاكم وصحَّحه، ورواه البزار، والطبراني، وأبو نعيم أيضاً من رواية ابن عباس رضي الله عنهما.

وعن ميسرة الفجر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبياً؟

قال: «كنتُ نبياً وآدم بين الروح والجسد» رواه الإمام أحمد، والبخاري في: (التاريخ)، والطبراني، والحاكم وصححه، وقال الحافظ الهيثمي في رجال أحمد والطبراني: رجالهما رجال الصحيح. اهـ.

* * *

بشارة الملائكة عليهم السلام للمؤمن عند الموت

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ جعلنا الله منهم ـ اللهم آمين.

فملائكة الله تعالى تتنزَّل على المؤمنين أهل الاستقامة عند موتهم، وفي قبورهم، وبعثهم وحشرهم، وفي جميع تقلباتهم في برازخ الآخرة ـ تطميناً لأنفسهم، وتأميناً لهم من مخاوف الآخرة وفزعها؛ يقولون لهم: لا تخافوا مما سَتَقْدمون عليه من العوالم الأخروية، ولا تحزنوا على ما خَلَفَكم في الدنيا من الولد والأهل والمال، فإنا نَخْلُفُكم فيهم.

فبعدما يؤمِّنونهم يبشرونهم بالجنة التي كانوا يوعدون بها في الدنيا، على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ويقولون لهم ملاطفة ومؤآنسة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: نحن أحباؤكم وأنصاركم، ونصحاؤكم في الحياة الدنيا؛ كنا نحفظكم بأمر الله تعالى، ونثبتكم بإذنه تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ

﴿إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ونحن الذين كنا ننصركم على عدوِّكم الشيطاني، ونلمّ بكم فنلهمكم الخير حين كان الشيطان يزيِّن لكم الشر، كما أننا نحن أحبابكم الذين كنا نحضر معكم في مجالس صلواتكم وعباداتكم وأذكاركم.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: ونحن أولياؤكم في الآخرة، نؤنسكم من الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصُّور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونُجاوزكم الصراط المستقيم، ونُوصلكم إلى جنات النعيم: آمنين مستبشرين.

وما أشدَّ حاجة الإنسان إلى الصديق الصادق وقت الضيق الخانق:

ومن ولائهم في الآخرة: شهادتهم للمؤمنين عند ربهم بطاعتهم، وعباداتهم، لأنهم كانوا يُشاهدونها في الدنيا، وَيَشهدونها معهم.

إنذار الملائكة عليهم السلام للكافر عند موته بالعذاب

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

فإذا نزل الموت بالكفار وصاروا في غمراته وشدائده، بَسطت الملائكة إليهم أيديهم بالضرب والزجر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ

إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

فهم يضربونهم ويقولون لهم تعنيفاً وإغلاظاً: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أي: أرواحكم من أجسادكم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: اليوم تُهانون غاية الإهانة والإذلال بسبب أنكم كنتم في الدنيا تكذِبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسله صلوات الله تعالى عليهم ـ وهكذا غمرتهم الشدائد غَمرة فوق غمرة، كما يغمر الماء الغريق، وازدحمت عليهم الكُربات، وتوالت عليهم الضربات بمقامع الحديد ـ والعياذ بالله تعالى.

حسَرات الكفَّار والعُصاة حين ينزل بهم الموت وتمنِّيهم العـودة إلى الدنيـا

قال الله تعالى في الكفار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

فهو سبحانه يُخبِر عن الكافر حين يُحتضر، أنه يَسأل الرجعة للدنيا ليصلح العمل، كما يَسأل الرجعة حين يرى العذاب يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

كما أنهم يتمنَّون الرجعة ويسألونها حين يدخلون جهنم، ويستقرون فيها.

قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيقال في الجواب: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ أي: لقد أَعْطيناكم عُمُراً فيه متسع لكم أن تتذكروا وتتعظوا بما جاءت به آيات الله تعالى، وبما جاءت به رسل الله تعالى، وبما أنذرتكم به أنبياء الله تعالى صلوات الله عليهم ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

قال قتادة ـ التابعي المفسر ـ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ قال: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى مال، ولا بأن يَجمع الدنيا ويَقْضي الشهوات، لكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله ـ فرحم الله امرأً عمل بما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب في النار.

وقد أخبر سبحانه عن العُصاة المفرطين أنهم يسألون طول المدة في الدنيا؛ وتأخير الموت، ليستدركوا ما فاتهم في حياتهم الدنيا:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فهو سبحانه يأمر عباده المؤمنين بِكثرة ذِكْرِهِ، وينهاهم عن أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذلك، وبيّن لهم أنَّ من فعل ذلك فقد خسر نفسه وأهله يوم القيامة.

ثم إنَّه سبحانه يحث عباده المؤمنين على الإنفاق في طاعته قبل

أن ينزل الموت بأحدهم؛ فيسأل تأخير الأجل ـ وقد مضى الزمان، وفات الأوان.

روى الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مَن كان له مال يبلِّغه حج بيت ربه، أو تجب عليه منه زكاة فلم يفعل ـ أي: لم يؤدّ واجبه ـ سأل الرجعة عند الموت.

فقال رجل: يا ابن عباس اتق الله، فإنما يسأل الرجعة عند الموت الكفار.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: سأتلوا عليك بذلك قرآناً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ الآيات.

وروى ابن أبي حاتم، عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من القبور، تدخل عليهم في قبورهم حيَّات سُود أو دُهْم: حية عند رأسه، وحية عند رجليه؛ يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ، قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

* * *

عالَـم البَـرزَخ

قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

البرزخ هو الواقع بين الشيئين، والمراد بالبرزخ في الآية الكريمة: هو العالم الذي ينتقل إليه الإنسان بعد الموت، ويبقى فيه إلى يوم البعث؛ فهو عالَم واقع بين الدنيا وبين عالم الآخرة، وهذا أول البرازخ التي يدخل فيها الإنسان إلى الآخرة.

ويُسمى عالَم القبر، وهو ما يصير إليه الإنسان من حيث جسمه، فحيثما صار إليه الجسم بعد موته فهو قبره، ولو في أعماق البحار، على أَنَّ تَسميته بعالَم القبر هي أغلبية، لأن جميع الأموات يصيرون إلى عالم البرزخ، قُبِروا أَمْ لم يقبروا، فإنهم بعد الموت دخلوا في عالم آخر غير عالم الدنيا، دخولاً حقيقياً وهو عالم البرزخ.

وعن هانىء مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يَبلَّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي؟

فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشدّ منه».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه» رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

وكان عثمان رضي الله عنه ينشد:

فإن تنجُ منها تنج من ذي عظيـ ـمةٍ وإلاّ فإني لا إخالكَ ناجيا

فأمر البرزخ ولبثهم في القبور مؤقت، كزيارة الزائر المؤقتة، ثم المصير إلى ما وراء ذلك، قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يعني: شغلتكم أولادكم وأموالكم؛ والتكاثر فيها، والتنافس عليها حتى متم وزرتم القبور؛ والزيارة إنما تكون مدةً مؤقتة ثم ينتقل الزائر إلى منزله الذي يقيم فيه؛ وذلك: إما الجنة بالنسبة للمؤمن، وإما جهنم بالنسبة للكفار.

روى ابن أبي حاتم، عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فلبث هُنَيْهَةً ـ أي: مدة من الزمن ـ ثم قال: يا ميمون ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدٌّ من أن يرجع إلى منزله ـ أي: الجنة أو النار ـ.

وسمع بعض الأعراب رجلاً يتلو هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقال الأعرابي: بُعث القوم وربِّ الكعبة ـ يعني: أن الزائر سيرحل عما قريب من مقامه إلى غيره ـ.

وَيُسمى عالم الصُّور، لأن أرواح الأموات تجتمع فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾.

وقد أمرنا الشارع أن نسلِّم على الأموات، ونقوم على قبورهم، لأنهم يسمعون ويشعرون كأهل الدنيا؛ بل أقوى، ولو كانوا

لا يسمعون سلاماً، ولا يرون على قبورهم قائماً، لكان السلام والقيام على قبورهم عبثاً ـ وهذا لا يقع في شرع الله الحكيم العليم البتة.

ولكنهم لا يُسمع لهم جواب ولا خطاب، لأنهم في برزخ في الآخرة الخفية عن الأبصار، إلا لمن كشف الله تعالى له عن ذلك: كالأنبياء صلوات الله عليهم، وبعض الأولياء رضي الله عنهم.

كما أن عالَم المنام برزخ: بين عالم الأشباح وبين عالم الأرواح، وتظهر فيه بعض أحكام عالمي الأشباح والأرواح، ومن هنا سُمِّي النوم وفاةً، كما سُمي الموت وفاة لتشابههما بعض الشبه، وإن اختلفت حقيقة الوفاتين، فإن التوفية معناها الأخذ والقبض، تقول: توفَّىٰ دَينه ـ أي: استوفاه ـ.

وقد جاءت التَّوْفية في القرآن على ثلاثة أنواع:

تَوْفِيَةُ النوم: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ الآية.

وبهذه التوفية تَتَوَجَّه الروح لعالم آخر، مع بقائها في الجسم، فالحياة ثابتة في الجسم لم تُفارقه، ولكنها توجَّهت إلى عالم برزخي: بين عالم اليقظة وبين عالم الأرواح.

وتوفية الموت: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية.

وبهذه التوفية تُقبض الروح من الجسم، فلا حياة فيه كما كان من قَبْلُ، فتلتحق الروح بعالم البرزخ بين الدنيا والآخرة.

وتوفية فيها قبض الروح والجسم معاً، والأخذ بهما إلى عالم

آخر، قال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية.

فقوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك إليَّ جسماً ورُوحاً ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ أي: رافع جسمك وروحك إليَّ لأحفظك مما همَّ به أعداؤك، وهو القتل.

ولا يصح أن تُفَسَّر التوفية هنا بالموت الذي هو قبض الروح، لأنه يصير المعنى حينئذٍ إني متوفي روحك إليّ، ورافع روحك إليّ، في حين أن روح كلِّ مؤمنٍ بعد موته تُرفع إلى الله تعالى، وتفتح لها أبواب السماء كما تقدم، وليس ذلك خصوصية لعيسى عليه السلام.

على أن تفسير التوفية لعيسى عليه السلام بالموت، يتنافى حينئذ مع قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ وهذا ـ وهو إيمان أهل الكتاب كلهم بعيسى عليه السلام ـ لم يحصل، فموته لم يحصل إذاً، لأن عيسى عليه السلام لا يموت حتى يُؤمن به جميع أهل الكتاب؛ حتى اليهود إيماناً حقاً، ومَن لم يُؤمن به يقتله عيسى عليه السلام، وهذا لم يقع، ولكنه سوف يقع بعدُ، حين ينزل في آخر الزمان قُربَ الساعة.

كما أن تفسير التوفية لعيسى عليه السلام بالموت لا يصح، لأنه يتنافى مع الآية قبل هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ الآية.

فمكرُ الله سبحانه وتعالى بالذين قصدوا قتله، هو أنَّه سبحانه ردَّ

مكرهم عليهم بأن أنجى عيسى عليه السلام، وقَبَضَه جسماً وروحاً، ورفعه الله حفظاً منهم وألقى الشَّبَه على الذي حاول قتله، فقتلوا الشبيه ـ وهذا من باب المكر بهم، ورد مكرهم عليهم.

على أننا لو تتبعنا كيف مكر الله تعالى بالماكرين برسله صلوات الله عليهم، لرأينا أن الله تعالى قد حفظ رُسله من أعدائهم، وردّ مكر أعدائهم، ولم يُمت رسله بل سلَّمهم ونجَّاهم.

قال تعالى في الذين مكروا برسول الله صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية.

وقال تعالى في كفار قريش، الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الهجرة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

وكان مكر الله تعالى بهم أن حفظ رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وأخرجه من بين صفوفهم سالماً آمناً؛ وهم لا يرونه صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا عيسى عليه السلام، لقد حفظه الله تعالى، ومكر بالماكرين به، ورفعه إلى السماء الثانية، حتى يحين نزوله قبيل الساعة.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ الآية.

فنزول عيسى عليه السلام من علامات الساعة الكبرى، كما جاء في الأحاديث النبوية المتواترة، وليس هنا موضع ذكرها.

* * *

لقـــاءُ الله تعالـى

اعلم أَنَّ لقاء الله تعالى هو حقٌّ، وقد دلت النصوص القرآنية والنبوية على أنَّ هناك عدَّة لقاءات يَلقَىٰ بها العبدُ ربَّه، وأولها: لقاء العبدِ ربه عقب الموت، ثم هناك لقاء في الحشر، ثم لقاء عند الحساب، وعند الميزان، وعند عقبات الصراط، وهكذا لقاءات تتلو لقاءات، إلى أن يدخل الجنة؛ فهناك اللقاء والرؤية الدائمة.

أما لقاء الله تعالى عقب الموت:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

أي: يوقنون أنهم ملاقو ربهم عقب موتهم، وأَنّهم إليه راجعون يوم القيامة بعد حشرهم من قبورهم.

وقد جاء ذلك في عدةٍ من الأحاديث النبوية:

ففي: (صحيح) مسلم، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقَّاها ملكان يُصعدانِها ـ قال حماد الراوي: فذكر من طِيب ريحها وذكر المسك، قال: ـ ويقول أهل السماء: رُوح طيبة، جاءت من قِبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جَسد كنتِ تعمرينه، فيُنطَلق به إلى ربه عزَّ وجلَّ ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل.

قال: وإنَّ الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حمَّاد: وذكر من نَتْنها وذكر لعناً ـ ويقول أهل السماء: روح خبيثة، جاءت من قِبَلِ الأرض فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل».

قال أبو هريرة رضي الله عنه: (فردَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رَيْطَةً كانت عليه على أنفه هكذا).

والرَيطة هي: ثوب رقيق، أو الملاءة، وفعل ذلك كما هو شأن من شمّ رائحة خبيثة كيف يضع على أنفه ما يمنع تلك الرائحة المستقذرة.

وقد جاء حديث أبي هريرة رضي الله عنه هذا في: (مسند) الإمام أحمد بلفظ: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ الميت تحضره الملائكة:

فإذا كان الرجل الصالح قالوا: أُخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، أُخرجي حميدةً، وأبشري برَوحٍ وريحان، وربٍّ غير غضبان».

قال: «فلا يزال يُقال لها حتى تخرج، ثم يُعرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فَيُقال من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحباً بالروح الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي ـ أي: السماء ـ حميدةً، وأبشري برَوْح ورَيحان، وربٍّ غير غضبان».

قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى يُنتهىٰ بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل» ـ أي: السماء التي يتجلى الله تعالى له فيها ـ.

وفي رواية في: (المسند) عن البراء رضي الله عنه: «حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة».

وفي رواية أنه سبحانه يتجلى للمؤمن باللقاء في ذلك الموطن.

«وإذا كان الرجل السوء قالوا: أُخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، أُخرجي ذميمةً، وأبشري بحميم وغَسَّاق، وآخر من شكله أزواج، فلا يَزال يُقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: مَنْ هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مَرحباً بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة فإنك لا تُفتح لك أبواب السماء، فيرسل من السماء، ويصير إلى القبر» الحديث.

قال الحافظ ابن كثير: ورواه النسائي وابن ماجه من طريق ابن أبي ذئب بنحوه. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾.

والمعنى: ازدجِر أيها العاقل عمَّا أَنت فيه من الفساد، والضلال، والغفلة، وتذكّرْ ذلك اليوم الذي يأتي عليك إذا بلغتِ الروح التراقي ـ جمع ترقوة، وهي أعالي الصدر، والعظام المكتنفة ثُغرة النحر عن يمينه وشماله ـ.

﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ **القائل ذلك: إما الناس**، وهم من حَضَر عنده من أقاربه وأصحابه، حين رأوه في تلك الحالة؛ فقال كلٌّ منهم: من يَرقيه مما هُوَ فيه رقيةً يشفى بها، ويَذهب عنه ما هو فيه من المرض.

وإما القائل ذلك هم الملائكة عليهم السلام لبعضهم: أيكم يرقىٰ بروحه، أي: يعرج بها إلى السماء؟ أَملائكة الرحمة أم ملائكة

العذاب؟ حتى يأمر الله تعالى أحدهما بذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا﴾ أي: الملائكة تنزع روح الكافر بشِدَّة ﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا﴾ أي: الملائكة تنزع روح المؤمن بسهولةٍ ورفقٍ.

فيكون ذلك من الرُقيِّ لا من الرقْيَةِ، ويؤيد هذا المعنى ما جاء في: (الصحيحين) عن أبي سعيد الخدْري رضي الله عنه، أَنَّ نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعةً وتسعين نفساً، فَسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على راهبٍ ـ أي: عابد ليس بعالم ـ فأتاه فقال له: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟

فقال: لا ـ فقتله، فكمَّل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجلٍ عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟

فقال: نعم، مَن يحول بينك وبين التوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا فإِنَّ بها أُناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنَّها أرض سوء.

فمشى حتى إذا انتصف الطريق، فأتاه ملك الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.

فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مُقبلاً بقلبه إلى الله تعالى.

وقالتْ ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط.

فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم ـ أي: حَكَماً ـ

فقال: ـ أي: عن أمرٍ من الله تعالى ـ: قيسُوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى ـ أقرب ـ فهو له.

فقاسوا، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضتْه ملائكة الرحمة».

وفي رواية: «إلى القرية الصالحة أقرب بشبرٍ، فجُعِل من أهلها».

وفي رواية: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرَّبي، وقال: قِيسُوا بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فقط».

وفي رواية الطبراني: «أقرب بأنملة».

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ والمعنى أن ذلك المحتَضَر أيقن أنه صار في فراقٍ للدنيا: مالِها وأهلها، والتَفَّت عليه شدّة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، وهول الدخول في عالمٍ غريب عنه، لا أنيس معه ولا جليس ولا صديق ولا رفيق، إلا أهل الإيمان والعمل الصالح، فإنهم لا يَشقَون ولا يشقى بهم جليسهم، يُحِلّ الله تعالى عليهم الأمان والرضوان فهم في عيش طيِّب.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: يُقال لذلك المحتَضَر: اليوم تُساق إلى الله تعالى، وإلى حُكم أحكم الحاكمين.

وهذه الآية كما قال بعضهم رضي الله عنهم: **بشارة للمؤمن** الذي حَسَّنَ ظنه بربه تعالى، وعلم أن المساق إلى الربِّ الذي سبقت رحمتُه غضبه، **وإنذار للكافر** الذي لم يؤمن؛ ولم يُوقن بالآخرة.

روى الإمام أحمد، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جنازة رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمَّا يُلْحد.

فجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجلسنا حولَه، كأنَّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرَّتين أو ثلاثاً.

ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء: بِيْض الوجوه، كأنَّ وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحَنوط من حَنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يَجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة أُخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوانٍ».

قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة مِنْ فِي ـ أي: فم ـ السِقاء ـ أي: بسهولة ورفق ـ، فيأخذها ـ أي: ملك الموت ـ فإذا أخذها لم يَدَعوها ـ أي: لم يتركوها ـ في يده طرفة عين، حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على سطح الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرّون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟

فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأحسن أسمائه التي كانوا يسمُّونه بها في الدنيا ـ حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فَيُفْتَح له، فيشيِّعه من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنتهىٰ به إلى السماء السابعة.

فيقول الله تعالى: اكتبوا كتاب عَبدي في عِلّيين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أُعيدهم، ومنها أُخرجهم تارةً أخرى».

قال: «فتُعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: مَن ربك؟

فيقول: ربي الله.

فيقولان له: ما دينك؟

فيقول: ديني الإسلام.

فيقولان: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فيقولان له: وما عِلمُك؟

فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدَّقتُ ـ فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه في الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة».

قال: «فيأتيه من رَوْحها وطيبها، ويُفسَح له من قبره مَدَّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيِّب الريح، فيقول: أبْشِر بالذي يَسرُّك، هذا يومك الذي كنت تُوعَد.

فيقول له: مَن أنت؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير.

فيقول: أنا عملك الصالح.

فيقول العبد الميت: ربِّ أقِم الساعة حتى أرجع إلى أهلي».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإن العبد الكافر إذا كان في

انقطاع من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، سُود الوجوه، معهم المُسُوح ـ أي: الجلود الغليظة ـ فجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اُخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب».

قال: «فتفرّق في جسده، فينزعها كما ينزع السَّفُّود ـ أي: حديدة ذات شوك ـ من الصوف المبلول، فيأخذها ملك الموت؛ فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في المُسُوح، فيخرج منها كأنتن ريح جيفةٍ وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرّون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟

فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأقبح أسمائه التي كان يُسمّى بها في الدنيا ـ حتى يُنتهى بها إلى السماء، فيستفتح له، فلا يفتح له».

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ الآية.

«فيقول الله تعالى: اكتبوا كتابه في سِجِّين، في الأرض السفلى، فتُطرح روحه طرحاً».

ثم قرأ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

«فتعاد روحه إلى جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، ويقولان له: مَنْ ربُّك؟.

فيقول: هاه، هاه، لا أدري.

فيقولان له: ما دينُك؟

فيقول: هاهْ، هاهْ، لا أدري.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

فيقول: هاهْ، هاهْ، لا أدري.

فينادي منادٍ من السماء أَنْ كَذبَ عبدي، فأفرشوه في النار، وافتحوا له باباً من النار ـ فيأتيه من حرِّها، وسمومها، ويُضيَّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، مُنتن الريح فيقول: أبشرْ بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد.

فيقول: ما أنت؟ فوجهك القبيح يجيء بالشرِّ.

فيقول: أنا عملك الخبيث.

فيقول: ربِّ لا تُقِم الساعة»[1] أي: خوفاً من دخول النار التي فُتح إليه باب منها.

ثم أخبر سبحانه عن الإنسان الكافر وسوءِ عاقبته فقال سبحانه: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ ـ أي: بالآخرة وعقابها ـ ﴿وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ الآيات.

* * *

(١) انظر: (ترغيب) المنذري ٤:٣٦٦ وقال: هذا الحديث حديث حسن. اهـ وأورده ابن كثير بروايات مختلفة.

الناس على مراتب في لقاء ربهم سبحانه وتعالى

هنالك نوع يلقون الله تعالى بتحية وتكريم، على محبة ورضوان، وهم المؤمنون الصالحون قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

ففي كل لقاءٍ يلقونه سبحانه يُكرمهم بالسلام، والفضل والإنعام، وأول اللقاءات ما كان بعد الموت.

جاء في: (الصحيحين) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أحبّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه».

قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت يا نبيَّ الله، أكراهية الموت فكلُّنا يكره الموت؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس كذلك، ولكنّ المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله ورضوانه وجنته؛ أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه.

وإن الكافر إذا بُشر بعذاب الله وسخطه؛ كره لقاء الله وكره الله لقاءه».

وفي روايةٍ لمسلم: قالت عائشة رضي الله عنها: (ولكن إذا شَخُصَ البصر، وحَشْرَج الصدر، واقشعرّ الجلد، وتَشنجت

الأصابع؛ فعند ذلك مَنْ أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه).

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: فهمت السيدة عائشة رضي الله عنها أَنَّ هذا خبر عمَّا يكون من الأمرين في حال الصحة فقالت: كلنا يكره الموت.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم لها: «ليس كذلك» وإنما هو خبر عما يكون من ذلك عند النزع، وفي وقتٍ لا يَقبل فيه التوبة، فإن الله تعالى يكشف له عن كل ما يَصير له، فأهل السعادة يرون ما يُحبُّون فيحبون لقاء الله تعالى؛ ليصلوا إلى ما رأوا، فيحبّ الله لقاءهم، وأهل الشقاء يرون ما يَسوؤهم فيكرهون لقاء الله تعالى؛ فيكره الله تعالى لقاءهم. اهـ.

ومن كُمَّل أهل التحية والإكرام والرضوان والإنعام: الشهداء الذي قُتلوا في سبيل الله تعالى.

ففي: (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار، الذين قُتلوا، قال أنس رضي الله عنه: ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رُفع: (بَلِّغوا عنّا قومنا أنَّا قد لقينا ربَّنا فرضيَ عنا وأرضانا).

وروى الترمذي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لقيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرة وأنا مُهتَمٌّ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مالي أراك منكسراً».

فقلت: استشهد أبي يوم أحد، وترك عيالاً ودَيْناً.

فقال: «ألا أبشرك بما لقِيَ الله به أباك»؟

قلت: بلى.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما كلَّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه أحيا أباك فكلمه كِفاحاً - أي: مواجهة بغير حجاب - فقال: يا عبدي تمنَّ عليّ أُعطك.

قال: يا ربِّ تُحييني فأقتل ثانيةً.

فقال سبحانه وتعالى: إنه سبق القول مني أَنّهم لا يَرجعون».

فنزلت: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الآية.

ورواه ابن مَرْدُويه والبيهقي كما في: (تفسير) ابن كثير.

وهناك نوع من الناس يَلقون الله تعالى وهو عليهم غضبان بسبب أوامر تركوها، أو محرَّماتٍ ارتكبوها.

روى البزار والطبراني في: (الكبير) بإسناد حسن، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قام بصري - أي: ذهب بصره - قيل له: نداويك وتدع الصلاة أيّاماً.

فقال: لا، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ ترك الصلاة لقي الله وهو عليه غضبان».

فتارك الصلاة يلقىٰ الله تعالى وهو عليه غضبان.

وروى الطبراني في: (الأوسط) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من تَحبَّب إلى الناس بما يُحبون، وبارز الله بما يكرهون - لقي الله وهو عليه غضبان».

فالمرائي والمنافق يلقى الله تعالى وهو غضبان عليه.

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ غَصب رجلاً أرضاً ظُلماً لقي الله وهو عليه غضبان».

قال المنذري: رواه الطبراني من رواية يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني. اهـ.

وكذلك من حلف بالله كاذباً ليقتطع به مال امرىء مسلم بغير حقه:

فقد روى الإمام مسلم، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه؛ لقي الله وهو عليه غضبان».

ثم قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصداقه في كتاب الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية.

وكذلك مَنْ تعظَّم في نفسه، أو اختال في مشيته:

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن عبد الرحمن بن غنم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مَنْ تعظَّم في نفسه، أو اختال في مشيته: لقي الله تعالى وهو عليه غضبان».

وكذلك مَنْ جَرَّد ظهر مسلم ليضربه بغير حق؛ لقي الله تعالى وهو عليه غضبان.

روى الطبراني في: (الكبير والأوسط) بإسناد جَيِّد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم: «من جَرَّدَ ظهر مسلم ـ أي: عَرَّاه من ثيابه ـ بغير حق: لقي الله تعالى وهو عليه غضبان» كذا في: (الترهيب).

وأما الكفار فإنهم يصيرون إلى غضب الله تعالى بعد الموت كما تقدم في الحديث.

ومن الذين يلقون ربهم بعد الموت وهو عليهم غضبان ـ أُناس نقضوا عهد الله، وتولَّوا وهم معرضون.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾.

فقد بيَّن الله تعالى في هذه الآية حال الذين يُعاهدون الله على التصدق والإنفاق، والبذل في طُرُق الخير، وعلى إصلاح العمل مع الله تعالى إذا تفضَّل عليهم، فأوسع عليهم وأكثر لديهم الأموال، وأخرجهم من الشدَّة إلى الرخاء، ومن الضيق إلى السعة، ثم إنهم بعد ذلك ينقضون عهد الله تعالى، ويخلفونه ما وعدوه، ولا يؤدّون ما التزموه، فبخلوا وأمسكوا، وقطعوا أرحامهم، ومنعوا، وكفروا نعمة الله تعالى فلم يشكروا.

فهنالك حلَّ عليهم غضب الله تعالى، فضرب على قلوبهم النفاق، فهو لا ينفك عنهم ولا ينفكون عنه إلى يوم يلقونه ـ أي: إلى يوم موتهم الذي فيه يَلقون ربهم؛ وهو سبحانه غضبان عليهم.

ومن المحتَّم أن يكون المراد بيوم يلقونه ـ هو يوم موتهم، لأنه لا يُتصوَّر استمرار النفاق بهم إلى ما وراء الموت؛ إلى يوم القيامة،

لأنَّ مَنْ مات عاين الحقيقة، ودخل في عالم اليقين، وانكشفت له الأمور الإيمانية التي كان يَرتاب فيها حين كان في الدنيا.

روى الطبراني، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرَّ بأعرابيٍّ وهو يدعو في صلاته يقول: (يا مَنْ لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا تغيِّره الحوادث، ولا يخشى الدوائر، ويعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد أوراق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، ولا تُواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضاً، ولا بحر ما في قعره، ولا جبل ما في وعره ـ اجعل اللهمَّ خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه) الحديث.

قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في: (الأوسط) ورجاله رجال الصحيح؛ غير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأذرمي وهو ثقة. اهـ.

* * *

السؤال في البرزخ

جاء في الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة ما يدلُّ قطعاً على أن سؤال القبر هو حق، وهو يتناول: المسلم والكافر والمنافق.

قال الحافظ في: (الفتح): واختلف في الطفل غير المميِّز:

فجزم القرطبي في: (التذكرة) بأنه يُسأل ـ وهو منقول عن الحنفية، وجزم غير واحدٍ من الشافعية بأنه لا يُسأل. اهـ.

فيُسأل الميت عن اعتقاده بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم على وجه الاختبار والامتحان، والفحص والتمحيص، وهناك يُدهش المسؤول، أو يُذهل أو يَحار لهول الموقف، إلا أهل الإيمان الراسخ، فإنه سبحانه يُثبِّتهم ويلهمهم الجواب السديد.

قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.

فهو سبحانُه يُـثَـبِّتُ الذين آمنوا إيماناً صادقاً لا نفاقاً: بالقول الثابت وهو: لا إلَه إلا الله محمد رسول الله، فإنّ هذا هو القول الثابت، كما يدلّ عليه الحديث الآتي، وليس هناك أثبت من لا إلَه إلا الله محمد رسول الله، بل قول لا إلَه إلا الله محمد رسول الله هو أثبت الثابتات، وأقوى اليقينيات، وأقوم القطعيّات، ذلك لأن قول

لا إله إلا الله محمد رسول الله ثبت بجميع الأدلة التي ثبتت بها الثابتات، وبجميع البراهين القاطعة التي ثبتت بها اليقينيات.

فإن من المعلوم المقرَّر عند أهل العلم والفكر أن الأدلة التي ثبتت بها الأمور مهما كثرت فإنها ترجع إلى أصلين عظيمين: البرهان والعيان.

ولا ريب أن الله تعالى قد أشهد العباد مشاهد لا إله إلا الله محمد رسول الله: في آيات الأكوان المرئية المشهودة بالعيان، وفي آيات القرآن التي جاءت بالحجة والبرهان العقلي. . . .

فهذه آيات الأكوان مَنْ نظر فيها واعتبر في إتقان صنعها، وإحكام خَلقها، وإبداع وُجودها: رأى آثار قدرة ربِّ العالمين وحكمته، وسعة علمه سبحانه وعظيم قوته قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية.

وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ . . . .

وهذه الآيات الكونيَّة المشهودة المرئية التي أجراها الله تعالى على يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والتي تُسمى بالمعجزات وخوارق العادات: كلُّها مشاهد تُشهِد العاقل: أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهذه مشاهد العيان. . . .

وأما شواهد البرهان وأدلته فهذه الآيات القرآنية، تُبرهن على أن الله تعالى حقٌّ، وأنه واجب الوجود، وأن هذا القرآن كلامه قطعاً، وتبرهن على صدق هذا النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه رسول الله حقاً لا يحتمل غير ذلك، فإن القرآن العظيم هو أعظم

المعجزات والآيات الدالَّة على صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، من وجوه كثيرة متعددة ـ ولنا في كتاب الشهادة بحث واسع مفصل، في بيان هذه المشاهد، التي تُشهد العاقل أنه: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ الآية.

أما تثبيتهم في الحياة الدنيا فهو مما يعتريهم من الوساوس والشبُهات الشيطانية، من قِبل الإنس والجن، وحفظهم من الزيغ والميل إلى الضلال.

وأما تثبيتهم في الآخرة فذاك حين يُسألون في قبورهم، كما جاء في: (الصحيحين) عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «المسلم إذا سُئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» صلى الله عليه وآله وسلم.

فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾.

فالمراد بتثبيته في الآخرة: تثبيته عند سؤال القبر فما بعده، لأن القبر هو أول برازخ الآخرة، وقد جاء تفصيل هذا السؤال في بقية الأحاديث النبوية.

روى الشيخان وغيرهما ـ واللفظ للبخاري، عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن العبد إذا وُضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا ـ أتاه ملكان فيُقعدانه فيقولان له: ما كنتَ تقول في هذا

الرجل محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعداً من الجنة».

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «فيراهما جميعاً».

أي: يرى مقعده من الجنة ليفرح ويستبشر، ويرى مقعده من النار ليشكر نعمة الله عليه حيث نجّاه منها.

وفي رواية لمسلم: قال قتادة: وذُكر لنا أنه يُفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويُملأ عليه خضراً إلى يوم يُبعثون.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأما الكافر والمنافق» وفي رواية: «وأما الكافر والمرتاب فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس فيه.

فيقال: لا دَرَيتَ ولا تليتَ ـ ثمَّ يُضرب بمطرقة من حديدٍ بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين» يعني: الإنس والجنَّ.

وروى الترمذي بتحسينٍ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا قُبِرَ الميت، أتاه ملكان أسودان زُرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير فيقولان له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟

فيقول: ما كان ـ في الدنيا ـ يقول هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إلّه إلا الله وأَنّ محمداً عبده ورسوله.

فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يُفسَح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً، ثم يُنوَّر له فيه ثم يقال له: نمْ.

فيقول: أرجِعُ إلى أهلي فأخبرهم.

فيقولان: نمْ كنومة العَروس الذي لا يُوقظه إلا أحبُّ أهله إليه ـ حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك.

وإن كان منافقاً قال: سمعتُ الناس يقولون قولاً فقلت مثله لا أدري» أي: كان في الدنيا يقول ذلك بلسانه، ولكن لا يعتقد بذلك اعتقاداً جازماً من قلبه، ولذلك يقول لا أدري.

«فيقول ـ أي: الملكان ـ قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذَّباً، حتى يَبعثه الله من مضجعه ذلك».

وروى الشيخان وغيرهما، عن أسماء رضي الله عنها، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما من شيء لم أكن أُريته إلا رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، فَأُوحي إليّ أنكم تُفتَنون في قبوركم مثلَ أو قريباً ـ شك الراوي عن أسماء رضي الله عنها ـ من فتنة المسيح الدجال يقال: ما علمك بهذا الرجل؟

فأما المؤمن أو الموقن ـ لا أدري أيَّهما قالت أسماء رضي الله عنها ـ فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهُدى، فأجبناه واتبعناه، هو محمَّد ـ ثلاثاً.

فيُقال: نَمْ صالحاً، قد علمنا إن كنتَ لموقناً به.

وأما المنافق أو المرتاب ـ لا أدري أيهما قالت أسماء رضي الله

عنها ـ فيقول: لا أدري سمعتُ الناسَ يقولون شيئاً فقلتُه».

وفي هذا دليل على أن مِحنة السؤال في القبر عظيمة جداً، ولذلك قال فيها صلى الله عليه وآله وسلم: «مِثْل فِتنة الدجال» ولا ينجو ويأمن منها إلا المؤمن الصادق بعناية الله تعالى ـ اللهم اجعلنا منهم.

وروى أبو داود في: (سننه) عن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفِروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل».

تلقيـن الميت

لقد نصَّ أئمة الفقهاء والمحدثين: على استحباب تلقين الميت بعد ما يُدفن، وذلك بأن يجلس إنسان عند رأسه ويقول: يا فلان ابن فلان، ويا عبد الله ابن عبد الله وأمته، اذكر العهد الذي خرجت عليه من الدنيا شهادة: أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حقٌّ، وأن النار حقٌّ، وأن البعث حقٌّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور، وأنك رضيتَ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ورسولاً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قِبلة، وبالمؤمنين إخواناً. اهـ.

ذكر ذلك الإمام النووي في: (شرح المهذب) قال: وسُئل الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله عنه ـ أي: عن تلقين الميت ـ فقال: التلقين هو الذي نختاره ونعمل به.

قال ـ ابن الصلاح ـ: ورَوَينا فيه حديثاً من حديث أَبي أُمامة رضي الله عنه ليس إسناده بالقائم، لكن اعتضد بشواهد، وبعمل أهل الشام قديماً ـ هذا كلام أبي عمرو. اهـ.

قال النووي رحمه الله بعد نقله كلام أبي عمرو، قلتُ: حديث أبي أُمامة رضي الله عنه رواه أبو القاسم الطبراني في: (معجمه) بإسناد ضعيف، ولفظه عن سعيد بن عبد الله الأزدي قال: شهدت أبا أُمامة رضي الله عنه وهو في النزع فقال: إذا متُّ فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إذا مات أحدٌ من إخوانكم، فسوَّيتُم التراب على قبره، فلْيقم أحدكم على رأس قبره ولْيقل: يا فلان ابن فلانة فإنه يسمعه ولا يجيب، ثم يقول: يافلان ابن فلانة فإنه يستوي قاعداً، ثم يقول: يا فلان ابن فلانة، فإنه ـ الميت ـ يقول: أرشِدْنا رحمك الله، ولكن لا تشعرون ـ أي: بكلامه ولا بقعوده ـ

فلْيقل: اذكرْ ما خرجتَ عليه من الدنيا: شهادة أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأنك رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً، وبالقرآن إماماً ـ فإنَّ منكراً ونكيراً يأخذ كلُّ واحد منهما بيد صاحبه ويقول: انطلقْ بنا، ما نقعد عند من لُقِّن حجَّته».

قالوا: يا رسول الله فإن لم نعرف أُمَّـه؟

قال: «فينسبه إلى أمه حوَّاء، يا فلان ابن حواء».

قال الإمام النووي بعد ما أورد هذا الحديث: قلتُ فهذا الحديث وإن كان ضعيفاً فَيُستأنس به، قال: وقد اتفق علماء

الحديث وغيرهم على المسامحة في أحاديث الفضائل، والترغيب والترهيب، وقد اعتضد بشواهد من الأحاديث:

كحديث: «اسألوا له التثبيت»، ووصية عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ وهما صحيحان.

ولم يزل أهل الشام على العمل بهذا في زمن مَن يُقتدى به وإلى الآن، وهذا التلقين إنما هو في حَقِّ المكلَّف الميت، أما الصبي فلا يُلقَّن والله أعلم. اهـ كلام النووي[1].

وقد استدل كثير من العلماء أيضاً على مشروعية التلقين بعد الدفن بما رواه مسلم وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لقِّنوا موتاكم لا إلَه إلا الله».

وزاد الطبراني في روايته وقولوا: «الثباتَ الثبات، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

فقالوا: الميت حقيقةً هو من مات بالفعل، وأما اطلاق الميت على المحتَضَر فهو من باب المجاز، وإن كان حمل الكلام على الحقيقة هو الأصل، ولا سيما وأن بعض الروايات تُرجِّحُ المعنى المجازي، وبعضها يُرجِّحُ المعنى الحقيقي؛ فالأحوط العمل بهما معاً ـ كما أوضح ذلك العلامة الكمال ابن الهمام رحمه الله تعالى في: (فتح القدير).

---

(١) انظر: (المجموع) ٥: ٣٠٤، وانظر كتاب: (الروح).

نعيم القبر وعذابه

جاء في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ما يدل قطعاً على أَنَّ نعيم القبر حقٌّ، وعذاب القبر حَقٌّ يجب الاعتقاد بهما.

أما الآيات فنذكر جملة منها:

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

ففي هذه الآيات الكريمة بيان أصناف الناس بعد الموت، وأنهم ما بين مُنعَّم ومُعذَّب.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ تحت قدرة الله تعالى وحكمه ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي: الروح إلى جسدها بعد ما فارقته، وأنتم تنظرون إلى جسد الميت ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ من أنكم تُعجِزُون الله، وأنكم لستم في حِيْطَة قدرته وإرادته النافذة فيكم.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ أي: الميت ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم الذين تقرَّبوا إلى الله تعالى بالنوافل فوق الواجبات، وليس عندهم مباحات، بل جميع أعمالهم طاعات، فقرَّبهم إليه سبحانه قُرباً خاصاً كما جاء في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه» ـ الحديث ـ كما في: (صحيح) البخاري.

ويُسمَّون بالسابقين قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وهم الذين سبقوا بالخيرات بإذن ربهم ـ أي: بالنوافل العملية، والقولية، والقلبية، والسمعية، والبصرية، ولنا بحث واسع حول مراتب القُرب ـ كما جاء في الكتاب والسنة ـ في كتاب التقرب إلى الله تعالى ـ فارجع إليه.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: فله رَوح أي: راحة وسرور ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ أي: رزق حسن ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ينعم فيها بأنواع الملاذّ والنعيم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وهم الذين قاموا بالواجبات، وانتهوا عن المحرمات، وليس عندهم كثرة نوافل، وعندهم أفعال مباحة فعلوها باعتبار أنها مباحة ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: تقول له الملائكة عند الموت: سلام لك، أي: لا تَخَف أنت إلى سلامة ـ أنت من أصحاب اليمين.

أو المعنى فسلام لك أي: مُسلَّم لك أَنت من أصحاب اليمين، فيبشرونه بسلام، وبأنه من أصحاب اليمين ـ وعلى كلٍّ فهو خطاب للجنس أي: جنس أصحاب اليمين.

أو معنى قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: ثبت لك السلام وحصل ـ أي: فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين، كما تقول هنيئاً يا مَنْ هو منهم، ولهذا أتى بحرف ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ والجار والمجرور في موضع حال، أي: سلام لك كائناً، أي: حال كونك من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئاً لك من أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي: كائناً منهم.

وإنما جيء ﴿لك﴾ هنا فقال: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ ولم يُؤت بعلى؛ كما هو في سلام التحية، وذلك لأن المدعوَّ به من الخير والشر قد يضاف إلى صاحبه بلام الإضافة ـ أي: ينسب لصاحبه باللام، لتدلّ على حصوله له لا محالةَ، ومن ذلك قوله تعالى في الكفار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ ولم يقل عليهم اللعنة، إيذاناً بحصول اللعنة وثبوتها لهم، ومن ذلك قوله تعالى في الكفار: ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، ويقال للمؤمنين: لكم الرحمة ولكم البشرى ولكم التحية ولكم السلام ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ أي: ثبت السلام وحصل لك أيُّها المؤمن، وأنت من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنۡ حَمِيمٍ﴾ أي: فضيافته المعجَّلة له هي من الحميم المُذاب، الذي يُصهَر به ما في بطونهم والجلود ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: تغطية وغمرة له في جحيم من العذاب ـ أعاذنا الله العظيم من ذلك، وفي هذا دليل على نعيم القبر وعذابه، وأن ذلك يَحصل عقب الموت فوراً كما دلَّت عليه الفاء.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾.

ذهب كثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم: إلى أن هذا الخطاب للنفس يقال لها عند الموت، وعند النشر.

روى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم عن سعيد بن جُبير قال: قرئت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن هذا لَحَسن.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أمَا إن الملك سيقولها لك عند الموت».

وروى الطبراني وغيره، عن سعيد بن جبير أنه لما مات ابن عباس رضي الله عنهما تُلِيتْ هذه الآية على شفير القبر، ولا يُدرى من تلاها، وقد سمعها الحاضرون كلُّهم ـ نعم تلاها الملك بأمر من الله تعالى، تكرمةً لابن عباس رضي الله عنهما.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا تمتثلون أوامرها، ولا تجتنبون مناهيها: استكباراً منكم، وإعراضاً عنها.

فقول الملائكة لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يوم موت الظالمين ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ وهذا صريح في تعذيبهم في قبورهم عقب موتهم.

وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

فالعذاب العظيم هو عذاب جهنم في الآخرة، وهو مسبوق بعذابٍ مرتين: مرة في الدنيا، ومرة ثانية في القبر.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقد استدل حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وغيره من الصحابة والتابعين بهذه الآية الكريمة على إثبات عذاب القبر،

وذلك أن الله تعالى أخبر عن المنافقين والكفار أن لهم عذابين: أدنى وأكبر، وأنه سبحانه يُذيقهم الآن في الدنيا بعض العذاب الأدنى، وذلك بتسليط أنواع البلاء عليهم، لعلهم يرجعون إلى الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح، وأنه سبحانه يُذيقهم البعض الآخر من هذا العذاب الأدنى بعد الموت وهم في البرزخ.

أمَّا يوم القيامة فلهم العذاب الأكبر، الذي قال فيه سبحانه: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾.

وهذه الآية أصل كبير في الاستدلال على عذاب البرزخ في القبور، وذلك أَنّ قوم فرعون بعد ما أحاط بهم سوء العذاب؛ وهو الغرق في اليمِّ، انتقلوا بعد موتهم إلى عذاب البرزخ، فهم يُعرَضون على النار صباحاً ومساءً، يَمسُّهم عذابها، ويلفحهم لَهَبُها وشظاها، إلى أن تقوم الساعة، فحينئذ يقول الله تعالى: ﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ وهو الصلي في جهنم، وإذاقتهم ألوان العذاب الأليم.

وأما الأحاديث الدالة على حقيَّة نعيم القبر وعذابه:

فمنها ما رواه الشيخان وغيرهما، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدكَ حتىٰ يبعثك الله عزَّ وجلّ إليه يوم القيامة».

عذاب الكفار في قبورهم:

روى مسلم في: (صحيحه) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حائطٍ لبني النجار على بغلة له؛ ونحن معه إذ جادت[1] به ـ أي: مالت ونفرت ـ فكادت تُلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ يعرف أصحاب هذه الأقبر»؟

فقال رجل: أنا ـ أي: أعرفهم ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «متى ماتوا»؟ ـ أي: في الجاهلية أو بعدها، فهم مشركون أو مؤمنون ـ.

قال: في الشرك ـ أي: في صفة الشرك[2] ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن هذه الأمَّة تُبتلى في قبورها، فلولا أَن لا تدافنوا[3] لدعوتُ الله أن

---

(١) يُروى بالحاء المهملة وهو الصحيح، وقيل: بالجيم من الجودة بالضم. اهـ (مرقاة).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: أي: ماتوا مشركين بعد بعثتك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها» أي: بالعذاب فيها. اهـ.

(٣) يعني: أنه لو كُشف لكم عن عذاب المقبورين، وسمعتم ذلك: لفزعتم وخفتم، حتى إنكم تتركون دفن بعضكم من شدَّة خوفكم، فلولا مخافة عدم التدافن إذا كُشف لكم؛ لدعوت الله أن يكشف لكم فَيُسمعكم عذاب المقبورين.

يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه».

ثم أقبل علينا بوجهه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «تعوَّذوا بالله من عذاب النار».

قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار.

قال: «تعوّذوا بالله من عذاب القبر».

فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر.

قال: «تعوَّذوا بالله من الفتن: ما ظهر منها وما بطن».

قالوا: نعوذ بالله من الفتن: ما ظهر منها وما بطن.

قال: «تعوَّذوا بالله من فتنة الدجال».

قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجّال).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لَيُسلَّط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تِنِّيناً[١] تنهشه وتلدغه[٢] حتى تقوم الساعة، لو أن تنيناً منها نفخ في الأرض ما أنبتت خضراً».

---

(١) قال في: (المرقاة): التنِّين: حيَّة عظيمة كثيرة السُمِّ، ووجه تخصيص العدد لا يُعلم إلا بالوحي، ويحتمل أن يقال: إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً فالكافر أشرك بمن له هذه الأسماء، فسُلِّط عليه بعددها.
وقال حجة الإسلام: عدد التنين بعدد الأخلاق الذميمة التي فيه، فإنها تنقلب في الآخرة إلى الحَيَّات، لأن الدنيا عالم الصُّوَر والآخرة عالم المعنى. اهـ.

(٢) النهش: هو القطع بالسنِّ من غير إرسال السمِّ فيه، واللدغ: ضرب بالسنِّ بلا قطع مع إرسال السم فيه. اهـ: (مرقاة) نقلاً عن الأبهري.

قال في: (المشكاة): رواه الدارمي، وروى الترمذي نحوه. اهـ.

عذاب العُصاة في البرزخ:

جاء في كثير من الأحاديث النبوية ما يدل على أن العصاة الذين لم يتوبوا قبل موتهم يُعذَّبون في البرزخ بمعاصيهم على اختلاف أنواعها.

فمن ذلك عذابُ النمَّام، والغيَّاب، والذي لم يستتر ولم يتحرَّز من بوله:

روى الشيخان واللفظ للبخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قبرين فقال: «إنهما لَيُعذَّبان وما يعذَّبان في كبيرٍ[1] أمَّا هذا فكان لا يستتر[2] من بوله، وأما هذا فكان يمشي بالنميمة».

ثم دعا رسول الله بعَسيبٍ رَطِبٍ فشقَّه باثنين، فغرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا».

---

(١) أي: وما يعذبان في ذنب كبير عند الناس، ولكنه عند الله تعالى كبير، نظير قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.
وقيل: المراد وما يُعذبان في أمر كبير فاحش الكبر كالقتل والزنا، وإن كان في حدّ ذاته هو أمراً كبيراً ومن الكبائر، وإذا كان المسلم يُعذب في قبره في هذا الأمر الكبير؛ فكيف عذابه بما هو أكبر كالقتل والزنا، وترك الصلاة، والزكاة، والحج ونحوه، فإن عذاب ذلك أشد وأعظم.

(٢) أي: لا يتوقى من بوله لما في روايةٍ لمسلم: «لا يستنزه من بوله» والروايات تفسر بعضها.

وجاء في رواية للبخاري في (الأدب المفرد): «أمَّا أحدهما فكان يغتاب الناس».

وروى الإمام أحمد والطبراني من حديث يعلى بن سِيابة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرّ على قبرٍ يُعذَّب صاحبه فقال: «إنَّ هذا كان يأكل لحوم الناس» ـ أي: بالغيبة ـ الحديث.

قال في: (الفتح): ورواته موثوقون. اهـ.

وجاء في رواية صححها ابن حبَّان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «وكان الآخرُ يؤذي الناس بلسانه، ويمشي بينهم بالنميمة».

وروى أبو داود، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لما عُرِج بي مررتُ بقومٍ لهم أظفار من نُحاس: يخمشون بها وجوههم وصدورهم.

قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟

قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

قال في: (الفتح): وفي حديث أبي أُمامة رضي الله عنه عند أحمد، أنه صلى الله عليه وآله وسلم مرَّ بالبقيع فقال: «مَنْ دفنتم اليوم ههنا»؟ الحديث.

قال فهذا يدل على أنهما ـ أي: المقبورين ـ كانا مسلمين، لأن البقيع مقبرة المسلمين، ثم قال: ويقوِّي كونهما كانا مسلمين رواية أبي بكرة رضي الله عنه عند أحمد، والطبراني بإسناد صحيح «يُعذَّبان، وما يُعذَّبان في كبير ـ بلى: ما يُعذَّبان إلا في الغيبة

والبول» فهذا الحصر ينفي كونهما كانا كافرين، لأن الكافر وإن عُذِّب على ترك أحكام الإسلام فإنه يُعذب مع ذلك على الكفر بلا خلاف. اهـ.

وجاء فيما صححه ابن خزيمة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أكثر عذاب القبر في البول» أي: بسبب ترك التحرز من البول.

وفي ذلك تنبيه للمسلم وتحذير له من النجاسة بأنواعها: نجاسة البول الحسيَّة، ونجاسة الأخلاق المعنوية، فيجب عليه أن يبتعد عنهما.

فيحفظ لسانه من إيذاء المسلمين: بالسبِّ، والشتم، والغيبة، والنميمة ونحو ذلك من هفوات اللسان.

ويحفظ جسمه وثيابه من إيذاء نجاسة البول، فإنّ ذلك من أكثر أسباب عذاب القبر، وإذا كان الرجل يُعذَّب لتركه الطهارة من البول التي هي شرط من شروط صحة الصلاة؛ فما ظنك بعذاب تارك الصلاة؛ فإنّ عذابه في قبره أشدُّ وأمدّ، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ ترك الصلاة لقي الله وهو عليه غضبان» الحديث كما تقدم.

ومن أسباب عذاب القبر: صلاة تُصلَّى بغير طهور، وعدم الانتصار للمظلوم:

روى الإمام الطحاوي بإسناده، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أُمِر بعبد من عباد الله أن يُضرب في قبره مائة جلدة، فلم يَزل يسأل الله ويدعوه حتى

صارت واحدة، فضُرب فامتلأ قبره عليه ناراً، فلما ارتفع عنه أفاق فقال: عَلامَ جلدتموني؟

قالوا: إنك صليت صلاة بغير طهور، ومررت على مظلوم فلم تنصره».

وفي: (سنن) الدارقطني، عن علي رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مُرتهن بدينه، ومن فكَّ رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة».

ومن أسباب عذاب القبر: الكذبة يُحدِّث بها الكاذب فتبلغ الآفاق، وترك العمل بالقرآن الكريم، والزنا، وأكل مال الربا ونحو ذلك؛ لما جاء في: (صحيح) البخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذاني بيدي، وأخرجاني إلى الأرض المقدسة:

فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلُّوب من حديد؛ يُدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا؛ فيعود فيصنع مثله.

قلت: ما هذا؟ فقالا لي: انطلق.

فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فِهر، فيشدَخ بها رأسه، فإذا هو ضربه تَدَهْـدَهَ ـ أي: تفتَّت الحجر ـ فانطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه.

قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا إلى نقب مثل التنور، أعلاه ضيق وأسفلهُ يوقد تحته نار، فإذا فيه رجال ونساء عراة، فيأتيهم اللهب من تحتهم، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجون، فإذا خمدت ـ أي: النار ـ رجعوا.

فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، وعلى وسط النهر رجل بيده حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يَخرج رمىٰ الرجلَ بحجر في فيه فردّه حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر ـ فرجع كما كان.

فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق ـ فانطلقنا».

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قلت: طوفتماني الليلة، فأخبراني عما رأيت؟

فقالا: نعم ـ الذي رأيته يُشق شدقه: كذاب يُحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به ـ أي: يشق شدقه ـ إلى يوم القيامة.

قالا: والذي رأيته يُشدَخ رأسه: فرجل علّمه الله القرآن فنام عنه بالليل، ولم يعمل به بالنهار، يُفعل به ـ أي: الشدخ لرأسه ـ إلى يوم القيامة.

وأما الذي رأيته في النقب فهم الزناة، والذي رأيته في النهر ـ أي: نهر الدم ـ فآكل الربا» الحديث.

ومن أسباب عذاب القبر: الغُلول وهو: الأخذ من المغنم قبل القسمة.

روى الإمام أحمد، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كَلاَّ ـ إنِّي رأيته في النار في بردة غلَّها ـ أو عباءة ـ».

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون» الحديث.

وروى الإمام أحمد، عن أبي رافع رضي الله عنه قال في حديثه: مرَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبقيع فقال: «أُفٍّ لك أُفٍّ لَكَ».

قال أبو رافع: فظننت أنه صلى الله عليه وآله وسلم يريدني ـ أي: بالتأفف.

فقال: «ما لَك»؟

قال أبو رافع قلت: أَحْدَثْتُ حَدَثاً يا رسول الله؟

قال: «وما ذاك»؟

قال: إنك قلت لي ذلك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا ـ أي: أنت لم تُحدِثْ حَدَثاً ـ ولكن هذا قبر فلان بعثتُه ساعياً على آل فلان ـ أي: يجمع الصدقات ـ فغلَّ نمرةً ـ أي: فأخذ نمرة منها، أي: بردة من صوف ـ فدُرِع الآن مثلَها من نار» أي: أُلبس مثلها ناراً في قبره.

وروى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة؛ إنما غنمنا البقر والغنم والماعز، والمتاع، والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى وادي القرى، ومعه عبد أهداه له أحد بني الضِّبَاب، بينما هو يَحطُّ رَحْل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد.

فقال الناس: هنيئاً له الشهادة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده إن الشَّملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم؛ لم تُصبها المقاسم: لتشتعل عليه ناراً» الحديث.

وفي رواية ابن أبي شيبة: «إنَّ شَمْلَته لَتُحْرق عليه الآن في النار، غلَّها من المسلمين» ـ أي: أخذها قبل القسمة.

والشَّمْلة هي: كساء يتغطى به ويتلفَّف فيه.

قال علماء السلف رضي الله عنهم: إذا كان صاحب الشملة التي غلَّها من المغنم، أخبرنا عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنها تشتعل عليه ناراً في قبره، مع أنه أخذها وله فيها حَقٌّ، ولكنه أخذها قبل القسمة؛ فكيف بمن ظلم غيره وأخذ ماله بغير حق أصلاً.

قالوا: فعذاب القبر يأتي على النمَّام، والمغتاب، والكذاب، وشاهد الزور، وقاذف المُحصن، والمؤذي بلسانه، وآكل الربا، وآكل أموال الناس بالباطل، وآكل مال اليتامى، وشارب الخمر، والزاني، والذي يعمل عمل قوم لوط، والسارق، والمخادع،

والماكر، ومؤذي المسلمين، والمتتبع لعوْراتهم وزلاَّتهم، وقاتل النفس، والملحد في حرم الله تعالى، والجبارين، والمتكبرين، والمرائين، والطاعنين في شريعة الله، والذين لا يَتحاشَوْن النجاسات، والقاطع لرحمه، والذي لا يرحم المساكين والأرامل واليتامى، والذي لا يَرحم البهائم والحيوانات، والذي يَشتغل بعيوب الناس عن عيب نفسه، وبذنوبهم عن ذنوبه ـ فجميع هؤلاء يُعذَّبون في قبورهم بجرائمهم، على حسب كثرتها وقلتها، وكبرها وصغرها. اهـ ـ نعوذ بالله العظيم من ذلك كلِّه.

وبهذا الحديث وأمثاله استدل الجمهور على أَنَّ عذاب القبر ونعيمه يَرِدان على الروح والجسد، وأن للجسم ارتباطاً بالروح بعد الموت؛ مهما تفرقت أجزاء الجسم وتباعدت، أو بليت وصارت تراباً، فإنها لم تخرج عن كونها تراباً لذلك الجسم الذي سوف يُعاد فيه تارة أخرى، وهي أجزاء معلومة عند الله تعالى، محفوظة عنده لا تلتبس عليه بغيرها سبحانه، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾.

ومما يدل على عذاب القبر ونعيمه وأنهما للروح والجسم، ولكن في عالم مغيَّب عن أهل الدنيا؛ إلا لمن كشف الله تعالى له عن ذلك:

ما رواه الترمذي، والطبراني، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حُفر النار».

فالقبر بالنسبة للمؤمن روضة من رياض الجنة، يرتاض فيها

على حسب إيمانه وعمله، والقبر حفرة من حفر النار بالنسبة للكفار والمصرِّين على معاصيهم.

ومن المعلوم أن نعيم الجنة، وعذاب النار هما يأتيان على الروح والجسم معاً بلا خلاف، فما كان من الجنة والنار فله حكمهما من حيث الجملة.

وقد اطَّلع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عذاب المقبورَيْن، وأمر أَنْ يوضع على قبرهما غُصن نخل، وقال: «لعلَّه أن يخفِّف عنهما من عذابهما ما لم ييبسا» الحديث كما تقدم.

تعوُّذه صلى الله عليه وآله وسلم من عذاب القبر وأمره بذلك

كان صلى الله عليه وآله وسلم يتعوَّذ من عذاب القبر في آخر صلاته، وفي ذلك تعليم لأمته أن يتعوذوا بالله من عذاب القبر في أقرب أحوالهم إلى ربهم؛ وهذا حال الصلاة، وما ذاك إلا لفظاعة عذاب القبر وشدَّة هَوْلِهِ:

روى الشيخان، عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعو في الصلاة يقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجَّال، وأعوذ بك من فتنة المحيا، وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم».

وروى الترمذي، عن أبي بكرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله

عليه وآله وسلم كان يقول في دُبر الصلاة: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر، والفقر، وعذاب القبر».

كما أنـه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتعوذ من عذاب القبر في كل صباح ومساء:

فقد جاء في: (صحيح) مسلم وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في دعائه كل صباح ومساء: «ربِّ أعوذ بك من عذابٍ في النار، وعذابٍ في القبر» الحديث.

وقد تقدم حديث مسلم أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه: «تعوَّذوا بالله من عذاب القبر».

الأسبـاب المنجيـة من عـذاب القبر

أولاً: البعد عن أسباب عذاب القبر التي تقدم بيان بعضها، والتطهّر من الذنوب والمعاصي بالتوبة النصوح، وشروطها: الندم على فعل الذنب، والإقلاع عنه، والعزم على أن لا يعود إلى فعله.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ثانياً: من جملة أسباب النجاة من عذاب القبر: الموت في سبيل الله تعالى، والمرابطة في سبيل الله تعالى:

روى الإمام مسلم، عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «رباط يومٍ وليلةٍ خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات أُجري عليه عمله الذي كان يعمله،

وأجريَ عليه رزقه، وأمِنَ الفتَّان» أي: من فتنة القبر ومحنته، وعذابه وشدته.

وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «للشهيد ستُّ خصالٍ: **يُغفر له** من أول دفعة من دمه، **ويَرى** مقعده من الجنة، **ويُجار** من عذاب القبر، **ويأمن** من الفزع الأكبر، **ويوضع على رأسه تاج الوقار: الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوَّج** اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، **ويَشفع** في سبعين من أقاربه».

رواه ابن ماجه، والترمذي، وهذا لفظه، وقال: حديث حسن صحيح. اهـ.

ثالثاً: المواظبة على تلاوة سورة تبارك الملك كل ليلة:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خِباءه على قبر ـ وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى الرجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ضربتُ ـ أي: نصبت ووضعتُ ـ خِبائي على قبر؛ وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «هي ـ أي: سورة تبارك ـ المانعة، هي المنجية: تنجيه من عذاب القبر» رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

وروى النسائي، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (من قرأ تبارك الذي بيده الملك كلَّ ليلة مَنَعه الله عز وجل بها من عذاب

القبر، قال: وكنا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نُسمِّيْها المانعة، وإنها في كتاب الله عز وجل سورة، من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب). اهـ. من: (ترغيب) المنذري.

رابعاً: الإكثار من قول لا إلّه إلا الله:

فقد روى الطبراني، والبيهقي، عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة في قبورهم ولا منشرهم، وكأني أنظر إلى أهل لا إلّه إلا الله وهم يَنفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَنَ».

وفي رواية: «ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة عند الموت، ولا عند القبر».

وقد روى الحافظ الفقيه المالكي، الزاهد الورع، الشيخ عبد الحق الإشبيلي، عن الإمام جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر، عن أبيه زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنهم وعنا بهم، يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من قال كل يوم وكل ليلة مائة مرة: لا إلّه إلا الله الملك الحق المبين: كان له أماناً من الفقر، وأُنساً من وحشة القبر، واستفتح به الغنى، واستقرع به باب الجنة».

وأخرجه أبو نعيم، والديلمي، والخطيب في رواية مالك كما في: (المواهب) وشرحها.

وقال بعض رواته: لو رحلتم في تحصيل هذا الحديث إلى

الصين ما كان كثيراً ـ أي: لفضل رواته، وشرف سنده.

خامساً: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر» رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وليس إسناده بمتصل.

وروى الحافظ أبو نُعيم عن جابر مرفوعاً: «من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أُجير من عذاب القبر، وجاء يوم القيامة وعليه طابع الشهداء» في إسناده ضعيف.

نعيم القبر على مراتب متعددة

يُنَعَّم أهل الإيمان في قبورهم على حسب اختلاف مراتبهم في إيمانهم قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ ـ أي: المحتضر ﴿ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾.

وقد تقدم الكلام على هذه الآيات، وأنَّ المقرَّب ينتقل فور وفاته إلى رَوْحٍ وريحانٍ، وجنة نعيم، كما يدل على ذلك الفاء المفيدة للتعقيب في قوله تعالى: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ الآية، وأَنَّ المؤمن من أصحاب اليمين تتوارد عليه عقب الموت التحيات والبشائر الإلٰهية.

روى الشيخان وغيرهما، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مات أحدكم عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ: إن كان من أهل الجنة فمن أهل

الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة».

فجميع المؤمنين في قبورهم تُعرض عليهم مقاعدهم في الجنة غدوة وعشياً، وبذلك العَرْض تهبُّ عليهم النفحات الرحمانية، وتَعبُقهم الرياحين الجنانية، فهم يَنعمون بذلك، وقد استراحوا من نَصَب الدنيا ومتاعبها، وكرباتها وأحزانها.

كما جاء في: (الصحيحين) وغيرهما، عن أبي قتادة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مُستريح ومستراح منه».

قالوا: يا رسول الله: ما المستريح، وما المستراح منه؟

قال: «العبد المؤمن: يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله تعالى، والعبد الفاجر تستريح منه العباد، والبلاد، والشجر والدَّوابّ».

وهناك من يُعطى فوق ذلك، وأعظم من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نسمة المؤمن: طائر تعلق في شجر الجنة، حتى يُرجعه الله إلى جسده يوم يَبْعثه».

قال الحافظ ابن كثير بعدما أورد هذا الحديث: ففيه دِلالة لعموم المؤمنين أيضاً. اهـ.

أي: ففيه دلالة على أَنّ عموم المؤمنين الكُمَّل لهم نعيم التجوُّل في ظلال أشجار الجنة.

قال الإمام الغزالي رضي الله تعالى عنه: واعلم أَنّ المؤمن ينكشف له عقب الموت من سعة جلال الله تعالى، ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فُتح له باب إلى بستان واسع الأكناف، لا يبلغ طرفه أقصاه، فيه أنواع الأشجار والأزهار، والثمار والطيور، فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له مثلاً فقال لرجل مات: «أصبح هذا مُرتحلاً عن الدنيا، وتركها لأهلها، فإن كان قد رضي ـ بأن: كان كامل الإيمان ـ فلا يسرُّه أن يرجع إلى الدنيا، كما لا يسرّ أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه»[1] فعَرَّفك بهذا أن نِسْبة سَعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظُلمة الرحم. اهـ.

وهناك الذين أُعطوا أفضل من ذلك، وفوق ذلك، وهم الشهداء في سبيل الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله هم أحياء عند ربهم ـ أي: مستمرون على الحياة، يُتْرفون فيها، وأكَّد إثبات الحياة لهم على وجه الحقيقة الكاملة بقوله سبحانه: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ فالشهداء أحياء على

---

(١) قال الحافظ العراقي في هذا الحديث: رواه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلاً، ورجاله ثقات. اهـ.

الحقيقة بحياة أقوى من حياتهم الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾.

أي: ولكن لا تَحسُّون، ولا تدركون حياتهم وحالهم، لأنهم في برزخ محجوبون عنكم، لا يطَّلع عليهم إلا من أطلعه الله تعالى: كالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وبعض أولياء أُمته.

وروى أبو داود، والإمام أحمد، وغيرهما، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما أُصيب إخوانكم يوم أحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، تَرد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب مُعلقة في ظل العرش.

فلما وجدوا طيب مأكلهم، ومشربهم، ومقيلهم، قالوا: مَنْ يُبلغ إخواننا عنا ـ أي: من يبلغ إخواننا في الدنيا عنا ـ أنّنا أحياء في الجنة نرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يَنْكُلوا ـ أي: لا يخافوا ولا يَجْبُنُوا ـ عند الحرب.

فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم».

قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ إلى آخر الآيات.

وهذا الحديث له أصل في: (صحيح) مسلم.

وروى الإمام أحمد في: (مسنده) عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كنت أدخل بيتي الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأضع ثوبي ـ أي: بعض ثيابي ـ وأقول إنما هو زوجي وأبي

ـ أي: هذا قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو زوجي، وهذا قبر أبي بكر رضي الله عنه وهو أبي، فليس عليَّ من حرج أن أضع بعض ثيابي ـ.

قالت: فلما دفن عمر رضي الله عنه معهم، فوالله ما دخلته ـ أي: البيت ـ إلا وأنا مشدودة عليَّ ثيابي حياء من عمر) أي: لأنه أجنبي عنها، وهو شهيد حيٌّ، فكانت تحتجب منه.

قال العلماء: وهذا يدل على فقاهة السيدة عائشة رضي الله عنها، وورعها، ورعايتها لأحكام الحياة البرزخية.

وهناك مقام الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى عليهم أجمعين، فإنهم في المقام الأسنى، والملأ الأعلى، فإنهم أقوى حياة وأعظم نعيماً:

روى البيهقي، وأبو يعلى، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون».

قال العلامة المناوي: حديث صحيح. اهـ.

وسيأتي تمام هذا البحث قريباً إن شاء الله تعالى.

فالأنبياء لهم أكمل كمال الحياة، وأكمل كمال النعيم، وإمامهم وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، صاحب مقام الوسيلة والفضيلة، هو أعلاهم منزلةً، وأرفعهم درجة، وأفضلهم رتبة، وأكرمهم نعيماً صلى الله عليه وآله وسلم ـ كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

* * *

تكليم الله تعالى أولياءه
ونظرهم إليه سبحانه في عالم البرزخ

قد يُكرِّم الله تعالى أحبابه بتكليمه إياهم، وإباحتهم النظر إلى وجهه الكريم جل وعلا في عالم البرزخ، وهذا عامٌّ لجميع الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم، وأما بالنسبة لغيرهم فهو فضل خاص، يختص به من يشاء من كُمَّل أوليائه؛ الصدِّيقين والشهداء.

روى الترمذي، وابن مردويه، عن جابر رضي الله عنه قال: نظر إليَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم فقال: «يا جابر مالي أراك مهتماً»؟

فقلت: يا رسول الله استشهد أبي، وترك ديناً وعيالاً.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أخبرك، ما كلم الله أحداً قط إلا مِنْ وراء حجاب، وإنه كلَّم أباك كِفَاحاً» ـ قال علي بن المديني أحد رواة الحديث: الكفاح: المواجهة ـ قال ـ أي: قال الله تعالى لأبيك ـ: «سلني أُعطك.

قال: أسألك أن أُردَّ إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية.

فقال الرب عز وجل: إنه سبق القول مني أنهم إليها لا يُرجعون.

قال: أَيْ ربِّ فأبلغْ مَنْ ورائي».

فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ الآيات.

اطِّلاع أهل البرزخ
وسماعهم السلام والكلام عندهم

جاء في النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، ما يدلُّ على أن الأموات يسمعون سلام من يسلِّم عليهم، ويفهمون، ويشعرون بالكلام والخطابات الموجَّهة إليهم:

روى الإمام مسلم عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم ـ أي: الصحابة ـ إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية» أي: الوقاية من المكاره.

ورواه ابن ماجه بزيادة: «اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما تُوعدون[١]، غداً مؤجلون[٢]، وإنَّا إن

---

(١) أي: ما توعدون من الثواب والنعيم.

(٢) أي: مؤجلون لاستيفاء تمام ثوابكم وأجوركم عند الله تعالى.

شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» رواه مسلم.

فكان صلى الله عليه وآله وسلم يسلِّم على الأموات، ويأمر بالسلام عليهم، وذلك مما يدل على أنّهم يسمعون السلام، وتبلغهم التحية، ولولا ذلك لما أمرهم بالسلام على الأموات، فإذا كانوا لا يسمعون ولا يجيبون فهم حينئذ والحجر سواء، فلِمَ يأمرهم بالسلام على أموات البشر، ولَمْ يأمرهم بالسلام على الحجر؟!!

وفي كتاب: (الروح): روى الحافظ ابن عبد البر، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما مِنْ رجل يمر بقبر أخيه المؤمن؛ كان يعرفه فيسلِّم عليه إلا عرفه؛ ورد عليه السلام».

قال ويروى هذا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً قال: «فإن لم يعرفه وسلم عليه ردَّ عليه السلام». اهـ.

قال الحافظ ابن عبد البر: ويروى من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من رجل يَزُور قبر أخيه، فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم».

وفي: (صحيح) مسلم، أن عمرو بن العاص رضي الله عنه حين احْتُضِرَ قال: (إذا أنا مِتُّ فلا تصحبني نائحة، ولا نار، فإذا دفنتموني فشِنُّوا عليَّ التراب شنّاً ـ أي: صبّوه صبّاً ـ ثم أقيموا حول قبري قَدْر ما تنحر جزور ويُقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي) اهـ.

فدلَّ هذا على أن الميت يشعر بالحاضرين عنده، ويستأنس بهم.

وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان

يزور قبور الشهداء مِراراً كل حولٍ، فيقول لهم مبشراً ومؤانساً: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

وعن سليم بن عتر رحمه الله تعالى أنه مرَّ على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول.

فقيل له: لو نزلت فبلتَ.

فقال: سبحان الله، والله إني لأستحي من الأموات كما أستحي من الأحياء ـ يعني: أنهم يطَّلعون على ما هنالك، فيستحي منهم.

وفي هذا كله دليل على شعور الأموات بأفعال الأحياء، وسماعهم كلامهم وسلامهم.

كما أن الأموات تتأثر بالتعنيف والتوبيخ الذي يُوَجَّهُ إليهم من قِبَلِ الأحياء؛ إذا كانوا مقصرين أو مسيئين.

فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قَتلى المشركين يوم بدر، وجعل يُوبخهم ويُحسرهم ويندِّمهم، كما جاء في: (الصحيحين) والرواية لمسلم، عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ترك قَتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام فناداهم فقال: «يا أبا الجهل ابن هشام، يا أميَّة بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة: أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً».

فسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله: كيف يسمعون؟ أو أنّى يُجيبون وقد جَـيَّـفُوا؟

قال ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يُجيبوا».

وفي رواية لهما: فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ما تُكَلِّم من أجساد لا أرواح لها؟

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

وهذه سنة الرسل صلوات الله تعالى عليهم مع أعدائهم بعد هلاكهم، أنهم يخرجون إلى مصارع أعدائهم يُوبخونهم ويعنفونهم.

قال الله تعالى في قوم ثمود: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

وقال في قوم شعيب الذين كفروا به: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

فالميت يسمع ما يُقال عنده من السلام والكلام، ويشعر بما يُفعل عنده، كما دلَّ على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الميت إذا وُضع في قبره وتولّى عنه أصحابه؛ وإنه ليسمع قرع نعالهم: أتاه ملكان» الحديث كما تقدم في بحث السؤال.

كما أن الميت يتأذَّى بما يُفعل به أو عنده من المؤذيات والمضرّات:

فقد روى أبو داود عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كَسْر عظم الميت ككسره حيّاً»[١].

وعن عُمارة بن حزم رضي الله عنه قال: رآني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً على قبر فقال: «يا صاحب القبر ـ أي: يا جالساً على القبر ـ انزل من على القبر، لا تؤذي صاحب القبر ـ أي: الميت ـ ولا يؤذيك»[٢].

قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في: (الكبير) من رواية ابن لهيعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لأَن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده: خير من أن يجلس على قبر»[٣].

وروى ابن ماجه بإسناد جيِّد، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لأن أمشي على جمرة أو سيف، أو أخصف نعلي برجلي[٤] أحبّ إليَّ من أن أمشي على قبر»[٥].

---

(١) رواه ابن ماجه، وابن حبان في: (صحيحه) كما في: (الترغيب).
(٢) جاء هذا بصيغة النفي، والمراد فيه النهي، والمعنى: لا تؤذه بالجلوس فوق قبره، فيسبِّب لك عذاباً في الآخرة ـ كما دلت الأحاديث الآتية.
(٣) رواه مسلم، وأبو داود والنسائي وابن ماجه كما في: (ترغيب) المنذري.
(٤) أي: أخيط نعلي بجلد مقطوع من رجلي.
(٥) وهذا كله في حالة الاختيار، أما في حالة الاضطرار فإن الضرورة تقدر بمقدارها.

انتفاع الأموات بالأعمال الصالحة والأقوال الطيبة التي يُهديها إليهم الأحياء

إنَّ ثواب الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة التي يهديها أحياء الدنيا لأهل البرزخ، هي واصلة إليهم لا محالة، وهي تنفعهم، دلَّ على ذلك الكتاب والسنة:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾.

فلقد مدح الله تعالى الذين استغفروا للمؤمنين قَبلهم، فدلَّ ذلك على أَنَّه مقبول عند الله تعالى، وهو ينفع الأموات قبلهم.

وقد أمر الشارع بالصلاة على الميت والدعاء له، وما ذلك إلا لأنه ينفعه ويزيد في ثوابه:

روى أصحاب السنن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا صلّيتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».

كما أمر الشارع بالدعاء للأموات عند زيارة قبورهم:

روى مسلم في: (صحيحه) عن بُريدة بن الحُصيب رضي الله

عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلِّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية».

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾.

ففي هذه دلالة صريحة على أن الله تعالى ينفع الأبناء بعمل الآباء، فَيُلحق الأبناء المقصِّرين بآبائهم المقرَّبين؛ تكرمةً لإيمانهم وصلاحهم، من غير أن يُنقصهم من ثواب أعمالهم شيئاً.

كما روى الطبراني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أظنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده.

فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك.

فيقول: يا ربِّ قد عَمِلتُ لي ولهم ـ فيؤمر بإلحاقهم به».

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ الآية.

وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة.

فيقول: يا ربِّ أنَّىٰ لي هذا؟

فيقول: باستغفار ولدكَ لك».

كما أنَّ ثواب الصدقات من الأحياء يَصل إلى الأموات:

جاء في: (الصحيحين) عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أنّ رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها ـ أي: أُخذت بغتة ـ ولم توص، وأظنها لو تكلَّمتْ تصدَّقت، أفلها أجر إن تصدّقتُ عنها؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم».

وروى البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنّ امرأة سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ابنها مات ولم يحجّ قال: «حُجِّي عن ابنك».

وكلُّ عملٍ صالح يُوهب ثوابه للأموات يصل إليهم، ومن ذلك إهداء ثواب القراءات للأموات، فإنه يصل إليهم وينفعهم:

جاء في الحديث عن معقل بن يسار رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قلب القرآن يٓس، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له، اقرؤوها على موتاكم».

قال الحافظ المنذري: رواه أحمد، وأبو داود واللفظ له، وابن ماجه، والحاكم وصححه. اهـ.

وبهذا الحديث يُرشد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمَّته إلى تلاوة هذه السورة الكريمة التي هي قلب القرآن ـ لينتفع بها الأحياء وينتفع بها الأموات.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا مات أحدكم فلا تحبسوه، وأسرعوا به

إلى قبره، ولْيُقرأ عند رأسه فاتحة البقرة، وعند رجليه بخاتمة البقرة».

قال في: (مشكاة المصابيح): رواه البيهقي في: (شعب الإيمان) وقال: والصحيح أنه موقوف على ابن عمر رضي الله عنهما. اهـ.

وفي الجزء الثاني من: (المرقاة): أخرج أبو القاسم سعد بن علي الزنجاني في: (فوائده) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَن دخل المقابر، ثم قرأ فاتحة الكتاب، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ثم قال: إني جعلت ثواب ما قرأتُ لأهل المقابر من المؤمنين والمؤمنات: كانوا شفعاء له إلى الله تعالى».

وفي: (المرقاة): أخرج أبو محمد السمرقندي في فضائل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عن عامر مرفوعاً: «مَن مرَّ على المقابر وقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إحدى عشرة مرة، ثم وهب أجره للأموات: أُعطي من الأجر بعدد الأموات».

وفي: (المرقاة): نقلاً عن محمد بن أحمد المروزي: قال سمعتُ أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول: (إذا دخلتم المقابر فاقرؤوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم).

وفي: (أذكار) النووي قال: ويستحب للزائر الإكثار من قراءة القرآن، والذكر، والدعاء لأهل تلك المقبرة؛ وسائر الموتى، والمسلمين أجمعين.

وقال الإمام النووي في: (شرح المهذب): يستحب لزائر القبور أن يقرأ ما تيسر من القرآن، ويدعو لهم عقبها، نصَّ عليه الشافعي، واتفق عليه الأصحاب.

وقال في موضع آخر: وإن ختموا القرآن على القبر كان أفضل. اهـ.

فالأموات يَنتفعون بالقراءات تُهدى إليهم؛ كما ينتفعون بالدعوات لهم.

وقد روى الترمذي، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يقول الربّ تبارك وتعالى: مَن شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

وروى الطبراني بإسناد جيد، عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات: كَتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة».

وروى الطبراني أيضاً، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَن لم يكن عنده مال يتصدَّق: فليستغفر للمؤمنين والمؤمنات فإنها صدقة».

وروى أبو داود وغيره، عن أبي أُسيد رضي الله عنه قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله، هل بقي من برِّ أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟

قال: «نعم ـ الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما

من بعدهما، وصلة الرحم التي لا تُوصل إلا بهما، وإكرام صديقهما».

وقال الخلال في: (جامعه): كتاب القراءة عند القبور:

ثم أسند إلى عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال: قال أبي: إذا أنا مِتُّ فضعْني في اللحد وقل: بسم الله، وعلى سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسُنَّ عليَّ التراب سنّاً، واقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة، فإني سمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول ذلك. اهـ.

وذكر الخلال عن الشعبي قال: كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرؤون عنده القرآن.

هذا وإنَّ جميع ما ذكرناه من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية؛ الدالة على وصول ثواب الأعمال المهداة إلى الأموات، ذلك كله لا يختلف مع قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ لأن السعي نوعان:

سعي مباشَر: وذلك بتعاطي الإنسان الأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة، التي رسمها الشارع له: من الصلوات، والصدقات، والصيام، وسائر العبادات، والقربات العملية والقولية، المتنوعة الكثيرة.

وسعي تسبُّب: في تحصيل خير وثواب يَنْسحب عليه، ويجري له مِنْ عمل باشَره غيره، فذلك الغير له أجر العمل بالمباشرة؛ وهذا له أجر العمل بالتسبب ـ وهذا النوع الثاني له وجوه كثيرة، وأنواع متعددة، بيَّنها الشارع ـ فمن ذلك:

ما رواه مسلم في: (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

فإنَّ هذه الأمور تنفعه بعد موته، لأنه تسبَّب إليها وإنْ كان هو لم يباشرها بنفسه.

وفي: (سنن) ابن ماجه بإسناد حسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: عِلماً عَلَّمه ونشره، أو ولداً صالحاً تركه، أو مُصحفاً ورَّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نَهَراً أكراه» ـ وفي رواية: «أجراه» ـ «أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته: تلحقه من بعد موته».

وفي: (صحيح) مسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَن سنَّ في الإسلام سُنة حسنة: فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده؛ من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة: كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده؛ من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

فمَنْ آمن بما أمر الله تعالى به، وانتظم في سلك المؤمنين، كان ذلك منه سبباً في نيل حظه من استغفار رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ الآية.

ومن استغفار سيدنا نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام، حيث يقول سبحانه مخبراً عنه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾.

وأَنْ ينال حظه من استغفار الخليل سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، حيث يقول سبحانه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

وأن ينال حظه من دعوات المؤمنين واستغفارهم، حيث يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الآية.

وأن ينال حظه من دعاء حملة العرش، واستغفارهم، حيث يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ الآيات.

وأَنْ ينال حظه من صلوات المؤمنين عليه بعد موته، ودعائهم له، وترحّمهم عليه.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في: (الصحيحين) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً».

وهذا مطلوب منهم في أمورهم الدينية والدنيوية، وهو في أمورهم الدينية أهمُّ وأوجب، فدخولُ المؤمن مع جملة المؤمنين في عقائدهم الإيمانية هو من أعظم الأسباب في وصول نفع كلٍّ من

المؤمنين إليه، في حياته وبعد مماته، وذلك أَنّ الله تعالى جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه المؤمنين، واستغفارهم، وأعمالهم الصالحة، وأقوالهم الطيبة الحسنة، فإذا آمن الإنسان فقد سعى في السبب الذي يُوصل إلى جميع تلك المنافع والفوائد، فهي من سعيه التَّسَبُّبي.

ويدل على ذلك ما جاء في: (مسند) الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن يَنحر مائة بدنة ـ أي: ناقة ـ وأن هشام بن العاص نحر خمسة وخمسين، وأن عَمْراً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال: «أما أبوك ـ أي: العاص ـ فلو أقرَّ بالتوحيد فصُمتَ وتصدقتَ عنه نفعه ذلك» أي: ولكن لم يُقرَّ بالتوحيد، بل جحد وكفر، فلم يتعاط السبب في أن تنفعه صدقاتك وصيامك.

وهكذا مَن جلس إلى الصالحين؛ وكان مع الصادقين؛ كان ذلك سبباً في أن يناله من الخير والنور والبركة النازلة عليهم:

كما في: (الصحيحين) عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «هُم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

جعلنا الله تعالى، وأحبابنا، في زمرة عباده الصالحين، وحفَّنا بأنوار سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

عرض الأعمال
على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وجاء في الأحاديث النبوية ما يدل على أَنَّ أعمال المؤمنين تُعرَض على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حَيَاتي خير لكم: تُحدِثون ويُحدَث[1] لكم، ووفاتي خير لكم: تُعرض عليّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدتُ الله، وما رأيت من شرٍّ استغفرت الله لكم»[2].

فأعمال المؤمنين تُعرض عليه صلى الله عليه وآله وسلم، والحكمة في ذلك كما بيّن صلى الله عليه وآله وسلم هي: **أَنَّ ما كان من أعمالهم خيراً** حمد الله تعالى، وفرح بها، وباهى بها في ذلك العالَم، **وما كان غير ذلك** من هَنَات وسيئات استغفر الله لهم.

---

(١) أي: تحدثون أقوالاً وأعمالاً، ويُحْدَثُ لكم أحكام شرعية، فيها بيان ما يجوز وما لا يجوز.

(٢) هكذا أورده الحافظ العراقي في: (شرح التقريب) بنصه، وقال: رواه أبو بكر البزار في: (مسنده) بإسناد جيد. اهـ.
وأورده في: (الجامع الصغير) من رواية ابن سعد عن بكر بن عبد الله مرسلاً، وقال الحافظ الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

ولا تعارض بين هذا الحديث، وبين ما جاء في حديث الحَوض حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وليُرفعنَّ إليَّ رجال منكم، حتى إذا أهويتُ إليهم لأُناولهم؛ اخْتُلِجُوا دوني.

فأقول: أيْ ربِّ أصحابي.

فَيُقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن بَدّل بعدي».

كما في: (الصحيحين)، فإن هذا محمول على المرتدين، الذين ارتدوا بعده صلى الله عليه وآله وسلم عن دينهم، بدليل قوله: «سُحقاً لمن بدل من بعدي»، وذلك أنهم كفروا بعده صلى الله عليه وآله وسلم، وأعمال الكفار من أمته لا تُعرض عليه ﷺ، إذ لا فائدة لعرضها، لأن الحكمة في هذا العرض فَرَحُه ومباهاته بأعمالهم الصالحة، واستغفاره لأعمالهم السيئة.

ويدلك على هذا قول السيدة عائشة رضي الله عنها، كما في البخاري: إذا أعجبك حُسن عمل امرىء مسلم، فقل: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

ومن جملة ما يُعرض عليه صلى الله عليه وآله وسلم، ويُسرّ ويفرح به صلوات المصلين عليه صلى الله عليه وآله وسلم:

روى ابن ماجه بإسناد جيد، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكثروا عليَّ من الصلاة كل يوم جمعة، فإنَّه مشهود تشهده الملائكة، وإنَّ أحداً لن يُصلي عليَّ إلا عُرضت عليّ صلاته حتى يفرغ منها».

قال: قلت: وبعد الموت؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

قال الحافظ المنذري: رواه أحمد، وأبو داود وابن ماجه، وابن حبان في: (صحيحه)، والحاكم وصححه.

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «حيثما كنتم فَصلُّوا علي فإن صلاتكم تبلغني»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ صلى عليّ بلغتني صلاته وصَلَّيْتُ عليه؛ وكُتب له سوى ذلك عشر حسنات»(٢).

عرض الأعمال على الأقارب والعشيرة في البرزخ

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى عند آية: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية، قال: وقد ورد أَنَّ أعمال الأحياء تُعرض على الأموات: من الأقرباء والعشائر في البرزخ، ثم أورد حديث أبي داود الطَّيالسي بإسناده، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم: فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهمَّ ألهمهم أن يَعملوا بطاعتك».

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني في: (الكبير) بإسناد حسن. اهـ.

(٢) قال في: (الترغيب): رواه الطبراني في: (الأوسط) بإسناد لا بأس به. اهـ.

ثم أورد حديث الإمام أحمد بإسناده عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات: فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهمَّ لا تُمتهم حتى تَهديهم كما هديتنا».

وروى الإمام ابن المبارك بإسناده، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول: (إن أعمالكم تُعرض على أمواتكم فيُسرون ويساؤون).
ثم يقول: (اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أُخزىٰ به عند خالي عبد الله بن رواحة).

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تُعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس على الله تعالى، وتُعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة، فيفرحون بحسناتهم، وتزداد وجوههم بياضاً وإشراقاً، فاتقوا الله ولا تُؤذوا موتاكم»[1].

وأورد أبو عبد الله القرطبي بإسناده، إلى سعيد بن المسيّب رحمه الله تعالى أنه قال: (ليس يوم إلا تعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمَّتُه غدوةً وعشية، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم، فلذلك يشهد عليهم). اهـ.

قال أبو عبد الله: ولا تعارض ـ أي: بين ما جاء عن سعيد وبين ما تقدَّم، فإنه يُحتمل أن يُخصَّ نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بما يعرض عليه كل يوم، ويوم الجمعة مع الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام. اهـ من: (تفسير) ابن كثير.

---

(١) وأورده في: (الجامع الصغير) وقال: رواه الحكيم الترمذي عن والد عبد العزيز رامزاً إلى حسنه.

حال أهل البرزخ من حيث الأعمال التعبُّديَّة

لقد تفضَّل الله تعالى على أنبيائه صلوات الله عليهم، باستمرارهم على صلواتهم وعباداتهم لربهم سبحانه وتعالى في عالَم البرزخ.

جاء في: (صحيح) مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، في حديث الإسراء، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «وقد رأيتُني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل: ضرْب، جَعْد، كأنه من رجال شنوءة ـ أي: فيه طول ـ وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يُصلي؛ أقربُ الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي؛ أشبه الناس به صاحبكم ـ يعني: نفسه صلى الله عليه وآله وسلم ـ فحانت الصلاة فأممتهم.

فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل: يا محمد هذا مالِكٌ صاحب النار فسلِّم عليه ـ فالتفتُّ إليه فبدأني بالسلام».

وفي هذا يُخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمَّا رأى في ليلة الإسراء، وأنه رأى الأنبياء يُصلُّون فُرادى، ثم جمعتهم صلاة واحدة، فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إماماً.

وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون» رواه أبو يعلى، والبيهقي.

وقال الدارمي في كتاب: (السنن) المعروف عند المحدثين بـ (مسند) الدارمي: **باب ما أكرم الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته** ثم روى بإسناده، عن سعيد بن عبد العزيز قال: (لما كان أيام الحرَّة لم يُؤَذَّن في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يُقم ـ أي: لم يُقم فيها الصلاة ـ ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد، وكان لا يَعرف وقت الصلاة إلا بِهَمْهَمَةٍ يسمعها من قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم)[1].

وروى مسلم في: (صحيحه) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرَّ بوادي الأزرق فقال: «أيّ وادٍ هذا»؟

فقالوا: هذا وادي الأزرق.

قال: «كأني أنظر إلى موسى هابطاً من الثنيَّة، وله جُؤَار إلى الله بالتلبية».

ثم أتى على ثنيَّة هَرْشىٰ فقال: «أيُّ ثنية هذه»؟

قالوا: ثنيَّة هرشى.

فقال: «كأني أنظر إلى يُونس بن مَتَّى على ناقة حمراء جَعْدةٍ،

---

(١) رواه أبو نعيم في: (الدلائل)، والزبير بن بكار في: (أخبار المدينة) وابن سعد في: (الطبقات) كما في: (إنباه الأذكياء في حياة الأنبياء) للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى.

عليه جُبة من صوف، خُطام ناقته خُلبَة ـ أي: ليف ـ وهو يلبِّي».

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى عند هذا الحديث: أكثر الروايات أنه صلى الله عليه وآله وسلم رآهم كذلك ـ أي: يلبُّون حاجين ـ ليلة الإسراء. اهـ.

قال الحافظ الزرقاني: فإن قيل كيف تُصلي الأنبياء وهم أموات في الدار الآخرة، وهي ليست دار عمل؟ قال: أجاب القاضي عياض والعلامة السبكي بأنهم كالشهداء، بل أفضل، والشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، فلا يُستبعد أن يحجوا ويصلوا، وأن يتقربوا إلى الله تعالى بما استطاعوا، لأنهم وإن ماتوا فهم في هذه الدنيا ـ أي: فهم لا يزالون في هذه الدنيا من جهة، وليسوا في الآخرة من كل الاعتبارات. والدنيا ـ التي هي دار العمل، حتى إذا فنيت مدتها؛ وتعقبها الآخرة التي هي دار الجزاء: انقطع العمل.

وحاصله أَنّ أهل البرزخ ينسحب عليهم حُكم الدنيا في استكثارهم من الأعمال، وزيادة الأجور.

ثم قال: وتكفي رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم لموسى عليه السلام قائماً يُصلي في قبره، ولأن جميع الأنبياء لم يُقبضوا حتى خُيِّروا في البقاء في الدنيا وبين الآخرة، ولا شكَّ أنهم لو بقوا في الدنيا لازدادوا من الأعمال الصالحة ثم انتقلوا إلى الجنة، فلو لم يَعلموا أَنَّ انتقالهم إلى الله تعالى ـ بسبب الموت ـ أكمل لما اختاروه، ولو كان انتقالهم من هذه الدار يُفَوِّتُ عليهم الزيادة فيما يُقرب إلى الله تعالى لما اختاروا الانتقال[١] اهـ.

---

(١) انظر: (شرح الزرقاني على: (المواهب).

هذا وإنَّ الله تعالى قد يُكرم العلماء العاملين، وعباده الصالحين: باستمرارهم على طاعتهم وقرباتهم من الصلوات والتلاوات وما هنالك من العبادات، ويدلك على هذا ما رواه الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضَرَب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خِباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ضربت خِبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر؛ فإذا إنسان يقرأ سورة الملك ﴿تَبَٰرَكَ﴾ حتى ختمها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هي المنجية، تُنجيه من عذاب القبر».

وروى أبو عبد الله بن منده بإسنادٍ فيه ضعف، من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: أردت مالي بالغابة، فأدركني الليل، فأويت إلى قبر عبد الله بن عَمرو بن حرام رضي الله عنه فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها، فجئت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ذلك عبد الله، أَلَمْ تعلم أَنّ الله قبض أرواحهم فجعلها في قناديل من زُبرجد وياقوت، وعلَّقها وسط الجنة، فإذا كان الليل رُدَّت إليهم أرواحهم إلى مكانها التي كانت»[1].

---

(١) انظر كتاب: (أهوال أهل القبور) لابن رجب الحنبلي.

وروى أبو نعيم بإسناده، عن إبراهيم بن الصُّمَّة قال: حدثني الذين كانوا يمرون بالحصى بالأسحار قالوا: كنا إذا مررنا بجنبات قبر ثابت البناني سمعنا قراءة القرآن.

وروى أبو نعيم بإسناده، عن يسار بن حُبيش عن أبيه قال: أنا والذي لا إلٓه إلا هو أدخلت ثابتاً البناني في لحده، ومعي حُميد ورجل غيره، فلما سوَّينا عليه اللبن سَقَطت لبنة، فإذا به يصلي في قبره.

فقلت للذي معي: ألا تراه؟

فقال: اسكت.

فلما سوَّينا وفرغنا، أتينا ابنته فقلنا لها: ما كان عمل ثابت؟

قالت: وما رأيتم؟

فأخبرناها.

فقالت: كان يقوم الليل خمسين سنة، فإذا كان السحر قال في دعائه: اللهم إن كنت أعطيت أحداً الصلاة في قبره ـ أي: بأن يصلي لك في قبره ـ فأعطنيها.

قالت ابنته: فما كان الله ليردَّ ذلك الدعاء.

وروى الحافظ أبو بكر الخطيب، عن عيسى بن محمد قال: رأيت أبا بكر بن مجاهد المقرىء في النوم، كأنه يقرأ وكأني أقول له مِتَّ وتقرأ؟

فقال: كنت أدعو الله تعالى في دبر كلِّ صلاة، وعند ختم القرآن أن يجعلني ممن يقرأ في قبره ـ أي: فأعطي ذلك.

قال عبد الله: وأنا أسأل الله العظيم، بوجاهة حبيبه الكريم سيدنا

محمد صلى الله عليه وآله وسلم: أن يجعلني من المصلين والقارئين والمتعبدين في قبورهم؛ إنه سميع الدعاء.

وقد يُقال: إذا كان الأمر كما تقدم، فما معنى الحديث الذي رواه مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث. . .» الحديث.

قلنا: أولاً: إنه لا يجوز للإنسان أن يفهم من هذا الحديث انقطاع العمل بالموت كلياً، لأن هذا الفهم يتنافىٰ مع كثير من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية، التي تُثبت أَن هناك أعمالاً بعد الموت، منها تكليفية ومنها تكييفية، بها اللذة والنعيم والرَّوْحُ والريحان:

فمن جملة تكاليف أهل البرزخ: مطالبتهم بالجواب الصحيح عن السؤال في القبر كما تقدم في بحث سؤال الميت، وينبني على جوابه ثواب أو عقاب كما تقدم.

ثم من جملة التكاليف في الآخرة: مطالبة العباد يوم القيامة أن يَسجدوا لرب العالمين، وهذه السجدة لها آثارها وأحكامها:

قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أي: يوم القيامة يُكشف عن شدائد وأهوال، ويتجلى ربُّ العزة ويدعو العباد كلَّهم إلى أن يسجدوا لله تعالى، فمن كان يسجد في الدنيا يسجد في الآخرة، وأما الكفار فلم يسجدوا لربهم في الدنيا فلا يستطيعون السجود له هناك.

كما جاء في: (صحيح) البخاري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَكشف رَبُّنا عن ساق ـ أي: عن أمر عظيم مهيب ـ فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة،

ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة؛ فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً» أي: فلا ينحني ظهره.

وأما **الأعمال التكييفيّة** التي يترقَّون بها في مقامات القرب، وفي درجات النعيم، والرَّوْحِ والريحان: **فمنها صلواتهم في البرزخ** كما تقدم في الأحاديث الصحيحة.

ومن ذلك **عبادات أهل الجنة في الجنة**، وكثرة تسبيحهم وتحميدهم أعظم مما كانوا عليه في الدنيا، كما جاء في: (صحيح مسلم، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يمتخطون».

قيل: فما بال الطعام؟

قال: «جُشَاءٌ كرشح المسك، يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النَفَس» أي: بلا كلفة ولا مشقة، فصار ذلك لهم روحاً وريحاناً، ولذة ونعيماً بلا تكلُّف ومشقة، فهم ملازمون للتسبيح والتحميد ملازمة النَفَس.

وفي: (الصحيحين) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن الملائكة تقول: لو رأوك ـ أي: يا ربنا لو رآك العابدون والذاكرون ـ كانوا أشدَّ لك عبادة، وأكثر لك تسبيحاً وتحميداً» ولا شك أنهم في الجنة يرون ربهم سبحانه، فهم أكثر عبادة له منهم في الدنيا.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقال للقارىء: إقرأ وارقَ، ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها» رواه الترمذي وقال: حديث صحيح.

وفي هذا دليل على استمرار الأعمال الصالحة في الجنة، وأن صاحبها يرتقي بها درجات، وينال بها مقامات.

وروى الترمذي أيضاً وحسَّنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يَجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا ربِّ حَلِّه؛ فيُلبس حُلّة الكرامة، ثم يقول: يا ربِّ ارض عنه، فيرضى عنه، فيقال: اقرأ وارْق ويزداد بكل آية حسنة».

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ويزداد بكل آية حسنة» هو صريح في ثواب تلك القراءات والتعبدات في عالم الآخرة، وأنهم ينتفعون بتلك القراءات والتسبيحات ـ إذاً فالعمل لا ينقطع انقطاعاً كلياً بعد الموت، بل هناك أعمال وأعمال، على مدِّ العوالم، كل عالَم على حَسَبه.

ثانياً: إنَّ الرجل الصالح إذا طال عُمُره وبقاؤه في الدنيا ازداد من الأقوال الصالحة والأعمال الطيبة، التي ترفع درجته وتقربه إلى الله زلفى، كما جاء في: (سنن) الترمذي وقال فيه: حسن صحيح، عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟

قال: «من طال عمره وحَسُن عمله».

قال: فأيُّ الناس شرٌّ؟

قال: «مَن طال عمره وساء عمله».

فلو كان العمل الصالح بأنواعه ينقطع انقطاعاً كلياً بعد الموت لما اختارت الأنبياء صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم الانتقال إلى الدار الآخرة، حين خيّرهم الله تعالى بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى الآخرة، لأنهم حينئذ قد فوّتوا على أنفسهم أعمالاً صالحة باختيارهم.

فقد روى الشيخان، عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لن يُقبض نبيٌّ حتى يَرى مقعده من الجنة ثم يُحيًا أو يخيَّر» الحديث.

فالأنبياء يخيرون بين البقاء في الدنيا وبين الانتقال إلى الآخرة، فلو كانت أعمالهم الصالحة من الصلوات ونحوها تنقطع بالموت لاختاروا البقاء في الدنيا، ليستمروا على الأعمال الصالحة، فإنهم أحرص الناس عليها، ولو أنهم اختاروا البقاء في الدنيا لأُعطوه كما يدل الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أُرسِلَ ملك الموت إلى موسى فلما جاءه صَكَّه ـ أي: ضربه ـ ففقأ عينه.

فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت.

فردَّ الله تعالى إليه عينه فقال: ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غَطت يده من شعره سنة.

قال: أيْ ربِّ ثم ماذا؟

قال: ثم الموت.

قال: فالآن ـ فسأل الله تعالى أنْ يُدنِيَهُ من الأرض المقدسة رمية بحجر» الحديث.

وقد تكلمنا على هذا الحديث كلاماً مفصلاً في كتابنا: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) فارجع إليه إن شئت.

فالأنبياء صلوات الله عليهم لا ينقطعون عن عباداتهم وصلواتهم ـ أي: بعد موتهم ـ وكذلك من أكرمه الله تعالى في الدنيا بالأعمال الصالحة، والقراءات والتهجدات من عِباده العُبَّاد المؤمنين، فإنه

سبحانه يُكرمهم بعد الموت بالاستمرار عليها، كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقال للقارىء يوم القيامة: إقرأ وارقَ» الحديث كما تقدم.

يعني: القارىء في الدنيا المواظب على قراءاته، المستمر على تلاوته في الدنيا: يُكرم بالاستمرار عليها في الآخرة، وهكذا المتهجدون والمتعبدون كلٌّ على حسب مقامه ـ اللهم اجعلنا منهم.

وأما العمل الذي ينقطع بعد الموت فهو العمل التكليفي الدنيوي ـ أي: الذي هو من تكاليف عالَم الدنيا قبل الموت، فإنه ينقطع بالموت لفوات أوانه.

فالفرائض التي تركها في الدنيا لا تُقضى هناك، وزكوات لم يُؤدِّها في الدنيا لا تؤدى هناك، وواجبات تركها وعبادات أهملها، وتطوعات قصَّر فيها؛ فإنَّها إذا مات فاتته ـ نعم إلا ما تسبَّب فيه من الأعمال الصالحة، والأمور النافعة قبل الموت، وهذا التسبب كالصدقة الجارية، والولد الصالح يدعو له، والعلم الذي يُنتفع به إلى آخر ما تقدم، فإنَّ خيره يجري عليه.

كما أَنّ مَن ورَّث علماً ضاراً، أو تسبب في عمل سيىء، أو سَنَّ سُنة سيئة: فإنه بعد الموت يجري عليه إثمه، وإثم من عمل به، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

* * *

تلاقي الأموات في عالم البرزخ
وتساؤلهم وتزاورهم

روى ابن حبان في: (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن المؤمن إذا قُبض ـ وفي رواية: «إذا حُضر» ـ أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اُخرجي إلى رَوح من الله».

وفي رواية غير ابن حبان: «اُخرجي ـ أيتها النفس ـ راضية مرضية عنك، إلى رَوح ورَيْحان، وربٍّ غير غضبان؛ فتخرج» ـ أي: الروح ـ «كأطيب ريح المسك، حتى إنّه ليناوله بعضهم بعضاً فَيَشُمُّونه.

حتى يأتوا به باب السماء فيقولون: ـ أي: أهل السماء ـ ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين؛ فلهم أشدُّ فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم.

فيقولون: ما فعل فلان؟

فيقولون: ـ أي: الملائكة الذين معه ـ دَعوه ـ اتركوه ـ حتى يستريح، فإنه كان في غمٍّ الدنيا.

فيقول: ـ أي: الميت ـ قد مات أما أتاكم؟ ـ أي: فلان الذي سألتم عنه قد مات ـ.

فيقولون: ذُهِب به إلى أُمِّه الهاوية» الحديث[1].

وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا وَلِيَ أحدكم أخاه ـ أي: تكفينه ـ فليحسن كفنه، فإنَّهم يُبعثون في أكفانهم، ويتزاورون في أكفانهم»[2].

وروى الإمام أحمد، عن أم هانىء الأنصارية رضي الله عنها، أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضاً؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «تكون النَسَم ـ أي: الأرواح ـ طيراً تعلق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دَخلت كل نفسٍ في جسدها»[3].

وأخرج ابن أبي الدنيا بإسناده: (أنه لما مات بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه، وجَدَت ـ أي: حزنت ـ عليه أمّ بشر وَجْدَاً شديداً.

فقالت يا رسول الله: لا يزال الهالك يهلك ـ أي: يموت ـ من

---

(١) قال المنذري في: (الترغيب): رواه ابن حبان في: (صحيحه)، وهو عند ابن ماجه بنحوه بإسناد صحيح. اهـ وعزاه في: (الفتح) إلى النسائي، والحاكم.
(٢) عزاه في: (الجامع الصغير) إلى العُقيلي، والخطيب، وسَمُّويه، وقد رواه الخطيب أيضاً من حديث جابر رضي الله عنه، قال في: (اللسان) عن العقيلي: إسناده صالح كما في: (فيض القدير).
(٣) رواه الطبراني في: (الكبير) بإسناد حسن، كما في: (الحاوي) للسيوطي.

بني سلمة، فهل يتعارف الموتى فأرسِلَ إلى بشر السلام ـ أي: مع الذين يموتون من بني سلمة ـ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده يا أمَّ بِشر إنّهم ليتعارفون، كما تتعارف الطير في رؤوس الشجر».

فكان لا يهلك ـ أي: لا يموت ـ الهالك من بني سلمة، إلا جاءت أم بشر فتقول: إقرأ على بشر السلام).

فكانت ترسل السلام مع الأموات إلى ولدها.

هذا وإنَّ أكرم الزائرين هم الذين يَمُنّ الله تعالى عليهم بزيارة أكرم خلق الله تعالى على الله تعالى، وهم الذين يجتمعون به، ويَلْقَونه صلى الله عليه وآله وسلم، ويكونون معه مرافقين له صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾.

فنسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم: أن يجمعنا من فضله بصاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وآله وسلم في جميع العوالم.

وقد ورد أنّ بلال بن رباح رضي الله عنه لما نزل به الموت، جعلت زوجته تقول: واحُزْنَاه.

وجعل يقول: واطَرَباه ـ غداً ألقى الأحبة محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وحزبه. اهـ.

فبلال رضي الله عنه يستبشر أن يلقىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويجتمعَ به وبأصحابه في البرزخ؛ كما كان يجتمع معه صلى الله عليه وآله وسلم في عالم الدنيا.

* * *

التقاء أهل الدنيا بأهل البرزخ واتصالهم بهم

الالتقاء بأهل البرزخ وغيرهم من العوالم الغيبية ـ هو واقع ثابت للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذلك لِمَا أعطاهم الله تعالى من قوة الإدراك والاتصال بتلك العوالم، قال الله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾.

ففي هذه الآية دليل على أَنَّ اجتماعه صلى الله عليه وآله وسلم بالرسل قَبله، والتقاءه بهم أَمْر ممكن الوقوع، يسهل عليه صلى الله عليه وآله وسلم أن يحصل له.

وقد قال بعض السلف الصالح في معنى الآية: يعني بذلك واسألهم ليلة الإسراء، فإِنَّ الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام اجتمعوا به كلهم في تلك الليلة، ولقيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جميعهم ـ حكى ذلك القول الحافظ ابن كثير وغيره، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره.

ولا شك أَنه صلى الله عليه وآله وسلم قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء، كما صح في الأحاديث الدالة على أنه صلى الله عليه وآله وسلم اجتمع بجميع الأنبياء ليلة الإسراء والمعراج، في بيت المقدس يقظة، وصلّى بهم، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم اجتمع

بهم في عالم السموات، وتحدث معهم، كما أنه اجتمع في السماء الثانية بعيسى ابن مريم، الذي هو حيٌّ بالحياة الدنيوية، فإنه لم يَمُت، وسوف ينزل آخر الزمن، ثم بعد ذلك يموت في عالم الأرض ـ كما تواتر ذلك في الأحاديث النبوية.

ولما اجتمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأنبياء في بيت المقدس صلى بهم إماماً، كما جاء في: (صحيح) مسلم وغيره.

ولما اجتمع صلى الله عليه وآله وسلم بالأنبياء ليلة المعراج في السموات؛ جرت بينه وبينهم الأحاديث عن أمر الساعة وغيرها:

كما ورد في: (سنن) الترمذي، و(المسند) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لقيتُ ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة، فردّوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها.

فردوا الأمر إلى موسى، فقال: لا علم لي بها.

فردوا الأمر إلى عيسى فقال: أمَّا وَجْبتها ـ أي: وقت وقوعها ـ فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إليَّ ربي: أَنَّ الدجال خارج، ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، فَيُهلكه الله تعالى إذا رآني، حتى إنَّ الحجر والشجر ليقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، فيُهلكهم الله ـ أي: يهلك الله تعالى الدجال وأتباعه ـ ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك: يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كلِّ حدبٍ ينسلون، فيطؤون بلادهم، ولا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرُّون على ماء إلا شربوه، ثم يرجع الناس إليَّ ـ أي: إلى عيسى ابن مريم عليه السلام ـ

فيشْكونهم ـ أي: فيشكون إلى عيسى ابن مريم ما يلقون من أذى وشرٍّ يأجوج ومأجوج ـ فأدعو الله عليهم فيهلكهم، ويُميتهم، حتى تَجوى الأرض ـ أي: تتغير ـ من نتن ريحهم، فيُنزل الله المطر فَيَجْرف أجسادهم، حتى يقذفهم في البحر.

قال عيسى عليه السلام: ففيما عهد إليَّ ربي أَنّ ذلك إذا كان كذلك: فإن الساعة كالحامل المُتِمِّ ـ أي: كالحبلى التي آن وضعها ـ لا يَدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها: ليلاً أو نهاراً».

وفي ذلك كله دليل على اجتماعه صلى الله عليه وآله وسلم بالرسل قبله بلا شك، ولكن تأويل الآية السابقة بهذا الاجتماع ليلة الإسراء فحسب: فيه نظر، بل الظاهر أَنّ الآية وهي قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ الآية هي أعمّ من ذلك، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم قد مكنه الله تعالى بالاجتماع بالرسل قبله متى أراد صلى الله عليه وآله وسلم، دون أن يَتَعيَّن ذلك ليلة الإسراء، كما مَكن الله تعالى رسله صلوات الله وسلامه عليهم من الاجتماع بِمَنْ مضى قبلهم:

فقد اجتمع كليم الله موسى حين كان في الدنيا بصفيِّ الله آدم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام وجرى بينهما الاحتجاج:

جاء في: (الصحيحين) و(السنن) واللفظ لأبي داود، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«قال موسى: يا ربِّ أَرِنا أبانا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة.

فأراه الله أباه آدم عليه السلام.

فقال: أنت أبونا آدم؟

فقال: نعم.

فقال: أنت الذي نفخ الله فيك من رُوحه، وعلَّمك الأسماء كلها، وأمر الملائكة فسجدوا لك؟

قال: نعم» الحديث.

وقد ذكرناه وتكلمنا عليه في كتابنا: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام).

وفي هذا دليل واضح على اجتماع موسى بآدم يقظةً على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وفي ذلك كله دليل على أن قوله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية عامٌّ في أيِّ وقت أراد أن يلتقي بهم ويسألهم، ولا يختص ذلك بليلة المعراج.

وأما الاجتماع يقظة بأهل البرزخ والاطلاع على أحوالهم يقظة؛ بالنسبة لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنَّ ذلك لا يناله إلا مَنْ أكرمه الله تعالى من عباده الصالحين ـ وذلك على وجهين؛ أحدهما أقوى من الآخر كما هو مفصل في موضعه من كلام العارفين رضي الله عنهم.

ومن ذلك إكرام الله تعالى لبعض أوليائه بالاجتماع يقظة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخذهم عنه صنوفاً من البشائر والمعارف والمواهب الإلَهية.

كما ذكر الشيخ سراج الدين ابن الملقن في: (طبقات الأولياء):

أَنَّ الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ونفعنا الله تعالى به وبأولياء الله أجمعين قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الظهر فقال لي: يا بُنيَّ لِمَ لا تتكلَّم ـ أي: على الناس ـ فتعظهم ـ وذلك حين بلغ الشيخ مبلغ الرجال ـ؟

فقال الشيخ رضي الله عنه: قلتُ: يا أبتاه أنا رجل أعجمي كيف أتكلم على فصحاء بغداد؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: اِفتح فاك ففتحه، فتفل صلى الله عليه وآله وسلم فيه سبعاً، وقال لي: تكلَّم على الناس، و﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾.

قال الشيخ رضي الله تعالى عنه: فصليت الظهر وجلستُ ـ أي: للوعظ والتذكير ـ وحضر لي خلق كثير، فأُرْتِجَ عليّ ـ أي: أغْلِق عليه ـ فرأيت علياً رضي الله عنه قائماً بإزائي في المسجد فقال لي: يا بُنَيَّ لِمَ لا تتكلم؟

قلت: يا أبتاه قد أُرتج عليّ.

فقال: افتح فاك ففتحته، فتفل فيه ستّاً.

فقلت: لِمَ لا تكملها سبعاً؟

فقال: أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم توارى ـ أي: اختفى ـ.

فقلتُ: غوّاص الفكر، يغوص في بحر القلب، على دُرر المعارف، فيستخرجها إلى ساحل الصدر، فينادي عليها ترجمان اللسان، فتُشترى بنفائس أثمان حسن الطاعة ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾. اهـ.

وسبب الإرتاج عليه رضي الله عنه والله تعالى أعلم: أَنَّ التفلات المحمدية أفاضت عليه معارف جمة، فتزاحمت وتدفقت عليه رضي الله عنه، فجاء سيدنا علي رضي الله عنه بعيار المعيار، وتقدير المقدار، لما ينبغي ذكره، والتَّكَلُّم به في المجلس.

وقد ذكر الشيخ سراج الدين أيضاً، في ترجمة الشيخ خليفة بن موسى النهرملكي، أنه كان كثير الرؤية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقظة ومناماً.

وذكر الشيخ عبد الغفار بن نوح القُوصي في كتابه الوحيد قال: كان للشيخ أبي العباس المرسي رضي الله عنه صلة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان إذا سلَّم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ردَّ عليه السلام ويجاوبه إذا تحدث معه.

وذكر أيضاً في كتابه الوحيد ـ وكذلك ذكر الشيخ صفي الدين ابن أبي المنصور في رسالته عن الشيخ أبي الحسن الوناني ـ قال: أخبرني الشيخ أبو العباس الطنجي قال: وردت على سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه فقال لي: ما أنا بشيخك، شيخُك عبد الرحيم بقِنا ـ اسم بلد ـ.

قال: فسافرت إلى قِنا، فدخلت على الشيخ عبد الرحيم، فقال لي: عرفتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

فقلت: لا ـ أي: لم أعرفه معرفة خاصة ـ.

فقال: رُحْ إلى بيت المقدس.

قال: فحين وضعت رجلي في الركاب وإذا بالسماء والأرض والعرش والكرسي كلها مملوءة من رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم ـ أي: من أنواره صلى الله عليه وآله وسلم، وأسراره المفاضة عليه من ربه تعالى ـ فرجعتُ إلى الشيخ.

فقال لي: عرفتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

فقلتُ: نعم.

فقال: الآن كملت طريقتك، لم تكن الأقطاب أقطاباً، ولا الأوتاد أوتاداً، ولا الأولياء أولياءً إلا بمعرفته صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا باب واسع في كرامات الأولياء رضوان الله عليهم، وقد ذكر الحافظ السيوطي جزاه الله تعالى خيراً: جملة واسعة من ذلك في كتابه: (الحاوي).

وقال الشيخ صفي الدين أيضاً في رسالته: قال لي أبو العباس الحَرَّار: دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرة فوجدته يكتب مناشير للأولياء بالولاية، وكتب لأخي محمد منهم منشوراً.

قال: وكان أخو الشيخ كبيراً في الولاية، على وَجهه نور ظاهر لا يَخفى على أحد أنه وليٌّ، فسألنا الشيخ عن ذلك، فقال: نفخ النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وجهه فأثَّرتْ النفخة هذا النور.

رضي الله عنهم أجمعين، وأفاض علينا ما أفاض عليهم بوجاهة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند الله تعالى آمين.

وأما الاجتماع بأهل البرزخ مناماً فهو أمر حقٌّ كثير الوقوع، وفيه من الفوائد والعوائد ما فيه، وهو على وجهين أيضاً:

إما أن يكون عن رغبة من النائم وهذا أمر ظاهر، **أو عن رغبة ممن هو في عالم البرزخ**، كما يدل على هذا ما جاء في قصة

ثابت بن قيس بن شَمَّاس رضي الله عنه، وقد رواها الإمام البغوي، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وغيرهم عن عطاء الخراساني، قال: قدمتُ المدينة فلقيت رجلاً من الأنصار قلت: حدثني حديث ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه.

فقال الأنصاري: قم معي، فانطلقت معه حتى دخلت على امرأة.

فقال الأنصاري: هذه ابنة قيس بن شماس رضي الله عنه، فاسألها عمَّا بَدَا لك.

فقلت لها: حدثيني ـ أي: عن أبيك ـ.

فقالت: سمعت أبي لما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ الآية، دخل بيته وأغلق بابه، وطفق يبكي، ففقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ما شأن ثابت»؟

فقالوا: يا رسول الله ما ندري ما شأنه، غير أنه قد أغلق عليه باب بيته، فهو يبكي فيه.

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله: «ما شأنك»؟

قال: يا رسول الله أنزل الله عليك هذه الآية، وأنا شديد الصوت، فأخاف أن أكون قد حبط عملي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لستَ منهم، بل تعيش بخير، وتموت بخير».

قالتْ: ثم أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ فأغلق عليه بابه وطفق يبكي فيه.

فافتقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «ما شأن ثابت»؟

قالوا: يا رسول الله ما ندري ما شأنه، غير أنه أغلق عليه بابه وطفق يبكي.

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ما شأنك»؟

فقال: يا رسول الله أنزل الله عليك هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ والله إني لأحبّ الجمال، وأحبُّ أن أَسود قومي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لستَ منهم، بل تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، ويدخلك الله الجنة بسلام».

قالت: فلما كان يوم اليمامة، خرج مع خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى مسيلمة الكذاب ـ أي: مجاهداً ـ فلما لقي أصحاب رسول الله قد انكشفوا، فقال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة أحد قراء الصحابة بالصوت الحسن رضي الله عنهم أجمعين قال له ثابت: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم حفر كلٌّ منهما لنفسه حفرة، وحمل عليهم القوم فثبتا حتى قُتلا.

وكانت على ثابت يومئذ دِرع له نفيسة، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها، فبينا رجل من المسلمين نائم، إذ أتاه ثابت بن قيس رضي الله عنه في منامه فقال له: إني أُوصيك بوصية إيَّاك أن تقول هذه حُلم فتضيِّعه: إني لما قُتلت أمس، مرَّ بي رجل من المسلمين فأخذ درعي، ومنزله في أقصى العسكر، وعند خبائه فرس يستنُّ في طوْله، وقد كفأ على الدرع بُرْمةً ـ أي: قِدراً ـ وجعل فوق البرمة رَحْلاً، فأتِ خالد بن الوليد ـ قائد الجيش ـ فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أبي بكر ـ فأخبره أَنَّ عليّ من الدَّين كذا وكذا،

ولي من الدَّين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق وفلان؛ فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه.

ـ يعني: أن هذا منام ورؤياه حقٌّ فلا تضيعه ـ.

فأتى الرجل خالد بن الوليد رضي الله عنه فأخبره بما رأى، فبعث خالد رضي الله عنه إلى الدرع فنظر إلى خِباءٍ في أقصى العسكر، فإذا عنده فرس يَسْتَنُّ في طوله، فنظر إلى الخباء فإذا ليس فيه أحد، فدخلوا فرفعوا الرَّحْل فإذا تحته برمة، ثم رفعوا البُرمة فإذا الدرع تحتها، فأتوا به خالد بن الوليد رضي الله عنه.

فلما قدموا المدينة، حدَّث الرجل الرائي أبا بكر رضي الله عنه برؤياه فأجاز وصيته ـ أي: وصية ثابت رضي الله عنه ـ بعد موته.

ولا يُعلم أحد من المسلمين جُوِّزت وصيَّته بعد موته غير ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه. اهـ كما في: (الدر المنثور) وغيره.

وفي هذا دليل على أَنَّ أهل البرزخ قد يَتقصَّد بعضهم الاجتماع بأهل الدنيا عن طريق الرؤيا، كما أنه يدل أيضاً على مشاهدة الشهداء ما يجري من أمور الدنيا، كما يُشاهد أيضاً أمور الآخرة، ولكن كل شهيد له من الشهود على حسب مقام شهادته، وإنَّ مَقام النبوة هو أرفع وأعظم، وأسمى وأعلى من مقام الشهادة، فللأنبياء من المشاهدات والاطلاعات على العوالم ـ في جميع العوالم ـ ما لا يكون لغيرهم صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم أجمعين.

* * *

بعث الخلائق والأدلّة عليه

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

إن من أصول الاعتقادات الإيمانية: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى يبعث الخلائق بعد موتها، فيجمع أجزاءها بعد تفرُّقها، ويعيد إليها أرواحها بعد مفارقتها، ويعيدها كما بدأها.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

فهو سبحانه يُعيد هذا الخلق بجواهره؛ بل وأعراضه على المعتمد كما بدأه أول مرة، وليس في هذا شيء من المُحالات العقلية، ولا المناقضات الفكرية.

وذلك أَنَّ العاقل إذا أتبع نظراته العابرة في العالَم الإنساني، وتكويناته الخلقية، وتطوراته وتقلباته في تلك الأدوار، وتغيُّراته في تلك الأطوار، وهكذا أجال نظره في عالم النبات، وانفلاق تلك النواة الدفينة في بطن الأرض بقدرة الباري تعالى عن شجرتها وفروعها، وأغصانها وثمراتها، ثُمَّ جعل يتنقل في عجائب الأرض، وعظمة السموات وما فيها من المبدَعات، فإنه حينئذ تتجلّى له

حقائق قدرة الباري تعالى، ويُشاهد آيات إبداعه وخلقه، ويعلم يقيناً أَنَّ مَن قدر على بدء الخلق لهو قادر على إعادتهم بلا ريب.

ولقد جاء القرآن العظيم بطُرُقٍ واضحة، تثبت أمر المعاد الجسماني والروحاني؛ ألا وهي: طريقة البرهان، وطريقة العيان، وليس بعد البرهان والعيان من دليل وتِبْيَان، وتلك الحجج القرآنية هي المحجَّة البيضاء التي لا تعشو فيها الأبصار، ولا تختبط فيها العقول والأفكار، ونحن نأتي بجانب منها إن شاء الله تعالى فنقول:

الطريقة الأولى: النظر في الآيات الآفاقية والنفسيّة:

قال الله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

إذا أمعن القارىء في هذه الآيات الكريمة، وتدبَّر ما فيها: يتضح له وجه المناسبات الحكيمة، وأنها كلّها براهين قطعية، وأدلة عيانية شاهدة على أن الإعادة حقٌّ، وأن الله على كل شيء قدير، وأنه لا يُعجزه شيء، وذلك أَنَّ للإعادة أشباهاً ونظائر يتقلّبون فيها،

ويشاهدونها بأعينهم؛ فعلام يعجب الجاحدون وينكر المنكرون؟!!

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

استبعدوا الرجعة بعد الموت؛ وتفرّق الأجزاء وبلاها؛ فجاءهم الجواب: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾.

وذلك أَنَّ ما تأكله الأرض من أجزائهم؛ هو معلوم عند الله تعالى لا يغيب مهما تباعد وتفرَّق، فهو سبحانه يعلم كلَّ جزء عمَّن انفصل، وبمن كان اتصل، وإنَّ تلك الأجزاء كلها محفوظة في كتاب جمعها كلَّها، فهي وإنْ غابت عن أبصار أهل الدنيا لكنها محفوظة في ذلك الكتاب الذي عنده سبحانه: بذواتها وذراتها.

فإن استبعدوا ذلك بالنسبة للقدرة؛ فهذه السموات والأرض أكبر خلقاً منهم وأشدّ.

فإن كانوا يرون أَنّ الإعادة ليست أكبر من البدء؛ فالذي قدر على البدءِ يقدر على الإعادة.

وإن كانوا يرون أن الإعادة أكبر من البدء وأعظم؛ فلقد خلق الله سبحانه ما هو أكبر منهم وأشد خلقاً منهم؛ وهي السموات والأرض المشهودة لديهم بأعينهم، وإلى هذا يرشد سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: وهي الجبال التي نصبها سبحانه، وأودع فيها ما أودع من خزائن ومعادن وخصائص ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً﴾ ـ للمستبصرين ـ ﴿وذكرى﴾ للمتذكرين ـ وما يتبصَّر ويتذكر إلا كل عبد منيب، ولذا قال سبحانه: ﴿وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

ثم بيَّن الله تعالى في سياق الحجة على مُنكري الإعادة بعد

الموت فقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

وهكذا الدليل يثبت قدرة الله تعالى، ويثبت عظمة القدرة الإلّهية وسعتها، وهذا الدليل يقرِّب أمر الإعادة، ويبين أنّ لها نظائر وأشباهاً مشهودة أمامهم.

وذلك أنَّه سبحانه أنبت في هذه الأرض؛ من حبة أو نواة دفينة في بطنها أصنافاً من زروع وأشجار وثمار، على مختلف ألوانها وطعمها، وتنوُّع منافعها، وذلك دليل باهر يُبصر به أرباب البصائر، ويَستدل به أولو العقول على إثبات البَعث، وكيفية الإعادة لهذا الجسم، الذي تحتفظ الأرض بأجزائه مهما تفرّقت، وتبددت وتباعدت، ومن تلك الأجزاء الدفينة يُنشيء الله تعالى النشأة الآخرة ولذا قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ـ أي: مثل هذه الإخراج المشهود المعايَن أمامكم من الأرض: الفواكه والثمار والأقوات والحبوب ـ فيخرجكم من الأرض بعد ما غُيِّبتُمْ فيها، ودفنتم في أنحائها وبطونها.

ثم إنه سبحانه بَيّن في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ الآيات، أن إنكار المعاد، وتكذيب الرسل؛ هو عادة كل جبار عنيد، يكذِّب بالحق بعد ما تبيَّن، ويُنكر الواقع بعدما اتضح، فلا فائدة في الجدل معه، فإنه لا يَستخرج منه العناد إلا سَطوة ربِّ العباد، وأخذه بالعذاب والعقاب ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

ثم بَيّن سبحانه دليلاً نفسياً على إثبات الإعادة لهذا الخلق؛ بأنه

سبحانه لمَّا بدأ هذا الخلق لم يَعْيَ، ولم يمسسه لُغُوب ولا تعب؛ فيعجز عن إعادته ثانياً.

فإن كانوا قد عَموا وصَمُّوا عن الأدلة السابقة كلها: السماوية والأرضية، فليتفكروا في أنفسهم، وليتعقَّلوا في نشأتهم الحاضرة التي هم فيها، فإنَّهم الآن يتقلَّبون في خلق جديد يتجدد عليهم، غير أنهم قد التبس الأمر عليهم، فظنوا أنّهم هم في كل حال، وأنهم لا يعتريهم تبديل ولا تحويل، ولا تخليق جديد، ولكن الأمر ليس بذلك، بل إنهم في كل لحظة؛ بل في أقل من أجزاء اللحظة تفنى منهم أجزاء خَلْقية، وجواهر فردية، ويخلقُ الله تعالى غيرها، ويُجدِّد عليهم وجودَها ـ وهكذا وهكذا.

وهذا الأمر لا يُخالف فيه إلا جاهل مكابر، فإن الإنسان خَلَقه الله تعالى أولاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم جَنيناً، ثم طفلاً، ثم صبياً، ثم مُراهقاً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هَرِماً فانياً، ومن المقطوع البديهيِّ أنه لم ينتقل من طَوْر إلى طور دفعة واحدة، بل مرَّت عليه لحظات وساعات فنيت منه أجزاء وتجدّدت فيه أجزاء أخرى، شيئاً فشيئاً تدريجياً، حتى انتقل إلى الطور الثاني وهكذا دواليك، ولكن لم يتبين له ذلك حتى مضت مدة طويلة، فبان له الأمر، وظهر فيه التطوير والتبديل، والتجديد والتحويل.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ

ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي: فلا فرق بين تلك الأطوار التي يُقلبكم فيها بالنسبة لقدرته سبحانه، ولا يُعجزه شيء في ذلك، بل إنَّ جميع ذلك يَسِيْر عليه، وهو على جميع ذلك وغير ذلك قدير.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

روى ابن أبي حاتم وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَن العاص بن وائل الجاهلي، أخذ عظماً من البطحاء ففتَّه بيده، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أَيُحْيِي الله هذه بعد ما أرى؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نعمْ، يُميتك الله ثم يحييك، ثم يُدخلك جهنم» فنزلت هذه الآيات ردّاً عليه وعلى أمثاله.

وروي أَنَّ القائل ذلك هو أُبَيُّ بن خلف ـ فجاء الجواب القرآني على هذه الشبهة الفاسدة بوجوه:

١ ـ إنَّ هذا الضالَّ استبعد الإعادة والحياة في عظامٍ رفاتٍ، وتَرَكَ نفسه من الاعتبار، فإن الله تعالى الذي خلق الإنسان، ونقله من العدم إلى الوجود لهو قادر على الإعادة، فما لهذا الضليل نَسِيَ خلْقه بعد العدم، فراح يُنكر حياته بعد الموت؟!!

٢ ـ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ﴾ فإن إيجاد المبادىء أصعب في مُطَّرد العادة والعرف؛ من ردِّ شيء كان إلى ما كان عليه من ذي قبل ـ يعني أن القادر على البداية هو القادر من باب أولى على الإعادة.

٣ ـ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ فإنَّ جميع أجزاء الإنسان مهما تفرَّقت وتباعدت، فإنها معلومة عند الله تعالى، محفوظة عنده، لا يضلّ ربي ولا ينسى، ولا يلتبس عليه شيء.

٤ ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

وفي هذا دليل على أَنَّ هناك قوة تتغلب على المتنافِرَيْن المتناقضَين: وهما الأخضر الحيُّ والنار اليابسة، ألا وهي قدرة الله تعالى، الذي يَستخرج الشيء من ضِدِّه بل ومن نقيضه.

٥ ـ إنَّ الذي أبرز النار التي كانت كامنة في الشجر والحجر، فأظهرها بالقدْح، وأشعلها بالنفخ، لهو قادر على أن يُبرز الميت الدفين في التراب الكامن في الخبايا الأرضية، بسبب أنه سبحانه يأمر إسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور، والنقر في الناقور.

الطريقة الثانية من الحجج التي أقامها الله تعالى على عباده، وأثبت لهم فيها قدرته على إعادة الخلق بعد موتهم هي: طريقة الشهود والعيان:

وهي أن الله تعالى أجرى في ذلك أموراً فعلية، حيث أمات فيها طوائف من الإنسان، ومن الحيوان، ومن الطيور، ثم أحياهم بعد موتهم، على مشهد ومرآى من الناس، ليعلموا أَنَّ الذي أعاد ذلك

بعد الموت لهو قادر على أن يُعيد الأموات كلَّهم بعد موتهم، وقد أخبر القرآن عن تلك الوقائع، وبيَّن أنها أمور معلومة، ومشهودة لدى الأمم الماضية.

فَمِنْ ذلك القوم الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: ذكر غير واحد من السلف: أن هؤلاء القوم أهل بلدة من زمان بني إسرائيل، استوخموا أرضهم، وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فِراراً من الموت، هاربين إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح ـ واسعاً ـ فملؤا ما بين عَدوتيه، فأرسل الله إليهم مَلكين أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم، ثم إنهم تفرّقت أجزاؤهم، وتمزّقت.

فلما كان بعد دهر مرَّ بهم نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل يقال له حزقيل، فسأل الله تعالى أن يُحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي: فيما يُريهم من الآيات الباهرة، والحجج القاطعة، والدلالات الدامغة، التي تُثبت أن الله تعالى قادر على إعادة الأموات بلا ريب.

ومن ذلك أيضاً السبعون الذين اختارهم موسى عليه الصلاة والسلام للميقات الذي وعده الله تعالى أن يكلمه فيه، ويُنزل عليه التوراة ـ أماتهم الله تعالى ثم أحياهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: بأن الله تعالى أعطاك التوراة، أو أن الله تعالى قد كلَّمك ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: نار من السماء أحرقتهم، أو صيحة سماوية خرّوا لها صَعِقين ميتين يوماً وليلة ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وكان بعثهم بعد موتهم بسبب دعاء موسى عليه الصلاة والسلام، ومناشدته ربه.

ولا يتنافى موت هؤلاء الذين تقدم ذكرهم في الدنيا مرَّتين مع قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ لأن موتهم إذ ذاك لم يكن عن استيفاء آجالهم؛ وإنما هو موت عقوبة، فكأنه ليس بموت ـ أي: أنه عارض، أعقبه حياة في الدنيا نفسها لا في عالم آخر، فلا يختلف مع الآية الثانية.

ومِنْ ذلك أيضاً قصة العُزير عليه السلام، أماته الله تعالى مائة عام ثم بعثه:

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال جمهور السلف رضي الله عنهم: إنَّ هذا الذي مرَّ على قرية هو العُزَير أحد أنبياء بني إسرائيل، مرّ على بلد بيت المقدس بعدما دخلها بُخْتَنَصَّر وخرَّبها، فرآها العُزير وهي خاوية على عروشها ـ

أي: ساقطة على سقوفها، باعتبار أَنَّ سقوف البيوت تسقط أَوَّلاً، ثم تتهدم الجدران وتتساقط عليها ـ أي: على السقوف ـ ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

قال ذلك: استعظاماً للأمر، وتفخيماً وتعجُّباً من عظمة قدرة الله تعالى القدير على كل شيء؛ لا من باب الاستبعاد والإنكار، وذلك نظير قول زكريا عليه الصلاة والسلام، فيما أخبر الله تعالى عنه لما بُشِّر بالغلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ يعني: أن ذلك الأمر عظيم، جدير بأن يُتعجب من عَظَمته وفخامته.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أحياهُ بعد موته ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ وهذا السؤال ورد لإظهار عجز العُزير وغيره عن الإحاطة بشؤون الله تعالى وعظيم قدرته.

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وإنما قال ذلك لأنه مات ضُحى النهار، وبُعِث بعد المائة قَبْل الغروب، فقال قبل أن ينظر إلى الشمس: ﴿يَوْمًا﴾ ثم التفت فرأى أَنَّ الشمس لم تغرب، بل آثار أنوارها على الأماكن العالية فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ على طريق الإضراب.

﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغيَّر في هذه المُدَد الطويلة، والسنين العديدة، وكان طعامه على ما رُوي عنباً وتيناً، وشرابه عصيراً أو لبناً، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف نَخِرت عظامه، وتفرَّقت أوصاله.

وهكذا أمره الله تعالى أن ينظر أَوَّلاً إلى طعامه وشرابه حيث إنَّه

لم يتغير، حتى يُبيِّن له أن الذي حفظ له طعامه وشرابه من التغيُّر والفساد على طول السنين المائة؛ هو الذي حفظ العُزير من التغيُّر، ومن أن تأكله الأرض، وتفسده على السنين العديدة، بل أبقى له جسمه بعد موته، وحفظه من البلى، لأَنَّ الله تعالى حَرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

وأمره الله تعالى أَن يَنْظُر ثانياً إلى حماره وقد بلي، وتفرّق وتمزق؛ ليزداد يقيناً بأنه مرَّ عليه مائة سنة.

ثم قال تعالى له: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: عبرة ودليلاً على قدرة الله تعالى على إحياء الأموات وبعثها، وأنه سبحانه قادر أَنْ يحفظ أجساد مَن أراد حِفظهم، وأنه سبحانه قدير على كل شيء، ولا يُعجزه شيء.

ثم قال له: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ أي: عظام الحمار البالي المتفرِّقة أوصاله وعظامه ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي: كيف نرفعها من الأرض، ونركِّبها فوق بعضها، ونعيدُها كما كانت قبل الموت والتمزق ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ أي: نستر العظام باللحم، كما نستر الجسد باللباس.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ اتضح له اتضاحاً تاماً، وعاين كيفية الإحياء ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وذلك علم رؤية وعيان، فوق ما أنا عليه من اليقين والإيمان.

ومن ذلك قصة إحياء الطيور على يد الخليل سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم بعد قصة العُزير عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

اختلفت الأخبار المنقولة عن علماء السلف رضي الله عنهم في سبب سؤال الخليل ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ ربَّه أن يريه كيفية إحياء الموتى:

فجاء عن الحسن البصري والضحاك وقتادة وغيرهم: أن الخليل عليه الصلاة والسلام سأل ربه ذلك لينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والطبراني، والحاكم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله تعالى أخبر موسى بما صَنع قومُه في العجل؛ فلم يُلقِ الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت».

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما والسدي وسعيد بن جبير: أَنَّ الملك بشَّر الخليل عليه الصلاة والسلام بأن الله تعالى قد اتخذه خليلاً، وأنه يُجيب دعوته، وأنه يُحيي الموتى بدعائه ـ فلذلك سأل الله ما سأل.

وَرُوِيَ عن محمد بن إسحاق: أَنَّ سبب سؤال الخليل ذلك، هو منازعة النمرود إياه في إحياء الموتى، حين قال له الخليل: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وردَّ على النمرود زعمه أن العفو عن المجرم

هو إحياء له، وأن تنفيذ القتل فيه إماتة له، وراح النُّمرود يتوعَّد الخليل عليه السلام بالقتل إن لم يُحيِ الله الموتى على يد الخليل، بحيث يُشاهد النمرود ذلك؛ فدعا سيدنا الخليل ربه حينئذ فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي: ألم تعلم وتؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألني عنه؟

أولم تُؤمن بأني قد اتخذتك خليلاً، أَوَلَم تُؤمن بأن الجبار النمرود لا يستطيع أن يقْتلك ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ أي: أنا مؤمن بذلك إيماناً لا شك فيه، ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بانضمام رؤية العيان إلى الإيمان والإيقان بأنك القادر على ذلك، وليطمئن قلبي بالخلَّة التي تفضَّلتَ بها عليَّ، وأكرمتني بها وبلوازمها: من إجابة الدعاء وما وراء ذلك، أو ليطمئن قلبي بأن الجبار لا يقتلني بعد ما يُشاهد كيفية إحيائك للموتى على يديَّ.

وعلى كلٍّ فسؤال الخليل لم يكن عن شَكٍّ أصلاً بدليل قوله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾ أي: أنا مؤمن ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

وقد قطع النبي صلى الله عليه وآله وسلم دابر الوهم الذي يتلاعب في بعض الخواطر، فيخيِّل إليها أَنَّ الخليل عليه السلام قد اعتراه بعض الشك، فلذلك سأل ما سأل، فإن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم قطع دابر الوهم الباطل بقوله على سبيل التواضع والتبرئة كل البراءة، فقال كما في: (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «نحن أحق بالشك من إبراهيم عليه السلام إذ قال: ربِّ أرني كيف تحيي الموتى» ويعني بذلك صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّا لم نشكّ أصلاً، فلم يَشك إبراهيم الخليل أصلاً، فكأنه صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن شَكَّ إبراهيم فنحن أحقّ بالشك، ولكننا نحن

لم نشكّ فإبراهيم لم يشكّ؛ صلوات الله تعالى على حبيبه وخليله وآلهما أجمعين.

قال سبحانه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: مختلفة الأنواع.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها: الغُرْنُوْق، والطاووس، والديك، والحمامة ـ وروي غير ذلك، وعلى كل فإنَّ المقصود أربعة من الطير متنوعة.

وإنما خصَّ الطير بذلك لسهولة ما يُفعل بها من التجزئة والتوزيع، والتفرقة على الجبال، ولما فيها من مَزيد قابليَّة تفرق أجزائها من الريش ونحوه، ففي جمعها وإعادتها وإحيائها مَزيد ظهور لقدرته سبحانه.

﴿فَصُرْهُنَّ﴾ أي: قطِّعْهُنَّ أجزاءً، واضْمُمْهُنَّ ﴿إِلَيْكَ﴾ واجْمَعْهُنَّ ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾.

وبهذا أمر الله تعالى الخليل عليه السلام، أن يذبح تلك الطيور، ويقطعها إرَباً إرباً، ويجزئها ما استطاع من التجزئة، ويخلطها إلى بعضها، ثم يجعل على كل جبل منهنَّ جزءاً.

واخْتُلف في عدة الجبال التي فرَّقها عليها، فروي أنها أربعة، وروي سبعة، وروي أنها عشرة.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: ساعياتٍ مُسرعاتٍ في العَدْوِ والعودة إليك.

والحكمة في سعي الطيور إليه مَشْياً دون الطيران إليه هي: أنها لو طارت لتوهم مُتوهِّم أنها غير تلك الطيور الميتة التي ذبحها وفرقها، أو أن أرجلها أو بعضها غير سليمة، ولهذا قال سبحانه:

﴿ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ غالب لا يُعجزه شيء، حكيم يضع الأشياء في مواضعها.

وفي هذا دلالة على أَنَّ هذا الأمر كان على مَشهد من الناس، وعلى مرأى من النمرود وملائه، ليكون حجة للخليل عليه السلام قائمة على النمرود وأتباعه، ولذلك جاءت هذه القصة بعد ما ذكر الله تعالى المُحاجَّة التي جرت بين الخليل والنمرود.

قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ الآية.

فهذه وقائع ثابتة، أجراها الله تعالى وأوقعها، ليقيم الحجة على العباد، وليبين لهم أنه قادر على إحياء الموتى سبحانه، وإعادتهم إلى حياة جديدة في عالمٍ آخر يوم القيامة أي: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

* * *

شبـه المنكريـن للإعـادة وبطـلانها

لقد أزال الله تعالى شبه المنكرين للإعادة وأبطلها كلَّها، وذلك أَنَّ شبه المنكرين للإعادة ترجع إلى ثلاثة أنواع:

الأول: اختلاط أجزاء الأموات بأجزاء الأرض؛ واختلاطها بأجزاء أخرى ـ فكيف يحصل التمييز بينهما؟

الثاني: أَنَّ القدرة لا تتعلق بذلك في زعم المنكرين، وأن ذلك غير ممكن في زعمهم.

الثالث: زعْم المنكرين أَنَّ الإعادة لا فائدة منها، وأَنَّ الحكمة تقتضي دوام هذا النوع الإنساني جِيلاً بعد جيل، هكذا أبداً على وجه البقاء.

فجاءت براهين القرآن المثبتة للمعاد، مَبنيَّة على ثلاثة أصول، بها أزاح الله تعالى شبهات المنكرين ومزاعمهم الباطلة:

أولاً: تقرير القرآن الكريم سَعَة عِلم ربِّ العالمين، وإحاطته بكل شيء، وأنه لا يَخفىٰ عليه شيء، ولا يلتبس عليه شيء:

فقال سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي: فلا يلتبس علينا شيء، ولا يغيب عنا جُزء، بل نحن بكل جزء عالمون، وله حافظون، في عالم عندنا، فتلك الأجزاء وإن غابت عن أبصارهم؛ فهي لا تغيب عنا، بل هي محفوظة لدينا.

ثانياً: تقرير القرآن الكريم كمال قدرة ربِّ العالمين، وأنه لا يُعجزه شيء:

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: فالذي خلق ما هو أكبر من الإنسان وأشد وهو السماوات والأرض، هو قادر على إعادة هذا الإنسان، لأن إعادته ليست أكبر من بدايته، ولئن فُرِضَ أنها أعظم من البدء، فلقد خلق ما هو أعظم وأكبر من الإنسان، وهو السماوات والأرض المشهودة بالعيان.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ثم إنه أرانا أُموراً واقعية مشهودة في الإنسان والحيوان والطيور، أماتها وفرَّق أجزاءها، ثم أعادها وأحياها، فذكر لنا قصة الذين أماتهم وهم ألوف ثم أحياهم، وقصة السبعين كما تقدم، وقصة العُزَير عليه السلام ونحوها كما تقدم، ليكون ذلك حجة مشهودة دالَّة على قدرته سبحانه على إحياء الموتى.

ثالثاً: تقرير القرآن الكريم كَمال حِكمة ربِّ العالمين، وأَنَّ مِن مقتضى حكمته أن يُعيد الخلق، ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ و﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ وليأخذ الحقَّ من الظالم للمظلوم، ومِنَ الباغي لمن بُغيَ عليه، وهذا مقتضى العدل والحكمة بلا ريب، فهو سبحانه لم يَخلق العالم عبثاً، بل خلق العالم بالحقِّ، ولا بدّ أن ينتهي أمر العالم للحقِّ.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

يعني: أَنَّ الحُكْم بالتساوي بين المتناقضين هو حكم سيِّىء، مردود عند أهل الحكمة المخلوقة الجزئية؛ فكيف عند حكمة الخالق التي لا تتناهى؟

فكما أنّه لا يتساوى ظلام الليل مع ضياء النهار، ولا يتساوى الأعمى والبصير، ولا الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فلا يتساوى المسيؤون مع المحسنين، ولا الطالح مع الصالح، بل لا بدَّ من التمييز بينهما في عالَم آخر، تظهر فيه النتائج، وتبرز فيه الدقائق، وتُحقّ فيه الحقائق ـ وهو يوم الحاقَّة وما أدراك ما الحاقة؟

قال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.

* * *

كيفية البعث

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

والبحث في ذلك له عدَّة أطراف:

أولاً: اختلف العلماء في عَدَد النفخات في الصُّور؟

فذهب كثير من العلماء إلى أن النفخات ثلاثة: نفخة فَزَع وهي السابقة على غيرها، ونفخة صعْق أي: إماتة، ونفخة إحياء.

فعند نفخة الفَزَع يفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، ثم يُنفخ نفخة الصعق ـ أي: الإماتة ـ فصعِق من في السموات والأرض إلا من شاء الله، ثم بعد ذلك بمدة طويلة يُنفخ نفخة الإحياء فإذا هم قيام إلى ربهم ينظرون.

وذهب قسم من العلماء إلى أن هناك نفختين: نفخة إماتة ونفخة إحياء.

ثانياً: أما الذين استثناهم الله تعالى من الفزع والصعق حين يُنفخ في الصُّور؛ فقد اختُلف فيهم:

فقيل: هم جبريل، وإسرافيل، وميكائيل، وملك الموت على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

وقيل: هم الأنبياء ـ وإلى ذلك جنح البيهقي كما في: (الفتح).

وقيل: هم الشهداء ـ أي: ومن باب أولى وأجدر استثناء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقيل: هم الحور العين، وخزنة الجنة، وخزنة النار ـ وعلى كلٍّ من الأقوال فالواجب اعتقاد أَنَّ هناك مَن استثناهم الله تعالى، وإنِّي لا أُريد الآن أن أطيل البحث في تحقيق ذلك؛ لأنه يحتاج إلى بسط وبيان، فربما نأتي عليه في غير هذا الموضع إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: وأما المدة فيما بين النفختين: الإماتة والإحياء، وكيفية إحياء الموتى:

فقد جاء في الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما بين النفختين أربعون».

قالوا لأبي هريرة رضي الله عنه: أربعون يوماً؟

قال: أَبَـيْـتُ ـ أي: لا أجزم بذلك ـ.

قالوا: أربعين شهراً؟

قال: أبيت ـ أي: لا أجزم بأنها أربعون شهراً ـ.

قالوا: أربعين سنة؟

قال: أبيت ـ.

«ثم يُنزِل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وليس شيء من الإنسان إلا يَبْلى؛ إلاَّ عظماً واحداً وهو عَجْب الذَّنَب، ومنه يُركَّب الخلق يوم القيامة».

ففي هذه الرواية لم يجزم أبو هريرة رضي الله عنه بتعيين الأربعين ما هي؟ ولكن جاء في رواية لأبي داود أنها أربعون سنة.

وفي رواية لمسلم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً، منه يُركَّب الخلْق يوم القيامة».

قالوا: أيُّ عظم هو يا رسول الله؟

قال: «عجب الذَّنَب».

وفي رواية مالك، وأبي داود والنسائي: «كلّ ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب، منه خُلِق ومنه يُركَّب».

وعجب الذنب هو كما قال الإمام النووي: بفتح العين وسكون الجيم: العظم اللطيف الذي هو في أسفل الصُّلب، وهو رأس العصعص، ويقال له عجم بالميم، وهو أول ما يُخلق من الأرض في ابن آدم، وهو الذي يَبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه ـ كما أوضحه النووي رضي الله عنه.

وفي هذا الحديث الشريف بيانٌ لكيفية إعادة الله تعالى الخلائق بعد موتها، وبعثها من قبورها، وذلك أن الله تعالى يُنزل من السماء ماءً على ذلك الجزء الباقي من ابن آدم وهو عجب الذنب، ويجمع الله تعالى ما تَفَرَّق من تراب ذلك الجسم، وتربوا أجسامهم حتى تصير مستعدة لتلبُّس الروح فيها، ثم إن الله تعالى يأمر الملَك فينفخ في الصور نفخة الإحياء؛ فهناك تتطاير كلّ روح إلى جسمها الذي

كانت تعمره ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

فالبعث عبارة عن إخراج ذلك الدَّفين في خبايا الأرض، وبثِّ الروح فيه، ومن هنا ترى أن الله تعالى يُشبِّه أمر البعث والإعادة بإنباته الزروع والأشجار، وإحيائه الأرض بالمطر بعد موتها.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾.

فهو سبحانه كما يُنشىء تلك الشجرة العظيمة، والزروع الخصيبة بإنزال المطر على تلك النواة والحبة الدفينة في بطن الأرض، كذلك يخرج الله تعالى هذه الأجسام البشرية من تلك الذراري والأجزاء الدفينة في بطن الأرض، بإنزال ماءٍ عليها، ثم بثِّ الروح فيها ـ بسبب نفخة الصُّور.

وهذا الماء الذي يُحيي به الله تعالى الأجسام البشرية بعد موتها، هو ماء الحياة المشتمل على جميع العناصر الوجودية الأربعة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فكانت السموات والأرض رَتقاً ـ أي: جملة مجملة في الماء، ففتقها سبحانه ـ أي: فصّل وجودهما: أولاً: إلى مرحلة تبخير الماء وتكثيفه، فمن بخار الماء اللطيف خلق السموات، ومن كثيف الماء خلق الأرض والأجرام، ثم فصَّلهما إلى سبع سموات، وسبع أرضين، ثم أمطر السماء، وأنبت الأرض.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي: الماء الذي كانت السموات والأرض رتقاً فيه، جعلنا من ذلك الماء كل شيء حي ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومما يدل على ذلك، ويبين المقصود من ذلك الماء الوارد في الآية الكريمة، الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قلتُ يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرّت عيني، فأخبرني عن كل شيء.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا هريرة كلّ شيء خُلِقَ مِنْ ماء».

وهذا الحديث بيانٌ للآية الكريمة.

ومن ذلك الماء أيضاً، ما جاء في: (الصحيحين) من حديث الشفاعة ـ أن العصاة حين يخرجون من جهنم، يُلْقون في نهر الحياة، فينبتون نبات الحِبَّة في حَمِيل السيل ـ الحديث.

رابعاً: البحث في الصُّور والنافخ فيه بأمر الله تعالى.

أما الصور فهو كما قال الجمهور من العلماء العارفين: هو عالَم عظيم من عوالم الله تعالى، تجتمع فيه الأرواح بعد مفارقتها

للأجسام، وتختلف في منازلها على حسب اختلاف مراتبها ودرجاتها، وقد ورد أن شكل عالم الصور يشبه القرن في ضيق أعلاه وسعة أسفله، فهو ليس كروي الشكل كالأرض ونحوها بل قَرْني الشكل.

قال الإمام الترمذي في: (سننه): باب ما جاء في شأن الصور: ثم أسند إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما الصُّوْر يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قرن يُنفخ فيه»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أَنْعَمُ وقد التقم صاحِبُ القرنِ القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يُؤمر فَيَنْفُخ».

فكأنَّ ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: كيف نفعل، أو كيف نقول؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»[2].

وأما صاحب القرن ـ أي: الصور الذي يُنفخ فيه ـ فهو إسرافيل عليه السلام، كما جاء مصرَّحاً به في جملة من الأحاديث.

---

(١) قال في: (الترغيب): رواه أبو داود والترمذي، وابن حبان في: (صحيحه). اهـ.

(٢) قال في: (الترغيب): رواه الترمذي واللفظ له وقال حديث حسن، وابن حبان في: (صحيحه)، ورواه أحمد والطبراني من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً. اهـ.

قال في: (الفتح): اشتهر أن صاحب الصور هو إسرافيل عليه السلام، ونقل فيه الحليمي الإجماع، ووقع التصريح به من حديث وهب بن منبه، وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه عند البيهقي، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند ابن مَرْدُويه، وكذا في حديث الصور الطويل الذي أخرجه عَبْد بن حُميد، والطبري، وأبو يعلى في: (الكبير)، والطبراني في: (المطولات)، وعلي بن معبد في كتاب: (الطاعة والمعصية)، والبيهقي في: (البعث) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه إلخ. اهـ.

فبعد ما يُنبت الله تعالى هذه الأجسام، ويجعلها قابلة للروح، يأمر الملك أن ينفخ في الصور نفخة الإحياء فتتصل كلُّ روح بجسمها ولا تخطئه، فما أشبه الإعادة بالبداءة.

قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.
وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

* * *

عالَـم الحشر

الحشر في لغة العرب معناه: الجمع، والمراد بالحشر جمع الخلائق كلهم إلى الموقف بعد بَعثهم وإخراجهم من بطن الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فلم نترك منهم واحداً، وذلك أن الله تعالى يسيِّر فيه الجبال بعدما كانت ثابتة راسخة في أماكنها، وإذا بها طرأت عليها حالة أنها سُيِّرت فكانت سراباً، وهذه الحالة هي من جملة الأحوال التي ذكرها الله تعالى عن الجبال يوم القيامة.

قال العلامة الفخر الرازي رحمه الله تعالى: إنّ الله تعالى ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة ـ أي: يوم القيامة ـ ويمكن الجمع بينها بأن نقول:

أول أحوالها الاندكاك وهو قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: مُسحت الأرض وجبالها ودُقَّ بعضها ببعض.

والحالة الثانية: أنها تصير كالعهن المنفوش، وهو قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ أي: تصير بعد أن كانت صلبة تصير كالصُّوف المندوف.

والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء المنبثّ في الهواء، قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ أي: فتّتت حتى صارت

كالدقيق المبسوس - أي: المبلول.

والحالة الرابعة: أَنْ تنسفها الرياح عن وجه الأرض، فتُطَيِّرَها في الهواء، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾.

والحالة الخامسة: أَنْ تصير سَراباً - أي: لا شيء، كما يُرى السراب من بعيد، وهو قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

وهذا المنادي هو إسرافيل عليه السلام، فإنه يُنادي بالأموات عن أمرٍ من الله تعالى، من مكان قريب من ذاتهم وجميع ذراتهم قائلاً: «يا أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطِّعة، واللحوم المتمزِّقة، والشعور المتفرقة إن الله تعالى يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء».

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾- أي: القبور - ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ﴾ - أي: مسرعين - ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ وتلك النفخة الثانية التي يكون بها الإحياء ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ - أي: لا شريك لنا في ذلك - ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ مصير العالم، ورجوع الخلائق إلينا، لأجل الحساب والجزاء ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ والمعنى: أنهم

يخرجون من القبور مسرعين إلى المحشر.

وأول من تنشقُّ عنه الأرض هو السيِّد الأكرم والحبيب المعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي خُصَّ بالأوَّلِيَّات في جميع العوالم.

روى مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أوّل من ينشقُّ عنه القبر، وأنا أوّل شافعٍ وأول مشفَّعٍ».

وإنما ذكر سيادته صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة، مع أنه هو سيد ولد آدم في كل العوالم ـ ذلك لأنَّ يوم القيامة هو يوم مجموع له الناس، فتظهر فيه سيادته لكل امرىء عياناً بلا إنكار مُنْكِر، فلا يُنافي أَنَّ سيادته صلى الله عليه وآله وسلم ثابتة في الدنيا وفي جميع العوالم.

وأطلق في الوصف بذلك ـ أي: بسيادته صلى الله عليه وآله وسلم ولد آدم ـ لإفادة العموم لأولي العزم وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، وتخصيص ولد آدم ليس للاحتراز إذ هو صلى الله عليه وآله وسلم أفضل حتى من خواص الملائكة إجماعاً ـ كما أوضح ذلك المحققون العلماء.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذ آدم فمَنْ سواه إلا

تحت لوائي، وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر»[1].

أي: هو يقول ذلك صلى الله عليه وآله وسلم شُكراً لا فخراً، بل شُكراً لله تعالى، وتحدثاً بنعمته، وإعلاماً للأمة أنه مما يجب عليه تبليغه، ليعتقدوا فضله على من سواه صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول مَن تنشقّ عنه الأرض، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم آتي أهل البقيع فيُحشرون، ثم أنتظر أهل مكة حتى أُحشر بين الحرمين» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

صفـــة أرض المحشر

قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾.

والمعنى فإنما هي الرادفة التي هي النفخة الثانية، التي بها إحياء الأموات: ﴿ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ يُجمعون بها جميعاً، ولا يتخلّف منهم أحد ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أي: صاروا كلهم على وجه أرض المحشر، وإنما وصفها بالساهرة: لسعة أطرافها، وتباعد أكنافها، وشدة مخاوفها ومتالفها، فلذا كان شأن من حلَّ فيها أن يكون ساهراً لا ينام: لشدّة الفزع والخوف؛ إلا من آمنه ورحمه الله تعالى.

---

(١) قال الحافظ الزرقاني: رواه الترمذي وقال: حديث صحيح، وكذا رواه ابن ماجه، والإمام أحمد.

روى الشيخان، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يُحْشَر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء[1] كقرصة النَّقِيِّ[2] ليس فيها عَلَم لأحد».

وفي رواية: «ليس فيها مَعْلَم لأحد»[3].

أي: ليس فيها علامة لأحدٍ من أبنية مرتفعة، أو قصور ممتعة، أو تُلول أو جبال ممتنعة.

قال في: (الفتح): وفيه ـ أي: الحديث المتقدم ـ إشارة إلى أن أرض الدنيا اضمحلَّت وأُعدِمتْ، وأن أرض الموقف تجدَّدت.

قال: وقد وقع للسلف خلاف في المراد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ هل المراد بتبديلها تغيير ذاتها وصفاتها؟ أو تغيير صفاتها فقط؟

قال الحافظ: وحديث الباب يؤيِّد الأول.

وأخرج عبد الرزاق، وعَبدُ بن حُميد، والطبري في: تفاسيرهم،

---

(١) قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: العَفَر بياض يَضْرب إلى حمرة قليلاً، ومنه سمي: عفر الأرض وهو وجهها. اهـ.

(٢) قال في: (الفتح): «النقي» بفتح النون وكسر القاف أي: الدقيق النقيِّ من الغش والنخال قاله: الخطابي.

(٣) العَلَم والمعلم واحد، قال القاضي عياض: والمراد أنها ليس فيها علامة سكن، ولا بناء، ولا أثر، ولا شيء من العلامات التي يُهتدى بها في الطرقات: كالجبل، والصخرة البارزة، وفيه تعريض بأرض الدنيا، وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها.

والبيهقي في: (الشعب) عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية ـ قال: (تبدل الأرض أرضاً كأنها فِضَّة لم يُسفك فيها دم حرام، ولم يُعمل عليها خطيئة).

قال الحافظ: ورجاله رجال الصحيح، وهو موقوف.

ولأحمد من حديث أبي أيوب رضي الله عنه «أرض كالفضة البيضاء».

وذكر الحافظ عدة من الآثار في ذلك ثم قال: وأما مَن ذهب إلى أن التغيير إنما يقع في صفات الأرض دون ذاتها، فمستنده ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض مدّ الأديم، وحُشر الخلائق).

ومن حديث جابر رضي الله عنه رَفَعَهُ: «تُمدُّ الأرض مَدَّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه».

قال: ورجاله ثقات، إلا أنه اختلف على الزهري في صحابِيِّه.

وساق آثاراً تدل على هذا القول ثم قال: وهذا وإن كان ظاهره يُخالف القول الأول، فيمكن الجمع بأن ذلك كله يقع لأرض الدنيا، لكنَّ أرض الموقف غيرها. اهـ ملخصاً.

ونقل في: (تفسير) الآلوسي رحمه الله تعالى، عن بعض العلماء: أن الأرض تُبدَّل أَوَّلاً صفتها، ثم تُبدَّل ذاتها، وتَبَدُّلُ الذات يكون بعد أن تُحدِّث الأرض أخبارها.

قال: ولا مانع أن يكون هناك تبديلات على أنحاء شتى. اهـ.

وقد جاء في الحديث: أَنَّ الأرض حين تُبدَّل غير الأرض؛ يكون الناس على الصراط:

فقد روى مسلم، عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أنها سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾: أين يكون الناس حينئذٍ؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «على الصراط».

وفي رواية الترمذي قال: «على جسر جهنم».

ولأحمد من طريق ابن عباس رضي الله عنهما، عن السيدة عائشة رضي الله عنها قال صلى الله عليه وآله وسلم: «على متن جهنم».

وأخرج مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هم في الظلمة دون الجسر».

قال الحافظ: وقد جمع البيهقي ـ أي: بين ما تقدم ـ بأن المراد بالجسر الصراط، وأن في قوله: «على الصراط» مجازاً، لكونهم يجاوزونه، لأن في حديث ثوبان رضي الله عنه زيادة يتعيَّن المصير إليها لثبوتها، وكان ذلك عند الزجرة التي تقع عند نقلهم من أرض الدنيا إلى أرض الموقف ـ إلخ. اهـ.

وهكذا يَحشر الله تعالى الخلائق في أرض مستوية، لا ترى فيها عوجاً ـ أي: انخفاضاً ـ ولا أمتاً ـ أي: ارتفاعاً ـ بحيث إنَّ الناظر إليهم ينظرهم، والداعي لهم يسمعهم، وقد ازدحمت عليهم الشدائد والأهوال، وحلَّت فيهم الكُرُبات والهموم، فأحاطت بهم النار من شتى نواحيهم، ودنت الشمس منهم قدرَ ميل، وساورتهم الهموم والغموم ـ ومهما كانت كربات الدنيا عظيمة، وشدائدها أليمة؛ فإن كربات الآخرة أعظم، وشدائدها أدهى وأمرُّ، ومهما

كانت هموم الدنيا ثقيلة؛ فإنَّ همَّ الآخرة أثقل ـ إلا مَن أَمَّنَهُ الله وسلَّمه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى شدة كربات يوم القيامة، وأنها أعظم من كربات الدنيا حيث قال: «مَن نفَّس عن مؤمِنٍ كربةً من كرب الدنيا نَفَّس ـ أي: فرج ـ الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة» أي: وما كُربات الدنيا في جانب كُربات الآخرة إلا شيء يسير من كثير.

صفـــات أهل المحشر

روى الشيخان، عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يُحشَر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً».

قالت عائشة رضي الله عنها: قلتُ يا رسول الله: الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عائشة: الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

وعند النّسائي فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله: فكيف بالعورات؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه».

يعني: أَنَّ كل واحد منهم هُو مشغول بأحواله؛ أو بأهواله عن التطلع والنظر إلى غيره.

اللهم أجرْنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، بجاه حبيبك الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى الترمذي بتحسين وتصحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تُحشرون حُفاة عُراة غُرلاً».

فقالت امرأة: أيُبصر أو يَرى بعضنا عورة بعض؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا فلانة: لكلِّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه».

والغُرل جمع أغرل وهو: الأقلف ـ أي: غير مختون.

ولذا قال العلماء في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «غرلاً» إشارة إلى أَنّ الله تعالى يُعيد إلى الإنسان حين يَبعثه جميع الأجزاء والأعضاء الزائلة في الدنيا، المنفصلة عنه، وفيه تأكيد لإعادة أجزاء الإنسان كله، وذلك لأَنَّ القُلفة كانت واجبة الإزالة في الدنيا، فغيرها من الأشعار والأظفار والأسنان ونحوها المنفصلة أولى أَنْ تعاد.

وفي: (الصحيحين) واللفظ لمسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قامَ فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطيباً بموعظة فقال: «يا أيُّها الناس: إنكم تُحشرون إلى الله تعالى حُفاة عراة غُرلاً» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

«ألا إنَّ أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام.

ألا إنه سيجاء برجال من أُمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربِّ أصحابي.

فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾».

قال: «فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدِّين على أعقابهم منذ فارقتَهم».

قال العلماء: وإنما كان الخليل أَوَّل مَن يكسى يوم القيامة، لأنه أول من كَسَى الفقراء، وأول من عُرِّي في ذات الله تعالى حين أُلقي في النار، لا لأنه أفضل من سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بل الحقّ أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يُحشر كاسياً، فهو صلى الله عليه وآله وسلم يَخرج من قبره الشريف بثيابه التي دُفن فيها صلى الله عليه وآله وسلم، فتكون أَوَّلية الخليل في الكسوة بالنسبة للخلائق؛ لا بالنسبة له صلى الله عليه وآله وسلم.

ويشهد لذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أكرمه الله تعالى، وحفظه من أن يُجرَّد من ثيابه، حتى إنَّه لما قام الصحابة لغسله بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم، رأوا أن يُغسلوه وعليه ثيابه ـ وذلك تكرمة وحرمة له صلى الله عليه وآله وسلم.

كما جاء في: (سنن) أبي داود، و(مسند) أحمد، و(مستدرك) الحاكم، بأسانيد صحيحة، عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله

عنهم قال: سمعت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول: (لما أرادوا غَسْل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا: لا ندري أنجرِّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ثيابه كما نُجرِّد موتانا، أمْ نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله تبارك وتعالى عليهم النوم، حتى إنه ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلَّمهم مكلِّم من ناحية البيت ـ لا يدرون من هو ـ اغسلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثيابه.

فقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فغسلوه وعليه ثيابه، يصبُّون الماء فوق القميص، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم) ـ أي: ثم جيء بثلاثة أثواب بيض كما في حديث مسلم، عن السيدة عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كُفِّنَ في ثلاثة أثواب بيض).

كما أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو أول من يكسى من حُلَل الجنة.

فقد روى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا أول من تنشقّ عنه الأرض، فأكسى حلةً من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري» صلى الله عليه وآله وسلم.

أهوال موقف الحشر وكُرُباته الشديدة المديدة

قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ

ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهو يوم عظيم الهول والمخاوف، حتى إنَّ أهل الموقف من شدة الكرب الذي أحاط بهم؛ ليعرق أحدهم عرقاً يَغيب في رشحه إلى أنصاف أُذنيه.

روى الشيخان واللفظ للبخاري، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقوم الناس لربِّ العالمين، حتى يغيب أحدهم في رشحه ـ أي: عرقه ـ إلى أنصاف أُذنيه».

ورواه الإمام أحمد ولفظه: «يقوم الناس لربِّ العالمين، لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة، حتى إنَّ العرق ليلجم الرجال ـ أي: الأقوياء الأشد ـ إلى أنصاف آذانهم».

وروى مسلم، عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق؛ حتى تكون منهم كمقدار ميل» ـ قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل: أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين ـ؟

قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم مَن يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْويه[1]، ومنهم من يُلجمه العرق إلجاماً» وأشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده إلى فيه).

وروى ابن أبي حاتم بإسناده إلى أبي هريرة رضي الله عنه، أن

---

(١) تثنية حَقْو، وهو موضع شدِّ الإزار، وهو الخاصرة.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لبشير الغفاري رضي الله عنه: «كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين ـ من أيام الدنيا ـ لا يأتيهم خبر من السماء، ولا يؤمر فيهم بأمر»؟

قال بشير: المستعان الله.

قال له صلى الله عليه وآله وسلم: «فإذا أويتَ إلى فراشك فتعوَّذ بالله من كرب يوم القيامة، وسوء الحساب».

وجاء في: (سنن) الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في دعائه بعد فراغه من صلاة قيام الليل: «اللهم يا ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألكَ: الأمنَ يوم الوعيد، والجنةَ يوم الخلود، مع المقرَّبين الشهود، الركَّع السجود، الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وإنك تفعل ما تريد» الحديث بطوله.

وهذا تعليم لأمته صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألوا الله تعالى الأمن يوم الوعيد، لأنه يوم عظيم شديد، فإنه مَن خاف الله تعالى، وسلك الطريق الذي شرعه الله تعالى، وسأل الله تعالى الأمان يوم الوعيد: أَمَّنَهُ الله تعالى.

فقد روى ابن حبان في: (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يَروي عن ربِّه جلَّ وعلا أنه قال: «وعزّتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين: إذا خافني في الدنيا أَمَّنْتُه يوم القيامة، وإذا أمِنَنِي في الدنيا أخفتُه في الآخرة».

وقد أخبر الله تعالى أَنَّ المتقين تُزلَف لهم الجنة ـ أي: تقرب

إليهم في مواقف الآخرة، بحيث يَرونها قريبة منهم، ويكونون على مشهد منها؛ لكي يستبشروا، ويبتهجوا بأنهم المحشورون إليها، وبذلك تطمئن قلوب المتقين، وتذهب عنهم الهموم والغموم.

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

وقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أي: جعلت الجحيم بارزة للغاوين في موقف الحشر، بحيث يرونها مع ما فيها من شدَّة الأهوال، وفظاعة الأحوال، وبذلك يتحسَّرون على أنهم المساقون إليها.

وإنما قيل في الجنة: أُزلفت ـ أي: قربت ـ وفي النار بُرِّزت ـ أي: أظهرت ـ لأن النار قريبة من أرض المحشر، لأن الصراط منصوب على متن جهنم، فلا تحتاج إلى تقريب، بخلاف الجنة فإنها وراء الصراط، فإن مَن جاوز الصراط بقناطره كلها سالماً: انتهى إلى الجنة، فالوصول إلى جهنم أولاً ثم إلى الجنة آخراً، بواسطة العبور على الصراط الطويل سالماً، وهذا ظاهر في القرب والبعد كما بينه علماء التفسير.

هذا وإن قُرب جهنم لأرض المحشر إنّما هو بالنسبة لبعد الجنة إلى ما وراء الصراط، فلا يُنافي هذا بُعد جهنم عن أرض المحشر:

قال تعالى في الكفار: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ يعني: أن النار إذا اطَّلعت على أهلها وهم في المحشر، واطلع عليها أهلها، وتراءيا، سمعوا تغيظها وزفيرها، وشاهدوا فظائعها وأهوالها، وهناك تَمتدُّ منها امتدادات إلى الكفار في

الموقف، وتخرج منها أعناق هي كالمقدِّمات للعذاب الأكبر الذي سيصْلَونه عما قريب.

روى الإمامان: الترمذي وأحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَخرج عُنق من النار يوم القيامة: له عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق يقول: إني وُكِّلْتُ بثلاثة: بكلِّ جبار عنيد، وبكلّ من دعا مع الله إلَهاً آخر، وبالمصوِّرين».

وجاء في: (سنن) أبي داود والنسائي وابن ماجه، عن السيدة عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يفتتح قيام الليل، يكبِّر عشراً، ويحمد عشراً، ويُسَبِّح عشراً، ويستغفر عشراً، ويقول: «اللهم اغفر لي، واهدني، وارزقني، وعافني» ويتعوَّذ من ضيق المقام يوم القيامة).

والمقصود أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول ذلك حين يستيقظ لقيام الليل، وفي هذا تنبيه إلى شدة هول موقف يوم القيامة، ولذلك ينبغي أن يتعوَّذ الإنسان من كَرب ذلك اليوم وهَوْله: في أقرب أوقات الإجابة، ألا وهو جَوف الليل، حين يقوم متهجِّداً.

وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

والصاخة هي: صيحة يوم القيامة، التي صاح بها إسرافيل عليه السلام، ودعاهم بها عن أمر الله تعالى ـ كما تقدم.

وسُميت بذلك: لأنها تَصخُّ الأسماع ـ أي: تُبالغ في إسماعها،

حتى إنها تكاد تَصمُّ الآذان والأسماع، وهناك يفر المرء من أحبابه وأقربائه.

قال عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: (يَلقى الرجل يوم القيامة زوجته فيقول لها: يا هذه أيَّ بعْل ـ زوج ـ كنت لك؟

فتقول: نِعْمَ البعلُ كنتَ ـ وتُثني بخير ما استطاعتْ.

فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة، تَهَبينها لي، لَعلِّي أنجو مما تَريْن.

فتقول له: ما أيسرَ ما طلبتَ، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئاً؛ أتخوَّف مثل الذي تخاف.

قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلَّق به، فيقول: يا بُنيّ أيَّ والد كنتُ لك؟

فيثني بخيرٍ.

فيقول له: يا بنيّ إني احتجت إلى مثقال ذرَّة من حسناتك؛ لعلِّي أنجو بها مما ترى.

فيقول ولده: يا أبتِ ما أيسرَ ما طلبتَ، ولكن أتخوّف مثل الذي تتخوف منه فلا أستطيع أن أُعطيك شيئاً)[١].

* * *

(١) انظر: (تفسير) الحافظ ابن كثير، وغيره.

شدة الحر على أهل الموقف
إلاّ من أظله الله تعالى بظله

ثبت بالأحاديث النبوية، أَنَّ أهلِ الموقف يشتد عليهم الحرُّ، وتدنو الشمس منهم، وتُحيط بهم النيران، ويَسيل عرقهم في الأرض، ويبلغون من الهمِّ ما لا يطيقون ولا يحتملون، حتى يُفتح باب الشفاعة العظمى على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

ففي الطبراني بإسناد صحيح، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: (تعطى الشمس يوم القيامة حرَّ عشر سنين، ثم تُدنى من جماجم الناس) قال: فذكر الحديث ثم قال: (فيأتون النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فيقولون: يا نبي الله أنت الذي فتح الله لك) الحديث كما في: (ترغيب) المنذري.

وفي حديث الشفاعة الذي رواه الإمام أحمد، وابن حبان في: (صحيحه) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «عُرِض عليَّ ماهو كائن من أمر الدنيا والآخرة، فَجُمع الأولون والآخرون في صعيد واحد، حتى انطلقوا إلى آدم عليه السلام ـ والعرق يكاد يُلجمهم» الحديث بطوله.

وفي: (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ في حديث الشفاعة ـ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يجمع الله

الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيُبصرهم الناظرُ، ويَسمعهم الداعي، وتدنو الشمس منهم، فيبلغ الناس من الغمِّ والكرب ما لا يُطيقون ولا يحتملون» الحديث.

فهذه الأحاديث تدل على عِظم الموقف، وشدّة حرِّه وكربه، وكلٌّ من أهل الموقف يشعر بذلك على حسب مقام إيمانه؛ إلا مَن أظله الله تعالى بظله، وقد بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم عِدَّة كثيرة من الأعمال الصالحة تكون سبباً في إظلال الله تعالى لعبده يوم القيامة، ونذكر أطرافاً منها:

١ ـ روى الشيخان وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «سبعة يظلُّهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله: الإمام العادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله عزّ وجلّ، ورجل قلبه معلَّق بالمساجد، ورجلان تحابَّا في الله: اجتمعا على ذلك وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضتْ عيناه».

قال الحافظ الزرقاني في: (شرح الموطأ): ورواه أبو نعيم وغيره من وجه آخر، عن أبي هريرة رضي الله عنه فقال بدل: «وشاب نشأ في عبادة الله»، «ورجل كان في سَريَّة مع قوم، فلقوا العدوّ فانكشفوا، فحمى آثارهم» وفي لفظ: «أدبارهم حتى نجوا ونجا أو استشهد».

قال الحافظ: حديث حسن غريب جداً.

قال: ورواه الحاكم، والبيهقي من وجه آخر، عن سليمان موقوفاً ـ وحكمه الرفع إذ لا يقال رأياً ـ فقال بدل الإمام والشابِّ: «ورجل يُراعي الشمس لمواقيت الصلاة، ورجل إن تكلَّم تَكَلَّم بعلم، وإن سكت سكت عن حلم». اهـ.

٢ ـ ومن الذين يُظلهم الله تعالى في ظله: الوقَّافون عند الحق: لهم أو عليهم:

روى الإمام أحمد، عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أتدرون مَن السابقُ إلى ظل الله يوم القيامة»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «الذين إذا أُعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم» قال الحافظ ابن حجر: غريب، وفيه ابن لهيعة. اهـ.

٣ ـ ومنهم: مَنْ أنظر معسراً أو وضع له:

روى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أنظر معسراً؛ أو وضع له: أظله الله يوم القيامة تحت ظلِّ عرشه، يوم لا ظل إلا ظله»[1].

ورواه ابن ماجه، والحاكم عن أبي اليَسَر ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أنظر معسراً؛ أو وضع له: أظلَّه الله

---

(١) قال المنذري: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ومعنى: وضع له: أي: ترك له شيئاً مما له عليه. اهـ.

في ظله» ورواه الطبراني في: (الكبير) بإسناد حسن.

٤ ـ ومنهم: واصِل الرحم، والمرأة تَحبِس نفسها على تربية أولادها الأيتام:

عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ثلاثة في ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله: **واصل الرحم** يزيد الله في رزقه ويمدّ له في أجله، **وامرأة** مات زوجها وترك عليها أيتاماً صغاراً، فقالت: لا أتزوج أُقيم على أيتامي حتى يموتوا أو يُغنيهم الله، **وعبد** صنع طعاماً فأضاف ضيفه وأحسن نفقته، فدعا عليه اليتيمَ والمسكينَ فأطعمهم لوجه الله عزّ وجلّ»[1].

٥ ـ ومنهم المراقب لربه، الذي يعلم أَن الله معه حيثما توجَّه:

روى الطبراني، عن أبي أُمامة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثة في ظل الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله: **رجل**: حيث توجَّه علم أن الله تعالى معه، **ورجل** دعته امرأة إلى نفسها فتركها من خشية الله، **ورجل**: أحبَّ لجلال الله».

٦ ـ ومنهم أهل الخُلُق الحسن:

روى الطبراني، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: يا خليلي حَسِّنْ خُلقك ولو مع الكفار: تدخل مداخل الأبرار، إن

---

(١) رواه أبو الشيخ، والأصبهاني، والديلمي في: (الفردوس) كما في: (الفتح الكبير).

كلمتي سبقتْ لمن حسَّن خلقه أن أُظله تحت العرش، وأَنْ أَسْقِيه من حظيرة قدسي، وأَنْ أُدْنيه من جواري»[1].

٧ ـ ومنهم حملة القرآن الكريم:

روى ابن النجار، عن علي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أدِّبوا أولادكم على ثلاث خصال: حُبِّ نبيكم، وحُب أهل بيته، وقراءة القرآن: فإن حملة القرآن في ظلّ الله يوم القيامة يوم لا ظلَّ إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه»[2].

٨ ـ ومنهم المكثرون للصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

روى الديلمي، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «ثلاث تحت ظل العرش يوم القيامة: مَنْ فرَّج عن مكروب من أمتي، وأحيا سنتي، وأكثر الصلاة عليّ»[3] صلى الله عليه وآله وسلم.

٩ ـ ومنهم المُطعِمُون للجياع:

عن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاث من كُنَّ فيه أظلَّه الله تحت ظله: الوضوء على المكاره، والمشي إلى المساجد في الظُلَم، وإطعام الجائع».

قال في: (الفتح): رواه أبو الشيخ في (الثواب) والأصبهاني في: (الترغيب).

١٠ ـ ومنهم الطاهرة قلوبهم، البريَّة أبدانهم:

---

(١) انظر: (ترغيب) المنذري.

(٢) انظر: (شرح الزرقاني) على (الموطأ) و(الفتح الكبير) وعزاه أيضاً إلى الشيرازي و(مسند الفردوس).

(٣) انظر: (شرح الزرقاني) على (الموطأ).

روى الإمام أحمد، عن عطاء بن يسار: (أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى: مَنْ تؤويه في ظل عرشك؟

قال: هم الطاهرة قلوبهم ـ أي: من الغلِّ والحقد ـ البريَّة أبدانهم ـ أي: من الخبث والدنس ـ الذين إذا ذكرتُ ذُكروا بي، وإذا ذُكروا ذكرتُ بهم، الذين يُنيبون إلى ذكري، ويَغضُّون لمحارمي، ويَكلَفون بحبِّي).

زاد ابن المبارك في روايته: (الذين يَعمرون مساجدي، ويستغفرونني بالأسحار).

وروى الديلمي، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً يقول الله تعالى: «قربوا أهل لا إلَه إلا الله في ظلِّ عرشي؛ فإني أحبهم»[1].

اللهم أظلَّنا في ظلِّك يوم لا ظلَّ إلا ظلك ـ آمين.

طُول الموقف يوم القيامة

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾.

والمعنى لا يسأل قريب قريبه ولا الصاحب صاحبه: كيف حالك، ولا يكلِّمه لهَول ذلك اليوم وشدته، أو المراد ولا يسأله

(١) وقد صنف العلماء أجزاء خاصة، جمعوا فيها أحاديث الظلال، كالحافظ السخاوي ثم السيوطي وغيرهما.

الإحسان إليه ولا الرفق به كما كان يسأله في الدنيا؛ لشدة الأمر وهول يوم القيامة.

قال الحافظ الهيثمي في: (مجمع الزوائد): باب خِفَّة يوم القيامة على المؤمنين:

ثم روى عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده إنه لَيُخفَّف على المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة يُصليها في الدنيا» رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه. اهـ.

وعند الطبراني، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «ويكون ذلك اليوم أقصر على المؤمن من ساعة من نهار».

وللحاكم والبيهقي، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً: «يوم القيامة على المؤمنين كمقدار ما بين الظهر والعصر».

وعند أبي يعلى برجال الصحيح: «فيهوَّن ذلك للمؤمن كتدلِّي الشمس للغروب إلى أن تغرب».

قال الحافظ الزرقاني: وطريق الجمع بين هذه الأحاديث: أن ذلك يختلف باختلاف درجات إيمان المؤمنين. اهـ.

وروى ابن المبارك في كتاب: (الزهد)، وابن أبي شيبة في: (المصنف) واللفظ له بسند جيد، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: (تُعطىٰ الشمس يوم القيامة حرَّ عشر سنين، وتدنو من جماجم الناس حتى تكون قاب قوسين، فَيَعْرقون حتى يرشح العرق في

الأرض، ثم يرتفع حتى يُغَرغر الرجل).

زاد ابن المبارك في روايته: (ولا يضر حرّها يومئذ مؤمناً ولا مؤمنة). اهـ.

قال العلماء: وظاهر بعض الأحاديث يعمّ جميع أهل الموقف، ولكن هناك أحاديث أُخرى تدل على أَنّ العرق وأهوال الموقف تَعمُّ الكفار والمذنبين، وأشدهم الكفار، ثم أصحاب الكبائر، ثم مَن دونهم في الذنوب، ثم وثم على قدر ذنوبهم.

وأما الأنبياء فهم في أمان من جميع ذلك، وكذلك أتباعهم من الشهداء والصديقين والصالحين، وأهل الظلال كما تقدم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

قال الحسن البصري رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: هو يوم القيامة.

قال المفسرون: وأراد أَنَّ موقفهم للحساب حتى يُفصل بين الناس هو في مقدار خمسين ألف سنة من سِنِيِّ الدنيا. اهـ.

أقول: ويشهد لذلك ما رواه الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من صاحب كنزٍ لا يُؤدي حقَّه إلا جُعل ـ أي: الكنز ـ صفائح يُحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجبينه وظهره؛ حتى يحكم الله تعالى بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدّون، ثم يرى سبيله: إما إلى الجنة، وإما إلى النار» الحديث، ورواه مسلم كما سيأتي بتمامه إن شاء الله تعالى.

عموم الحشر لجميع الثَّقلين
والزمان والمكان والحيوان والطيور

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

دلت هذه الآية على أن الله تعالى يَجمع الإنس والجن، ويسألهم عما جرى بينهم في الدنيا من التضليل والإغواء، ومن الاستمتاع والانتفاع على الوجه المحرَّم، فيقول سبحانه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: أضللتم كثيراً من الإنس، وجعلتموهم أتباعكم في الضلال ـ والمراد هنا بالجنِّ الشياطين أُولي الضلال.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

أما استمتاع الإنس بالجن فهو: ما كانوا يُلقون إليهم من استراق السمع، والسحر والكهانة، وتزيينهم الأمور التي كانوا يَهْوَوْنها.

واستمتاع الجن بالإنس هو: طاعة الإنس للجن في الضلالة والغَواية والمعاصي، والشرك والكفر.

وهكذا تُحشر الأَزْمنة، كما جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تُحشر الأيام على هيئتها، وتُحشر الجمعة زهراء منيرة، أهلُها يَحفُّون بها

كالعروس تُهدى إلى خِدرها، تُضيء لهم، يمشون في ضوئها، ألوانهم كالثلج بياضاً، وريحهم كالمسك، يخوضون في جبال الكافور، وينظر إليهم الثقلان، لا يطرقون ـ أي: لا يَدعُون النظر إليهم ـ تعجباً حتى يدخلوا الجنة، لا يخالطهم أحد إلاّ المؤذِّنون المحتسبون»[1].

وكذلك تُحشر الأرض وما عليها من: مَدَرٍ وحجر، وشجر من: رطب ويابس؛ لأجل أن تشهد على مَن عمل على ظهرها.

قال الله تعالى إخباراً عن الأرض يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

قال أبو هريرة رضي الله عنه، قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «أن تشهد على كلِّ عبدٍ وأمةٍ ـ أي: على كل ذكر وأنثى ـ بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا فهذه أخبارها» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وروى البخاري، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، أَنَّ أبا سعيد رضي الله عنه قال له: (أراكَ تُحبُّ الغنَم والبادية، فإذا كنتَ في غنمك وباديتك، فأذَّنْتَ للصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني، وابن خزيمة في: (صحيحه). اهـ.

لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إِنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة).

قال أبو سعيد رضي الله عنه: سمعتُه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ورَواه مالك والنسائي وابن ماجه وزاد: «ولا حجر ولا شجر إلاّ شهد له».

ورواه ابن خزيمة في: (صحيحه) بلفظ: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لا يسمع صوت المؤذن شجر ولا مَدَر، ولا حجر، ولا جنٌّ ولا إنس إلاّ شهد له».

وعند أبي داود: «ويشهد له كلُّ رطبٍ ويابس».

أما حشر الحيوانات:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾.

فأخبر أَنَّ جميع ما ذكره يُحشر إلى الله تعالى.

وروى مسلم وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لتؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد ـ أي يُقتصّ ـ للشاة الجَلْحاء من الشاة القرناء».

ورواه الإمام أحمد بلفظ: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُقتصُّ للخلق بعضهم من بعض، حتى للجمَّاء من

القرناء، وحتى للذرَّة من الذرّة» ورواته رواة الصحيح كما في: (الترغيب).

فالله تعالى يحشر الحيوانات ليقتصَّ من بعضها لبعض، فيقتص من الشاة القرناء التي نَطحت الجلحاء ـ التي لا قُرون لها.

وروى النسائي، وابن حبان في: (صحيحه) عن الشريد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مَن قتل عُصفوراً عبَثاً عجَّ ـ أي: العصفور ـ إلى الله تعالى يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني منفعة».

فلا يجوز قتل العصفور ونحوه عبثاً أي: لهواً ولعباً، إلا لمنفعة أكلٍ أو نحوه.

كما روى النسائي، والحاكم وصحح إسناده، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما من إنسان يقتل عُصفوراً فما فوقها بغير حقِّها؛ إلا يسألُ اللهُ عنها يوم القيامة».

قيل: يا رسول الله وما حقُّها؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أن تذبحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فترميَ به».

وروى الإمام أحمد في: (مسنده) عن أبي ذر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى شاتين تنتطحان فقال: «يا أبا ذر أتدري فيما تنتطحان»؟.

قال: قلت: لا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لكنَّ الله يدري وسيقضي بينهما».

ومما يدل على حشر الحيوانات: حديث مانع زكاة الإبل والبقر والغنم، وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه؛ تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، حتى يُقضى بين العباد ـ الحديث في: (الصحيحين) وسيأتي نصه إن شاء الله تعالى في موضعه.

حشر كلّ إنسان مع محبوبه

روى الشيخان، عن أنس رضي الله عنه، أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متى الساعة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وما أعددت لها»؟

فقال: لا شيء ـ إلا أني أحبّ الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت مع مَن أحببتَ».

وفي رواية للبخاري قال: ونحن كذلك؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم».

قال أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بشيء فَرَحنا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت مع من أحببتَ».

قال أنس رضي الله عنه: فأنا أحبّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم: «ثلاث هنَّ حقٌّ: لا يجعل الله مَن له سهم في الإسلام كَمَن لا سهمَ له، ولا يتولّى الله عبداً فيولِّيه غيره، ولا يحبُّ رجل قوماً إلا حُشر معهم».

رواه الطبراني في: (الصغير) و(الكبير) بإسناد جيد كما في: (الترغيب) وغيره.

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثة أحلف عليهن: لا يجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له، وأسهم الإسلام ثلاثة: الصلاة والصوم والزكاة، ولا يتولى الله عبداً في الدنيا فيولِّيَه غيره يوم القيامة، ولا يحبُّ رجل قوماً إلا جعله الله معهم» الحديث[1].

وعن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كلّ نفس تُحشر على هواها، فمن هَوِيَ - أي: أحبَّ - الكفرة فهو مع الكفرة؛ ولا ينفعه عمله شيئاً»[2].

* * *

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه أحمد بإسناد جيد. اهـ. وعزاه في: (الفتح الكبير) إلى النسائي، وأحمد، والحاكم، والبيهقي.

(٢) عزاه في: (الفتح الكبير) إلى الطبراني في: (الأوسط).

لـواء الحمـد

لقد ثبت بالأحاديث النبوية أن لسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لواءً عالياً على جميع ألوية الشرف والكرامة، واسعاً كلَّ السعة، يأوي إليه ويدخل تحته جميع الأنبياء والمرسلين، وأتباعهم معهم صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين.

ويسمى: لواء الحمد، وهو بيد جامع أنواع السيادة والمحبة صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الترمذي وابن ماجه وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيٍّ آدم فمَن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر» الحديث.

وروى الترمذي والدارمي وغيرهما، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينتظرونه قال: فخرج صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم:

فقال بعضهم: عَجباً إنَّ الله اتخذ من خلقه خليلاً؛ اتخذ إبراهيم خليلاً.

وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه الله تكليماً.

وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه.

وقال آخر: آدم اصطفاه الله تعالى.

فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسلَّم، وقال: «سمعتُ كلامكم وعجبكم: إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نجيُّ الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافعٍ وأول مشفَّعٍ يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول مَن يُحَرِّك حَلَق الجنة فيفتح الله لِي فَيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر».

ومعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك: «ولا فخر»: أنه لم يقل ذلك فخراً وكِبراً، وإنما قال ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى وشكراً له، وامتثالاً لأمر الله تعالى حيث قال له: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾.

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله: إبراهيم خليل الله، وعيسى كلمة الله وروحه، وموسى كلَّمَهُ الله تكليماً، فماذا أُعطيت أنتَ؟

فقال: «ولد آدم كلُّهم تحت رايتي يوم القيامة، وأنا أول مَن تُفتح له أبواب الجنة» صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى الترمذي والدارمي، وأبو يعلى وغيرهم، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا، وأنا قائدهم إذا وَفَدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شافعهم إذا حُبسوا، وأنا مُبَشِّرهم إذا أيسوا، الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي، ولواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر، يطوف عليّ ألف خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون» هذا لفظ الدارمي.

قال الحافظ الزرقاني: وأضيف اللواء إلى الحمد الذي هو الثناء على الله تعالى بما هو أهله؛ لأنه منصبه صلى الله عليه وآله وسلم في الموقف، وهو المقام المحمود المختصّ به.

قال: والعرف جارٍ بأن اللواء يكون مع كبير القوم لِيُعرف مكانه، إذ موضوعه أصالةً شهرة الرئيس. اهـ.

وقد تكلَّم الشيخ الأكبر محيي الدين نفعنا الله تعالى به وبأهل الله أجمعين ـ حول لواء الحمد، وبَيَّن وجه تسميته بلواء الحمد: أنه التوَت أي: اجتمعت فيه المحاميد التي يُحمد بها ربُّ العالمين، فهو لواء جامع لجميع المحامد الإلَهية، فلا يخرج عنه حمد، وإنما يأخذ منه كل حامدٍ حَمْدَهُ ليحمد به ربَّ العالمين سبحانه وتعالى.

وإن الحمد لله تعالى لا يكون إلا بالأسماء الإلَهية، فإنها بها يُثنىٰ عليه سبحانه وبها يُحمد، وإن جميع تلك الأسماء الإلَهية التي بها يَحمده الحامدون، ويُثنون بها على ربهم، جمعها الله تعالى في

لواء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإلى ظلِّ لوائه صلى الله عليه وآله وسلم يأوون، وعنه يأخذون صيغ حمدهم، ولذلك عمَّ ظلُّ لوائه صلى الله عليه وآله وسلم جميع الحامدين، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من نبيٍّ آدم فمَن دونه إلا تحت لوائي».

فالأنبياء وأتباعهم كلُّهم في ظلِّ لوائه صلى الله عليه وآله وسلم، الذي اجتمعت فيه جميع أنواع المحامد، ومنه يَتلقَّى كل حامد.

وإن أحمد الحامدين لرب العالمين سيدنا أحمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي فتح الله ويَفتح عليه من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد غيره، كما جاء في أحاديث الشفاعة المتقدمة، حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فيفتح الله تعالى عليَّ ـ أي: يوم القيامة، حين يقيمه الله في المقام المحمود ـ فيفتح الله تعالى عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي».

وقال: «فأحمده بمحامد لا أعلمها الآن، يُلهمنيها الله تعالى».

حشرنا الله تعالى في جملة رُفقائه صلى الله عليه وآله وسلم، وجمعنا تحت لواء حمده، وراية مجده، ونفحنا بنفحاته، وأفاض علينا من بركاته صلى الله عليه وآله وسلم.



عالم الحوض

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

في هذه السورة الكريمة يذكر الله تعالى فضله العظيم على رسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويعلن له هذا العطاء الكبير الذي خصَّه به.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ إنا بعظمة صفاتنا، ومجد أسمائنا الفياضة بالخيرات والبركات ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ على وجهٍ خاصٍّ بك ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير، العامّ الطامّ لعوالم الدنيا والبرازخ والآخرة، ومن ذلك الخير الكثير الحوض في الموقف، والكوثر في الجنة.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ شكراً لربك على هذا العطاء الكثير، والخير الوفير.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك يا رسول الله ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي: الأقطع من كلِّ خير ـ والمعنى: لقد أعطيناك الكوثر الجامع لكل خير، والفائض بكل فضلٍ وبرٍّ، فمَن أحبك واتبعك يا رسول الله نَهَل من ذلك الخير، ونال حظه الوافر من ذلك الفضل

العظيم، والكرم والبرِّ على حسب حبه لك، واتباعه لك، ومن لم يحبك يا رسول الله فلا نصيب له من ذلك، بل هو الأقطع المحروم من كل خير وبرٍّ وسعادة في الدنيا والآخرة، لأنَّ الله تعالى جمع لك جميع أنواع الخير يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم مجمع الخير كلِّه، والفضل والبرِّ، والفلاح والنجاح، فلا يُبتغى الخير، ولا يُنال البرّ إلا من معدنه ومعينه صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك بحبه صلى الله عليه وآله وسلم واتباعه، ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإنما أنا قاسم والله يعطي».

روى البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الكثير، الذي أعطاه الله إيَّاه.

قال أبو بشير: قلت لسعيد بن جبير: فإنَّ ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟

فقال سعيد: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله إياه.

وقال مجاهد: الكوثر هو: الخير الكثير في الدنيا والآخرة.

فالكوثر هو على وزن فوعل وهو يدل على المبالغة والكثرة.

وروى الشيخان وغيرهما، عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد إذ أغفى إغفاءةً ـ أي: اعترته حالة الوحي ـ ثم رفع رأسه ضاحكاً فقيل له: ما أضحكك يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نزلت عليَّ سورة آنفاً ـ الآن ـ فقرأ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾» حتى ختمها.

قال: «أتدرون ما الكوثر»؟

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «إنه نهر وَعَدنيه ربي عزَّ وجلّ، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء. فيُختلَج العبد منهم، فأقول: ربِّ إنه من أمتي.

فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك».

فذلك النهر العظيم هو في الجنة يسمَّى كوثراً، ويمتدّ منه إلى الموقف فيسمَّى الحوض، ترد عليه أمّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

سعة حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكثرة آنيته وحلاوة مائه وبياض لونه

روى الإمام مسلم وغيره، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الوَرِق ـ أي: الفضة ـ وريحه أطيب من المسك، وكِيزانه ـ أي: كؤوسه ـ كنجوم السماء، فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبداً».

وروى مسلم أيضاً، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله ما آنية الحوض؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفس محمد بيده: لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها؛ ألا في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ.

عرضه مثل طوله ما بين عَمَّان إلى أيْلة[1]، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل».

وروى الإمام مسلم، عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قَدرُ حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء».

وفي: (الصحيحين)، و(سنن) الترمذي، عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما بين ناحيتي حوضي: كما بين صنعاء والمدينة».

وفي رواية: «مثل ما بين المدينة وعَمَّان».

وفي رواية أُخرى: «تُرى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء».

---

(١) قال الإمام النووي في: (شرحه): «أيلة» بفتح الهمزة، وإسكان المثناة تحت، وفتح اللام: مدينة معروفة في عراق الشام، على ساحل البحر، متوسطة بين مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودمشق.

ثم قال: أمَّا عمَّان فبفتح العين وتشديد الميم، وهي بلدة بالبلقاء في الشام. اهـ.

زاد في رواية: «أو أكثر من عدد نجوم السماء».

وفي رواية: «إنَّ قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء اليمن، وإن فيه الأباريق كعدد نجوم السماء».

واختلاف هذه المسافات التي ضربها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمثلة لعرض حوضه الشريف؛ هذا الاختلاف جاء لإعلام المخاطبين بسعة الحوض، فإن منهم من يعرف ما بين أيلة وصنعاء، ومنهم من يعرف مسافات أُخرى غير تلك، فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمثلة لسعة الحوض كما جاء في بقية روايات أحاديث الحوض، والقليل من هذه المسافات داخل تحت الكثير، والكثير باق على ظاهره، كما قال الإمام النووي: وليس في القليل من هذه منع الكثير، والكثير ثابت على ظاهر الحديث، ولا معارضة ـ والله أعلم. اهـ.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: وهذا الاختلاف في قدر عرض الحوض ليس مُوجباً للاضطراب ـ أي: في أحاديث الحوض ـ فإنه ـ أي: الاختلاف ـ لم يأت في حديث واحد، بل في أحاديث مختلفة الرواية، عن جماعة من الصحابة، سمعوها في مواطن مختلفة، ضرب لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل واحد منها مثلاً لبعد أقطار الحوض وسعته، وقرَّب ذلك من الأفهام لِبُعد ما بين البلاد المذكورة؛ لا على التقدير الموضوع للتحديد؛ بل للإعلام بعظم هذه المسافة ـ فبهذا تجمع الروايات. اهـ.

سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حوضه ينتظر الواردين عليه من أمته جعلنا الله تعالى من المقبولين

روى الشيخان، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً، وصلَّى على شهداء أُحدٍ صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فَرَط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أعطيتُ خزائن الأرض؛ أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها».

وفي رواية لمسلم عن عقبة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إني فرطكم على الحوض».

وعند مسلم عن جندب رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أنا فرطكم على الحوض».

وروى أبو نعيم بإسناده، عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: لما صَدَر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن حَجَّة الوداع قال: «يا أيها الناس: إني فرطكم على الحوض، وإنكم واردون عليّ حوض عرضه ما بين بُصرىٰ وصنعاء، فيه آنية عدد النجوم»[1].

---

(١) وروى الطبراني في كتاب: (السنة) نحوه كما في: (شرح الإحياء) للعلامة الزبيدي.

وروى الطبراني في: (الكبير) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا آخذ بِحُجَزِكم عن النار أقول: إياكم وجهنم وإياكم والحدودَ، فإذا مِتُّ فأنا فرطكم، وموعدكم الحوض، فمن ورد أفلح» الحديث.

قال الإمام النووي: قال أهل اللغة: الفَرَط: بفتح الفاء والراء والفارط هو الذي يتقدَّم الواردين ليُصلح لهم الحياض والدِّلاء ونحوها من أمور الاستقاء.

قال: فمعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فرطكم على الحوض» ينتظر أمته الواردين عليه، المتبعين له، وذلك ليستقبلهم ويسقيهم ـ سقانا الله تعالى من كفه الشريفة شربة لا نظمأ بعدها أبداً؛ بجاهه وبوجاهة وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم عند ربه تعالى ـ اللهم آمين.

وهكذا أحاديث الحوض بلغت حد التواتر، فيجب الإيمان به قطعاً بلا شك.

جاء في: (سنن) أبي داود، أن عُبيد الله بن زياد قال لأبي برزة الأسلمي رضي الله عنه: جئت إليك لأسألك عن الحوض، هل سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر فيه شيئاً؟

فقال أبو برزة رضي الله عنه: نعم، لا مرَّة ولا مرتين ولا ثلاثاً ولا أربعاً ولا خمساً، قال: (فمن كذَّب به فلا سقاه الله منه) الحديث.

وفي هذا دليل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان كثيراً ما يُحدِّث أصحابه رضي الله عنهم عن الحوض وأوصافه، ولذلك

جاءت أحاديث الحوض عن جَمٍّ غفير من الصحابة، في مناسبات متعددة، ومِنْ ثَمَّ ذكره علماء التوحيد في جملة العقائد الإيمانية.

قال العلامة اللقاني رحمه الله تعالى:

إيماننا بحوض خير الرسل حَتْم كما قد جاءنا في النقل
ينال شُرباً منه أقوام وفوا بعهدهم ـ وقل: يُذاد مَنْ طغوا

والمعنى: أن الذين يَشربون من حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم دون مانع يمنعهم: هم الموفون بعهدهم مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما مَن بغى وطغى، وارتدَّ ورجع القهقرى؛ فإنهم يُمنعون عن الشرب من حوضه صلى الله عليه وآله وسلم.

روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «بينا أنا قائم ـ أي: على الحوض ـ يوم القيامة فإذا زمرة ـ أي: جماعة ـ حتى إذا عرفتهم، خرج رجل ـ أي: مَلَك على صورة رجل ـ من بيني وبينهم فقال: ـ أي: قال لهم ـ هلمَّ.

فقلتُ: إلى أين؟ ـ أي: إلى أين تدعوهم ـ.

قال: إلى النار والله.

فقلتُ: وما شأنهم؟

قال: إنهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرى.

ثم إذا زُمرة أخرى، حتى إذا عرفتُهم، خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلمَّ ـ أي: فقال للجماعة تلك: أقبلوا ـ.

قلتُ: إلى أين؟

قال: إلى النار والله.

قلت: ما شأنهم؟.

قال: إنهم ارتدّوا ـ بعدك ـ على أدبارهم القهقرى.

فلا أراه يخلص منهم ـ أي: من تلك الزمرة ـ إلا مثل هَمَل النعم».

قال الحافظ المنذري وغيره: هَمَل النعم هي ضوالُّها، ومعناه: أن الناجي قليل كضالَّة النعم بالنسبة إلى جُملتها. اهـ.

وكان ابن أبي مليكة يقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نَرجع على أعقابنا، أو أن نُفتن عن ديننا. اهـ آمين.

سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
يستقبل أمته على الحوض ويعرفهم بسيماهم من بين الأمم

روى الإمام مسلم وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تَرِد عليَّ أمتي الحوض، وأنا أذود عنه الناس كما يَذود الرجل إبل الرجل عن إبله».

قالوا: يا نبيَّ الله أتعرفنا؟

قال: «نعم، لكم سيما ـ أي: علامة ـ ليست لأحد غيركم، تردون عليَّ غُرّاً محجَّلين من آثار الوضوء، ولتُصدّنّ عني طائفة منكم فلا يصلون إليّ، ـ أي: لا يصلون إليّ بل يُمنعون ـ فأقول: يا ربِّ هؤلاء من أصحابي.

فيجيبني مَلَك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك»؟.

وروى مسلم، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن حوضي لأَبعدُ من أيْلة من عَدنَ، والذي نفسي بيده إني لأذود عنه ـ أي: أمنع عن الحوض ـ الرجال ـ أي: من غير أمته ـ كما يذود ـ كما يمنع ـ الرجل الإبل الغريبة عن حوضه».

قالوا: يا رسول الله وتعرفنا؟

قال: «نعم، تردون عليَّ غُرّاً محجَّلين من آثار الوضوء ليست لأحد غيركم».

والغُرّ جمع أغرّ، وهو: ذو الغُرَّة، والمحجَّلون جمع: مُحجَّل.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: قال أهل اللغة: الغُرّة: بياض في جَبْهَةِ الفرسِ، والتحجيل: بياض في يديها ورجليها.

قال العلماء: سُمي النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة غُرَّةً وتحجيلاً تشبيهاً بغرّة الفرس والله أعلم. اهـ.

فهذه الأمة المحمدية لها سيما ـ أي: علامة ـ يوم القيامة، يُعرفون بها، وهي الغرَّة والتحجيل من آثار الوضوء الذي كانوا يفعلونه في الدنيا.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: وقد استدل جماعة من أهل العلم من هذا الحديث على أنَّ الوضوء من خصائص هذه الأمة ـ زادها الله تعالى شرفاً ـ.

وقال آخرون: ليس الوضوء مُختصاً بها، وإنما الذي اختصَّت به هذه الأمة الغُرّة والتحجيل؛ واحتجوا بالحديث الآخر أي: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «هذا وضوئي ووضوء الأنبياء قبلي».

وأجاب الأولون عن هذا بجوابين: **أحدهما** أنه حديث ضعيف معروف الضعف، **والثاني** لو صحّ احتمل أن يكون الأنبياء اختصَّت بالوضوء دون أممهم؛ إلا هذه الأمة ـ والله أعلم. اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وَدِدْتُ أنا قد رأينا إخواننا»

قالوا: أوَلسنا إخوانك يا رسول الله؟.

قال: «أنتم أصحابي[1]، وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ».

فقالوا: كيف تعرف مَن لم يأت بعدُ من أمتك يا رسول الله؟

فقال: «أرأيت لو أن رجلاً له غُرٌّ محجَّلة بين ظهري خيلٍ دُهْمٍ بُهْم ألا يعرف خيله»؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «فإنهم يأتون غُرّاً محجَّلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا ليُذادنَّ رجال عن حوضي كما يُذادُ البعير الضالُّ، أناديهم ألا هلُمَّ.

فيقال: إنهم قد بدّلوا بعدك.

---

(١) أي: أنتم إخواني وأصحابي، ولكنَّ الذين يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني هم إخواني وليسوا بأصحابي، فودَّ صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ لو لقيهم في الحياة الدنيا، وهم أحياء في الدنيا؛ فلا ينافي ذلك لقاءهم حين عُرضوا عليه مع بقية الأمم السابقة ـ كما في البخاري وغيره.

فأقول: سُحْقاً سحقاً» أي: بُعداً لكم، بُعداً لكم.

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن هؤلاء الذين يُمنعون عن حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم هم المنافقون، الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وكذلك المرتدّون الذين أسلموا أوّلاً ثم كفروا وماتوا وهم كفار.

قال العلماء: فيجوز أن يُحشر هؤلاء بالغرة والتحجيل، باعتبار أن المنافقين كانوا مسلمين بالظاهر، ومُصلِّين بالظاهر، وكذا المرتدّون، فإنهم كانوا مسلمين في أول أمرهم ومصلين، فَيُناديهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم للسِّيما التي عليهم، فيقال: ليس هؤلاء مما وُعدتَ بهم؛ إنَّ هؤلاء بدّلوا بعدك: **أما المنافقون** فإنهم لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم، **وأما المرتدّون** فإنهم بدَّلوا حيث كفروا بعد إيمانهم.

وهذا الحديث لا يتنافىٰ مع الحديث الدالّ على عرض أعمال الأمة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما تقدم في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «تعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله، وما رأيت غير ذلك استغفرت لكم» فإن الذي يُعرض عليه صلى الله عليه وآله وسلم هو أعمال أمته المؤمنين به حقاً؛ ليستغفر لهم ويدعوَ الله لهم، وأما الكفار من أمته ـ ومنهم المنافقون والمرتدون ـ فإنَّ أعمالهم لا تعرض هذا العرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم ليسوا أهلاً لأن يَستغفر لهم، ويدعوَ لهم، فلا فائدة في عرض أعمالهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قال أهل المعرفة: والحكمة في ذوده صلى الله عليه وآله وسلم بقية الأمم عن حوضه، هو إرشاد كل واحد من سائر الأُمم إلى

حوض نبيه، فيكون هذا من إنصافه صلى الله عليه وآله وسلم، ورعايته إخوانه النبيين، وتكريمه لهم، لا أنه يطردهم عن حوضه بُخلاً منه، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم أجود بني آدم، وأكرم خلق الله تعالى أجمعين.

ويشهد لذلك ما رواه الترمذي، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه آله وسلم قال: «إن لكل نبيٍّ حوضاً، وإنهم يتباهون أيُّهم أكثر واردةً، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة».

قال الحافظ: رواه الترمذي وقال: غريب.

وقال: وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث، عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مُرسلاً، ولم يذكر فيه عن سمرة رضي الله عنه وهو أصحّ. اهـ.

قال العلاَّمة الزبيدي: قلتُ: ووصله الطبراني كذلك، وأشار الترمذي إلى وصله، وصحَّحَ إرساله، والمرسل أخرجه ابن أبي الدنيا بسند صحيح، عن الحسن رَفَعَهُ: «إن لكلِّ نبيٍّ حوضاً، وهو قائم على حوضه، بيده عصاً يدعو من عرف من أمته، ألا وإنهم يتباهون أيُّهم أكثر تبعاً، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً».

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي: وهو أكثريَّة أتباعه الواردين على حوضه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: فَلْيَرْجُ كل عبدٍ أن يكون في جملة الواردين، ولْيَحْذَر أن يكون متمنياً ومغترّاً وهو يظن أنه راجٍ، فإنَّ الراجي للحصاد مَنْ بَذَر

ونقَّى الأرض ـ أي: حرثها وسقاها الماء ـ ثم جلس يرجو فضل الله تعالى بالإنبات، ودَفعِ الصواعق إلى أوان الحصاد.

قال رضي الله عنه: فأما مَن ترك الحراثة أو الزراعة، وتنقية الأرض وسقيها، وأخذ يرجو مِنْ فضل الله تعالى أَنْ يُنبت له الحبَّ والفاكهة ـ فهذا مُغترٌّ وليس من الراجين في شيء، وهكذا رجاء أكثر الخلق، وهو غرور الحمقى ـ نعوذ بالله من الغرور والغفلة، فإن الاغترار بالله تعالى أعظم من الاغترار بالدنيا، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ انتهى كلام الغزالي رضي الله عنه.

يعني: أَنَّ من كان يرجو أن يكون من الواردين على حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعليه: أن يتبعَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به، وليعمل بشريعته صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى قدر ورود الإنسان شريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتحققه بها وعمله بمقتضاها، سوف يكون وُرُوْده على حوضه صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة، وذلك لأن قضايا الآخرة تظهر فيها حقائق ما كان عليه الإنسان في الدنيا: من العقائد والأعمال والأقوال:

فمن كان في الدنيا قد أُشرِب في قلبه الإِيمان المحمديّ، والشرع المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم أُذِن له في الشرب يوم القيامة من حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، مَشرباً رويَّاً، سائغاً هنيئاً لا يظمأ بعده أبداً.

ومن لم يتشرَّب قلبه الإِيمان والشَّرع المحمدي، فلا نصيب له

من حوضه صلى الله عليه وآله وسلم، كالمنافقين والمرتدين ـ وقد تقدم الحديث فيهم أنهم يُمنعون من الحوض الشريف.

موقع الحوض الشريف

قال العلامة الزبيدي في: (شرح الإحياء): فَصْل في محل الحوض:

قال القرطبي في: (التذكرة): ذهب صاحب: (القوت) وغيره إلى أن الحوض يكون بعد الصراط، وذهب آخرون إلى العكس، والصحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم له حوضان: أحدهما: في الموقف قبل الصراط، والآخر داخل الجنة، وكلٌّ منهما يُسمى كوثراً.

قال الزبيدي، وتعقبه الحافظ في: (الفتح): بأن الكوثر نهر داخل الجنة، وماؤه يَصُبُّ في الحوض، ويُطلق على الحوض كوثراً لكونه يُمَدّ منه.

فغاية ما يؤخذ من كلام القرطبي أن الحوض يكون قبل الصراط، لأن الناس يَرِدُون الموقف وهم عطاش، فَيَرِدُ المؤمنون الحوض، وتتساقط الكفار في النار بعد أن يقولوا: ربنا عطشنا، فترفع لهم جهنم كأنها سراب، فيقال لهم: ألا تَرِدُون؟ فيظنونها ماء فيتساقطون فيها إلخ. اهـ.

* * *

الشفاعة وأنواعها

الشفاعة هي كما قال الحافظ الزرقاني: هي: انضمام الأدنى ـ أي: لجوؤه وقصده ـ إلى الأعلى، ليستعين به على ما يَرومه ـ أي: في جلب منفعةٍ، أو دفع مضرَّة عن المشفوع به.

والشفاعة عند الله تعالى لا يتقدّم إليها أحد إلا بإذنه سبحانه، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فهو سبحانه يأذن لمن يشاء، ويُشفعه بمَنْ شاء، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾.

والشفاعة يوم القيامة على أنواع متعددة:

أوّلها وأعظمها وأعمُّها: الشفاعة العظمى، وتسمى الشفاعة الكبرى، وهي الشفاعة العامة التي تعمُّ جميع أهل الموقف على مختلف أديانهم، وبها يتخلصون من أهوال الموقف وكرباته بعد اشتدادها وطولها، ثم ينفضُّ أمرهم إلى عالم العَرْض والحساب والميزان، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

والشفاعة العظمى هي من خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهي أول الشفاعات، وهي: باب الشفاعات كلها، وهي المقام المحمود الذي يقوم به صلى الله عليه وآله وسلم كما

وعده الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾.

وإنما سُمي مقام شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم العظمى ـ سمي مقاماً محموداً لأن أهل الموقف كلهم: بَرَّهم وفاجرهم، سعيدهم وشقيهم يحمدون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويُثنون عليه لَمَّا يشفع بهم، ويُنقذهم من أهوال الموقف وشدائده.

قال البخاري: باب قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ثم أسند إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: (إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثَى[1]، كل أمةٍ تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلىٰ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود).

وسبب هذه الشفاعة العامة أن أهل الموقف لما تشتد عليهم الأهوال ويطول ذلك عليهم، حتى إن الكافر يتمنى أن ينفضَّ أمره ولو إلى النار، كما في الحديث الذي رواه الطبراني، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه

---

(١) قال الحافظ الزرقاني: وجُثى بضم الجيم وفتح المثلثة المخففة منوناً ومقصوراً.
وقال الحافظ في: (الفتح) جمع جَثْوة، مثل خطى جمع خطوة، قال: وحكى ابن الأثير أنه روي بكسر المثلثة وشدِّ التحتية جمع جاثٍ، وهو الذي يجلس على ركبتيه.
وقال ابن الجوزي: عن ابن الخشاب: إنما هو جُثَّى بفتح المثلثة وتشديدها جمع جاث، مثل غاز وغزَّى ـ أي: جماعات. اهـ.

قال: «إن الرجل ـ وفي رواية موقوفة: إن الكافر ـ ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول: يا ربِّ أرحني ولو إلى النار»[1].

فحين يطول ذلك عليهم ويشتدّ ويمتد، يلتمسون شفيعاً لهم يُنقذهم من تلك المآزق، ويُخرجهم من هاتيك المضايق، فيفزعون إلى أبيهم آدم عليه السلام، ثم إلى نوح عليه السلام، وكلٌّ من الرسل يعتذر، ثم وثم حتى ينتهي الأمر إلى الحبيب الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أهَّله الله تعالى لذلك المقام وأكرمه به، فيقول: «أنا لها، أنا لها» صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الشيخان، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوةٍ، فَرُفع إليه الذراع ـ وكانت تُعجبه ـ فنهس منها نهسةً وقال: «أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة، هل تدرون ممَّ ذلك؟

يجمع الله الأولين والآخرين على صعيد واحد، فَيُبصرهم الناظر، وَيُسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغمِّ والكرب ما لا يُطيقون ولا يحتملون.

فيقول الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه، ألا ترون إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟

فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم.

فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، أَلَا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه؟

---

(١) كما في: (مجمع الزوائد).

فيقول: إنَّ ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه نهاني عن الشجرة فعصَيْتُ - نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أَوَّل الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، ألا ترىٰ إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغْنا؟ ألا تشفع لنا عند ربك؟

فيقول: إنَّ ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه قد كان لي دعوة دعوتُ بها على قومي - نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبيّ الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا عند ربك، أَما ترى ما نحن فيه؟

فيقول لهم: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كنتُ كذبت ثلاث كَذَباتٍ؛ فذكرها - نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى، فيقولون: أنت رسول الله، فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، أما ترى إلى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قَتَلت نفساً لم أُؤْمَرْ بقتلها - نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وكلَّمتَ الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول عيسى: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم».

وفي رواية لهما: «ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر».

وجاء في رواية لمسلم، عن جابر رضي الله عنه: «فيؤتى عيسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم».

وفي رواية لهما عن أنس رضي الله عنه: «فيقول عيسى: لستُ هناكم، ولكنِ ائتوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبداً غفر الله ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر».

وفي رواية لأحمد والنسائي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «فيقول عيسى: إني اتُّـخِذتُ إلَهاً من دون الله».

وفي رواية لأحمد أَنَّ كل نبي يقول: «إنه لا يَهمني اليوم إلا نفسي» ـ من آدم إلى عيسى عليه السلام ـ.

وفي حديث أنس رضي الله عنه عند سعيد بن منصور نحوه، وزاد فقال آدم فمن بعده: «وأن يغفر لي اليوم حسبي».

«فيأتون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، فيقولون: يا محمد أنتَ رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ اشفع لنا إلىٰ ربك.

قال: فأستأذن على ربي فيؤذن لي، فإِذا أنا رأيته وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله».

وفي رواية: «فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي».

وفي رواية للبخاري: «فيلهمني الله محامد لا أقدر عليها الآن، فأحمده بتلك المحامد، ثم يقال: يا محمد: ارفع رأسك، وسلْ تُـعْطَه، واشفع تشفَّع.

فأرفع رأسي فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي.

فيقال: يا محمد أدخِل الجنة من أمتك مَن لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده إنَّ بين المصراعين من مصاريع الجنة: كما بين مكة وهَجَر، أو كما بين مكة وبصرى».

وروى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمُّون لذلك».

وفي رواية: «فيلهمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يُريحنا من مكاننا هذا».

قال: «فيأتون آدم فيقولون: أنتَ آدم أبو الخلق، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يُريحنا من مكاننا هذا.

فيقول: لستُ هناكم ـ فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربَّـه

منها، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض».

قال: «فيأتون نوحاً، فيقول: لستُ هناكم ـ فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربَّه منها، ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتَّخذه الله خليلاً.

فيأتون إبراهيم، فيقول: لستُ هناكم ـ وذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربَّه منها، ولكن ائتوا موسى الذي كلَّمه الله تعالى، وأعطاه التوراة».

قال: «فيأتون موسى، فيقول: لستُ هناكم ـ ويذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربَّه منها، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى روح الله وكلمته، فيقول: لستُ هناكم، ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فيأتونني، فأستأذن على ربي فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعتُ له ساجداً، فيدعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد ارفع رأسك قل تُسمع، سل تعطه، اشفع تشفَّع».

قال: «فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يُعلمنيه ربي، ثم أشفع، فيحدّ لي حداً، فأُخرجهم من النار وأُدخلهم الجنة».

قال الراوي: «فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة، فأقول: يا ربِّ ما بقي من النار إلا مَنْ حبسه القرآن» أي: وجب عليه الخلود.

وقد يشكل على الإنسان أنَّ أول هذه الأحاديث وأمثالها جاءت في سياق الشفاعة العامة، لإنقاذ جميع أهل الموقف، وأنَّ آخرها

جاء في سياق الشفاعات الخاصة بمن لا حساب عليه، ومنها الشفاعة بأهل الذنوب، كما تقدم في رواية للشيخين.

والجواب على ذلك كما قاله الشيخ أحمد بن نصر الداوودي في شرحه على البخاري: إن هذا من باب إدخال حديث في حديث آخر، وذلك أَنَّ أول الحديث ذكر الشفاعة في إراحة الخلائق من أهوال الموقف، ثم بعد التحول عن الموقف وانتقالهم للحساب والميزان وما هنالك: جاءت الشفاعات الخاصة بأنواعها.

وقد أجاب عن ذلك أيضاً الإمام النووي وَقَبْله القاضي عياض في شرحهما لمسلم كما نبّه إليه، ويدل على ذلك ما جاء في رواية: (مسند) البزار: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأرفع رأسي ـ أي: من ذلك السجود الطويل تحت العرش ـ فأقول: يا ربِّ عَجِّل على الخلق الحساب».

فهو صلى الله عليه وآله وسلم يسأل أولاً تعجيل الحساب على كافة الخلق، ثم بعد التحول من الموقف تأتي الشفاعات الخاصة[1].

بيانات وإيضاحات هامَّة
حول أحاديث الشفاعة المتقدمة

أولاً: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» فيه إعلان بمقام سيادته صلى الله عليه وآله وسلم، وإعلام

---

(١) انظر ذلك في: (شرح) النووي على مسلم، و(فتح الباري)، وفي (شرح المواهب) و(شرح الإحياء).

لجميع الأنام بسؤدده العامِّ، وذلك من باب تحدثه بنعم ربه وتكريمه إيّاه؛ لا من باب المفاخرة؛ قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، آدم فمَنْ دونه تحت لوائي ولا فخر».

وإنما خصَّ ذكر يوم القيامة بذلك؛ مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم له السيادة على ولد آدم كلِّهم في الدنيا والآخرة، ولكنه إنما ذكر ذلك في الآخرة: لأن الناس كلَّهم يومئذ يُقرُّون بسيادته، ويَعترفون بفضله: الأبرار والفجار، السعداء والأشقياء، وأما في الدنيا فلا يُقر بذلك إلا مَنْ آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً.

ومن المعلوم أَنَّ سيد القوم هو كريم القوم وشريفهم، الذي يهتمّ بشأنهم، ويسعى لما فيه صلاح أمرهم، يفزعون إليه في المهمّات، ويقصدونه في النائبات، وَيَرجون خيره وبرَّه في الشدائد والضائقات.

ولذا أعلن صلى الله عليه وآله وسلم بمقام سيادته ليقصدوه في أشدِّ الحالات والكُربات، أَلاَ وهي كربات الموقف وأهواله ومضايقه، وبيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا يُنقذهم من أهوال ذلك الموقف وشدائده إلا سيدهم صلى الله عليه وآله وسلم، وحينذاك كلُّهم يرون مقام سيادته، ويُقرُّون له بذلك صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانياً: قال الإمام النووي رضي الله عنه في: (شرح مسلم): والحكمة في أن الله تعالى ألهمهم ـ أي: ألهم أهل الموقف ـ سؤال

آدم ومَنْ بعده من الرسل صلوات الله تعالى عليهم في الابتداء ـ أي: ليشفعوا بهم ـ ولم يُلهَموا سؤال نبيِّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والحكمة في ذلك هي ـ والله أعلم ـ إظهار فضيلة نبينا محمد صلي الله عليه وآله وسلم.

فإنهم ـ أهل الموقف ـ لو سألوه الشفاعة ابتداءً لكان يُحتمل أَنّ غيره من الرسل يقدر على هذا ويُحَصِّلُه، وأما إذا سألوا غيره من رسل الله تعالى وأصفيائه فامتنعوا، ثم سألوه فأجاب وحصل غرضهم؛ فهو النهاية في ارتفاع المنزلة، وكمال القُرب، وعظيم الإدلال والأنس.

قال: وفيه تفضيله صلى الله عليه وآله وسلم على جميع المخلوقين من الرسل والآدميين والملائكة، فإنَّ هذا الأمر العظيم ـ وهي الشفاعة العظمى ـ لا يقدر على الإقدام عليه غيره صلى الله عليه وآله وسلم وعليهم أجمعين ـ والله أعلم. اهـ.

وإنما لم يَقْدر أحد من الرسل أَنْ يتقدم للشفاعة العظمى، لأن التجلِّي وقتئذ بالغضب الشديد، ولذا قال كل رسول: «إنَّ ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله» ولذلك لم يستطع أن يتقدم للشفاعة إلا أحبّ حبيبٍ إلى الله تعالى، وَأَقرب مُقرَّب، ألا وهو السيِّد الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الشيخ محيي الدين ابن عربي رضي الله عنه: وإنما أخبرنا صلى الله عليه وآله وسلم بأنَّه أَوّل شافعٍ وأَوّل مشفَّعٍ شفقةً علينا ـ أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم المتبعين له ـ لنستريح من التعب الحاصل بالذهاب إلى نبيٍّ بعد نبيٍّ في ذلك اليوم العظيم، وكلٌّ منهم يقول: «نفسي نفسي لا يهمُّني اليوم إلا نفسي»

فأراد صلى الله عليه وآله وسلم إعلامنا بمقامه يوم القيامة لنصير في مكاننا مستريحين، حتى تأتي نوبته صلى الله عليه وآله وسلم، ويقول: «أنا لها أنا لها».

قال: فكلّ مَنْ لم يبلغه هذا الحديث أو بلغه ونسيه ـ أي: لشدة تلك الأهوال في الموقف ـ لا بُدَّ من تعبه، وذهابه إلى نبي بعد نبي، بخلاف من بلغه ذلك الحديث ودام معه إلى يوم القيامة فلم يَنْسه؛ فإنه لا يتعب، فصلى الله تعالى عليه وسلم ما أكثر شفقته على الأُمَّة! اهـ.

جعلنا الله تعالى ممَّنْ بلغه هذا الحديث فلم ينسه أبداً آمين.

ثالثاً: إنَّ الإنسان قَد يتوهَّم من أحاديث الشفاعة المتقدم بعضها، وفيها أَنَّ كلاً من آدم ونوح وإبراهيم وموسى يقول: «لستُ هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربّه منها»، وفيها أن كلاً من هؤلاء أيضاً يذكر ذنبه، ويتوقف عن التقدم للشفاعة، فقد يتوهَّم من ذلك أن الأنبياء صلوات الله عليهم قد وقعوا في ذنوب وخطيئات، كبقية المذنبين والعُصاة ممن ليسوا بأنبياء، وهذا الوهم مدفوع ومرفوع من وجهين:

الوجه الأول: إنَّ من واجب الإيمان بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام الاعتقاد بعصمة الله تعالى لهم من الذنوب والمعاصي، لثبوت ذلك بالأدلة نذكر جملة منها:

١ ـ إنَّ الله تعالى أمر العباد بطاعة الرسل واتباعهم صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية ـ أي: بأمر الله تعالى وإرادته، فلو جاز

أن يقع من الرسل ذنب أو شيء من الفواحش والمحرمات لكان الناس مأمورين باتباعهم في ذلك الذنب أو الفاحشة، لأَنَّ الله تعالى أمر الناس باتباع الرسل اتباعاً مطلقاً، وكيف تتبعهم الناس في ذنوبهم أو مخالفاتهم ـ لو فرض أنهم يصدر عنهم ذلك ـ في حين أَن الله تعالى لا يأمر بالذنوب ولا بالفحشاء، بل نهى عن ذلك سبحانه، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

فلو جاز أن تقع الرسل في الذنوب والفواحش لكان الناس مأمورين باتباعهم في ذلك، والله لا يأمر بذلك بل نَهىٰ عن ذلك.

٢ ـ لو صدر من الرسل ذنب أو مخالفة شرعية لكان حالهم في استحقاق الذم عاجلاً، والعقاب آجلاً أشدَّ من حال عصاة الأمة، وذلك باطل شرعاً وعقلاً، وذلك أَنَّ مَنْ كانت نعمة الله عليه أعظم وفضل الله تعالى عليه أكبر ـ كان صدور الذنب والمخالفة منه أفحش، ولذا كان حدُّ العبد نصف حدِّ الحرِّ.

٣ ـ لو صدر منهم مخالفة شرعية لما قُبلتْ شهادتهم، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ وفي قراءة: ﴿فتثبّتوا﴾ الآية.

فقد أمر الله تعالى بالتثبُّت والتوقف في خبر الفاسق.

٤ ـ إنَّ الرسل صلوات الله تعالى وسلامه على رسولنا وعليهم كانوا يأمرون الناس بفعل الطاعات وترك المعاصي والمخالفات، فلو أنهم فعلوا المعصية والمخالفة الشرعية لدخلوا في جملة الملومين والمذمومين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ

﴿ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ الآية، بل لتناولهم اللوم والعقاب الشديد في قوله سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ وحاشاهم من ذلك، فإنهم أبرياء أصفياء أتقياء أنقياء، قد أثنى الله تعالى عليهم، ومدحهم، ورفع شأنهم على غيرهم، قال تعالى بعد أن ذكر طائفةً من رسله صلوات الله عليهم بالمدح والثناء قال: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾.

فقد وصفهم الله سبحانه بأنهم مُصْطَفون، وأنهم أخيار، وهذان الوصفان يشتملان على جميع الأفعال الحسنة، وينفيان جميع الأفعال القبيحة.

وقال تعالى في وصف رسله صلوات الله تعالى على رسولنا وعليهم: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ فنزّه سبحانه جانب الرسل عن الدَّنَس والمخالفة.

٥ ـ إنَّ الله تعالى أخبر عن رسله أنه هو سبحانه أخلصهم، فهم المخلَصون والمخلِصون:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾.

وقال في يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

وقد أخبر سبحانه أن إبليس لا سبيل له إلى إغواء المخلَصين، قال تعالى إخباراً عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

وأعظم خلق الله تعالى إخلاصاً واستخلاصاً هم رسل الله تعالى، الذين أخبر عنهم أنه هو سبحانه أخلصهم إليه، فلا سبيل لإبليس إليهم، ولا سُلطان له عليهم، ولا تأثير له في إيقاعهم فيما هو محرَّم عليهم، وذلك كله مما يُوجب القطع بعصمة الرسل عن المعاصي والمخالفات.

٦ ـ إن الله تعالى جعل الرسل عليهم الصلاة والسلام أئمة هدى، فلا يصدر عنهم إلا الهدى والتقى، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾.

فلو جاز عليهم الذنوب والمخالفات الشرعية لوجب على الأمة أَنْ تتبعهم في مخالفاتهم، وحينذاك يخرجون عن كونهم أئمة هدى بل الأمر بالعكس؛ وحاشاهم صلوات الله عليهم، وعلى كلِّ حالٍ فليس هذا موضع تفصيل هذا البحث، وإنما تأتي تفاصيل ذلك في كتابنا: (الإيمان بالرسل صلوات الله تعالى عليهم) إن شاء الله تعالى.

الوجه الثاني: في الجواب عما ورد من نسبة الذنوب للأنبياء صلوات الله تعالى عليهم في بعض الآيات والأحاديث النبوية كحديث الشفاعة المتقدم، وبيان مفاهيم تلك الذنوب.

فنقول: ـ وبالله التوفيق ـ لقد أجاب العلماء المتقدمون عما أُضيف إلى الأنبياء من نسبة الذنوب، بعد أَنْ دلَّ الكتاب والسنة دلالة قطعية على عصمتهم من المخالفات والمحرمات؛ وكلٌّ من العلماء المتقدمين ـ نفعنا الله بهم ـ أَجاب بجواب فيه بيان نزاهة الأنبياء، وبيان كمالهم وشرافتهم وبراءتهم من الفواحش والقبائح،

ولولا خشية الإطالة؛ وباعتبار أن هذا البحث ليس موضع تفصيله هنا، لذكرنا تلك الأقوال مفصلة، ولكن نذكر الآن قولاً منها مشهوراً بين العلماء والعرفاء، قريب التناول، مذكوراً في كتب علماء الظاهر، وَمُبين في كتب علماء الباطن: وهو أن الذنوب المضافة للأنبياء صلوات الله عليهم الوارد ذكرها في الآيات والأحاديث هي ليست كذنوب غيرهم أصلاً، بل ذلك من باب القاعدة المقررة المشهورة بين جميع طبقات العلماء والعرفاء، سلفاً وخلفاً: حسناتُ الأبرار سيئات المقرَّبين، ومباحات العَوَام سيئات الأبرار.

فما ورد من إضافة الذنب إلى الأنبياء في آية أو حديث فهو يُعدّ ذنباً بالنسبة لمقامهم العالي، وبالنسبة لمنزلة قُربهم الخاصّ بهم، وإن ذلك بالنسبة لغيرهم لا يُعدُّ ذنباً أصلاً بل يعتبر حسنة.

ومن المقرَّر أن الوزير المقرَّب للملك حُكمه غير أحكام السُوقة بل واجب التعظيم ومراسيم الأدب مع الملك والنزول عند رغبته وأمره كلٌّ ذلك هو في الوزير أقوى وأشد في المسؤولية من غيره.

وبناء على ذلك فهذه الأكلة من الشجرة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ ويسميها آدم خطيئة وهي أكله من الشجرة.

هذه الأكلة لو صدرت من آحاد الأُمَّة غير الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم لكانت حسنة لوجوه:

١ ـ إن آدم عليه السلام نسي العهد الذي عهده إليه ربه، وهو أن

لا يقرب هذه الشجرة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾.

قال العلامة النسفي في: (تفسيره): ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي: النهي، والأنبياء عليهم السلام يُؤاخذون بنسيان الذي لو تكلفوه لحفظوه ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ أي: قصداً إلى الخلاف لأمره. اهـ.

يعني: أن ذلك وقع منه نِسياناً، ولم يقع منه قصداً للمخالفة وارتكاب النهي.

٢ ـ إنَّ إبليس قاسمه وقاسم حواء زوجته، وحَلَف لهما الأيمان المكررة بأنه لهما لَمِنَ الناصحين في أكلهما من الشجرة، ولم يَعْهَد آدم أبداً بأنَّ أحداً يحلف بالله كاذباً، لأنه لم يقع له سابقة، فلذلك وقع قَسم إبليس من آدم موقع الصدق والقبول.

٣ ـ إنَّ إبليس اللعين أتى آدم عليه السلام من طريقة يدلُّه على ما يُحبه آدم ويتمنى حصوله والظفر به، وهو الخلود والبقاء في الجنة، مُجاوراً لربه الكريم سبحانه، مُستظلاً بظلال الخير والنور الإلَهي الدائم، فقال لآدم: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾.

فهنا يجتهد آدم عليه السلام في هذا الموقف طويلاً، فيؤدِّيه اجتهاده الملاحَظُ فيه نسيانه للنهي عَنْ قرب الشجرة، والملاحَظُ فيه تكرار حلف إبليس، والملاحظ فيه بُغية آدم الخلد في جوار ربه الكريم، فيؤديه نظره إلى أن يتقدم فيأكل من الشجرة، لا بقصد المخالفة لما نهاه الله عنه، لأن الله تعالى قال: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ على الذنب، ولا قصداً إلى المخالفة، بل كان ذلك على خطأٍ ونسيان، وقصد البقاء في الجوار الكريم؛ وهذا المعنى قد جاء عن

ابن عباس وغيره من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وعن ابن زيد، ونقله المفسرون عن جماعاتٍ من السلف الصالح[1].

فلو أَنّ مثل هذا وقع لأحدٍ من الأُمة غير الأنبياء لما عُدَّ ذنباً بالنسبة له، لصدوره عن نسيانٍ، وتغرير عدوٍّ، وعن نية حسنة، ولكن عُدَّ بالنسبة لمقام النبوة ذنباً، لأنَّ للأنبياء أحكاماً خاصة بينهم وبين ربهم، حتى إنَّهم ليؤاخذون على ما لا يؤاخذ عليه غيرهم، كما تقدم في كلام العلامة النسفي حول الآية.

وأما اعتذار سيدنا نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام عن التقدم للشفاعة بسبب سؤاله ربه بغير علم، فهو كما قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ أي: في نجاة ابنه، كما جرى عليه المحققون من المفسرين ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: هو بعض أهلي، لأنه كان ابنه من صلبه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ فالله تعالى وصفه بأنه ابنه، ومَنْ أصدق من الله قيلاً؟ فهو ابنه من صُلبه حقيقة خلافاً لمن توهَّم غير ذلك ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: لا شكَّ في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تُنجي أهلي، فما بال ولدي ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: فأنت أعلم الحُكام بالحِكَم والأحكام، وأعدلهم في القضاء والحُكْم ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ نفى كونه من أهله ثم بيّن علة النفي بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾.

قال العلامة النسفي في: (تفسيره): قال الشيخ أبو منصور رحمه الله تعالى: كان عند نوح عليه السلام أَنّ ابنه كان على دينه،

---

(١) انظر: (تفسير) النسفي، والخازن، والآلوسي وغيرها.

لأنه كان يُنافق، وإلا لا يحتمل أن يقول ـ نوح ـ: ﴿ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ويسأل ربه نجاته وقد سبق منه النهي عن مثله، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

فكان نوح عليه السلام يسأل ربه نجاة ابنه على الظاهر الذي عنده، كما كان أهل النفاق يُظهرون الموافقة لنبينا عليه الصلاة والسلام، ويُضمرون الخلاف له، ولم يعلم صلى الله عليه وآله وسلم بذلك حتى أطلعه الله تعالى عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: ليس من الذين وُعدت النجاة لهم، وهم المؤمنون حقيقة في السرِّ والظاهر. اهـ.

والمعنى: أَنَّه متظاهر بالإسلام معك، ولكنه مبطن للكفر، منافق بالواقع، فهو ليس من أهلك، لقطع النسب بين المؤمن والكافر: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته، تأدباً بأدبك، واتعاظاً بموعظتك، ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ الآية، وفي هذا سلام من الله تعالى وبركات على نوح عليه السلام، وعلى مَنْ معه، وعلى كل مؤمن إلى يوم القيامة.

وقد جاء في بعض روايات البخاري ومسلم ـ اعتذار نوح عليه السلام بغير ما سبق، بل بقول نوح عليه السلام: «إن لي دعوةً دعوتُ بها على قومي» وقد جمع الحافظ في: (الفتح) بين الروايتين بأن نوحاً على نبينا وعليه الصلاة والسلام اعتذر بأمرين:

أحدهما: نهيُ اللهِ تعالى له أن يسأله ما ليس له به علم؛ بعد أن سأل نجاة ابنه، فخشي ـ نوح ـ أن تكون شفاعته لأهل الموقف من ذلك.

ثانيهما: أَنّ له دعوةً مُحققة الإجابة ـ أي: بالنسبة لما يتعلق بكافة أمته ـ وقد استوفاها بدعائه على أهل الأرض، فخشي أن يطلب فلا يجاب. اهـ.

قلتُ: وهذا يشير إلى ما ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لكلِّ نبيٍّ دعوة مستجابة، فتعجَّل كلُّ نبيٍّ دعوته، وإنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة» الحديث.

وأما ما ورد في حديث الشفاعة من اعتذار الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام بسبب الكَذَبات، فإنما هي كَذَبات صُورة لا حقيقة، لأنها من باب المعاريض، وقد جاء في: (الأدب المفرد) للبخاري وفي: (السنن) للبيهقي وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب» يعني: أَنّ في المعاريض متسعاً وفسْحَةً تغني الإنسان عن اللجوء إلى الكذب.

والمعاريض كما قال في: (شرح المواهب): هي جمع مِعراض كمفتاح من التعريض، وهو خلاف التصريح.

وعرفه المتقدمون بأنه ذكر لفظ مُحتمل يَفهم منه السامع خلاف ما يُريده المتكلم ـ فمن ذلك تعريضات الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام الثلاثة:

الأولى: حين قَدِم أرض جبَّارٍ ومعه زوجته سارة، وكان الجبار

يغتصِب الزوجات الحسان من أزواجهن، وقد كانت زوجة الخليل سارّة باسمها ووصفها وهيئتها.

فقال الخليل عليه الصلاة والسلام: «إذا سألكِ فقولي إنك أختي ـ أي: ولا تقولي له إني زوجته ـ فإنك أختي في الإسلام».

وهذا صريح في أَنَّ الخليل سلك مسلك التعريض في الكلام، فإنه قال لزوجته: قولي للجبار إنَّك أختي، وهذا يوهم أنها أخته نسباً، ولكنه قصد أُخوة الإسلام ـ وعلى هذا المنوال جاءت بقية الأجوبة الثلاثة، عَرَّض فيها تَحفُّظاً من كيد أعدائه وإيذائهم.

والثانية: حين أراد قومه أَنْ يَخرج معهم إلى عيد لهم، قال لهم: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أوهمهم أنه سقيم، أي: مريض الجسم، ولكنه أراد سقم النفس وغمّها وضيقها ونفرتها من كفرهم ـ وهذا السقم أشدّ على النفس من سقم الجسم، وَقَصد من وراء هذا التعريض أن يخلو بأصنامهم، وقد فعل ذلك ولم يَترك منها سوى صنم واحد وهو أكبرها، وعلَّق الفأس برأس هذا الصنم الكبير.

فلما جاؤوا: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

فقالت طائفة منهم: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ أي: كان يذكر الأصنام بسوء وتضليل، وسمعناه يَحلف أنه ليكيدنَّهم، فهو الذي كسَّرها.

﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أي: أحضروه على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر من الناس، لعلهم يشهدون بفعله وقوله ذلك، ثم يَشهدون عقوبته الشديدة بفعله ذلك.

وكان هذا الجمع والحَفْل الكبير هو المقصود للخليل عليه

السلام، ليُبيِّن لهم في هذا المحفل العظيم كثرة جَهلهم، وقِلَّةَ عقلهم في عبادة الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضُراً، ولا تملك لها نَصْراً، فكيف يُطلب منها شيء من ذلك؟

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ **وهذا الموضع الثالث الذي سلك** فيه الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام مسلكاً تعريضياً يُؤدِّي به إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه، وَيَحملهم على التأمل في شأن آلهتهم، مع ما فيه من التوقِّي من الكذب.

وقد ذكر علماء التفسير: كالنسفي والآلوسي وغيرهما في ذلك وجوهاً من التعريض نذكر بعضاً منها.

١ ـ إن الخليل عليه السلام أبرز كبير الأصنام قولاً في معرض المباشر لفعل الكسر بإسناد الفعل إليه إسناداً مَجازيّاً عقلياً، كما أبرزه في ذلك المعرض فِعلاً بجعل الفأس في عنقه أو في يده.

وقد قصد الخليل عليه السلام إسناد الفعل إلى كبير الأصنام بطريق التسبب، حيث رأى الخليل تعظيمهم لهذا الصنم الكبير أشدَّ من تعظيمهم لبقية الأصنام المصطنعة حول هذا الكبير، فغضب لذلك زيادة الغضب، فَأَسند الفعل إلى كبير الأصنام إسْناداً مجازياً عقلياً، باعتبار أنه الحامل الأكبر له على فعل التكسير.

وإنما لم يكسر كبير الأصنام وإن كان مُقتضى غضبه أن يفعل ذلك ليُظهر لهم الحجة والبرهان: على أن هذا الصنم الذي يَعبدونه ويُعظمونه كل التعظيم هو حجر أصمّ، أبكم أعمى، لا يعي ولا ينطق.

٢ ـ إنَّ نسبة فعل التكسير إلى كبير الأصنام جاء من الخليل عليه السلام حكاية لما يلزم من مَذهب قومه الذين هاموا في عبادته.

قال العلامة النسفي: فكأنه قال لهم: ما تُنكرون أن يفعله كبيرهم، فإِنَّ مِنْ حقِّ مَنْ يُعبَد ويُدعىٰ إلّهاً ـ كبيراً ـ أن يَقدر على هذا.

ويُحكى أنه عليه السلام قال: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، لأنه غضب أن تُعبَد هذه الأصنام الصغار معه وهو أكبر منها. اهـ.

٣ ـ إنَّه عليه السلام لم يقصد بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ إلا إثبات الفعل لنفسه على الوجه الأبلغ، مُضمناً فيه الاستهزاء بعُبَّاد الأصنام، والتبكيت عليهم، وملزماً لهم الحجة.

كما إذا قال لك رجل أميٌّ، وقد كتَبْتَ كتاباً بخط رشيق أنيق، وأنت شهير بحسن الخط، فقال الأميُّ: أنتَ كتبتَ هذا؟ فقلتَ له: بل كتبته أنت، فإنك لم تقصد نفيه عن نفسك وإثباته للأمي، وإنما قصدت إثباته وتقريره لنفسك مع الاستهزاء بمخاطِبِكَ، وهو الأميُّ.

٤ ـ إنَّ الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ والضمير المستتر فيه يعود على فَتىً، أو إلى إبراهيم المتقدم ذكره.

وقد حكى العلامة النسفي وغيره عن الكسائي الوقف على قوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ قال النسفي: وجاز أن يكون الفاعل مُسنداً إلى الفتى المذكور في قوله: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أو إلى إبراهيم في قوله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ثم قال: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وهو مبتدأ وخبر. قال: والأكثر أنه لا وقف، والفاعل كبيرهم إلخ. اهـ.

وهذه الوجوه من التعريض مذكورة في معظم التفاسير، وهي مُفصلة في تفسير النسفي والآلوسي وغيرهما، وهناك وجوه أُخرى لهذا التعريض عَدلْنا عنها مخافة الإطالة، وفيما ذكرناه كفاية إنْ شاء الله تعالى.

وأما اعتذارُ سيدنا موسى الكليم على نبينا وعليه الصلاة والسلام عن التقدم للشفاعة بسبب قتله النفس، وعدِّ ذلك خطيئة كما تقدم:

فقد بيَّن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ شايع موسى على دينه من بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ قِبْطِيٌّ من مخالفي موسى.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قال العلاّمة النسفي: فضربه بجمع كفِّه، أو بأطراف أصابعه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أماته ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ فالإشارة بقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ تعود إلى القتل الحاصل بغير قصد؛ وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان، وسمَّاه ظُلماً لنفسه واستغفر منه، لأنه قتله قبل أن يُؤذن له في القتل، ويدلُّ على ذلك قول موسى عليه السلام حين طُلبتْ منه الشفاعة: «وإني قتلتُ نفساً لم أؤمر بقتلها» الحديث كما تقدم.

ولذا قال ابن جُريج: ليس لنبيٍّ أن يقتل ما لم يُؤمر. اهـ.

وقيل: إن الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ تعود إلى عمل المقتول لا إلى عمل موسى نفسه، والمعنى: أن عمل هذا المقتول من عمل الشيطان، والمراد من ذلك بيان كونه مخالفاً لأمر الله سبحانه وتعالى مستحقاً للقتل.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بقتل القبطيِّ الكافر من غير أمرٍ ﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

فلو أَنَّ هذا القتل لتلك النفس الكافرة التي حاولت إيذاء المسلم وقتله ـ صدر من غير موسى عليه الصلاة والسلام ومَن غير الأنبياء: لم يكُ يُعدّ خطيئة أصلاً.

قال العلاَّمة القاضي عياض رضي الله عنه: وانظر هذه الخطايا التي ذُكرت للأنبياء من أكل آدم عليه الصلاة والسلام من الشجرة ناسياً، ومن دعوة نوح عليه الصلاة والسلام على قومه على قومٍ كفَّار، ومِنْ قَتْل موسى صلى الله تعالى على نبينا وعليه الكافرَ ولم يُؤمر بقتله، ومدافعة إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم الكُفَّار بقول عرَّض به هو فيه من وجهٍ صادق، وهذه كلُّها في حقِّ غيرهم ليست بذنوب، لكنهم أشفقوا منها إذ لم تكن عن أمر الله تعالى، وعُتِب على بعضهم فيها بقدر منزلتهم في معرفة الله تعالى. اهـ.

وأما اعتذار سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: فيقول: «لستُ هناكم» ويقول مهتماً بنفسه: «نفسي نفسي نفسي، لا يهمني اليوم إلا نفسي» ويقول: «إني اتُّخذت إلَهاً من دون الله» وفي رواية: «عُبدتُ من دون الله» ويقول: «أنْ يَغفر الله لي حسْبي» إلى آخر الروايات كما تقدم.

وقول عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: «لست هناكم ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، عبداً قد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر» في هذا ما يدل على اعتراف الجميع بفضل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإقرارهم بكمال

أهليته للشفاعة حينذاك، في الوقت الذي كان التجلي فيه بالغضب، وكانوا كلهم مهتمين بأنفسهم، فإذا به صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أنا لها أنا لها».

وفي هذا دليل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم أحبُّ المحبوبين وأقرب المقرَّبين إلى رب العالمين، وذلك أنّه لم يؤذن لأحد من مقربي البشر ولا من مقربي الملائكة عليهم الصلاة والسلام، أن يتقدم في ذلك الموقف المهيب الرهيب فيشفع عند رب العزة إلا السيد الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

رابعاً: في معنى أنَّ عيسى عليه السلام «كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه».

أما كونه «كلمة الله»: فالمراد أنه وُجِد بكلمة الله ﴿كُن﴾ من غير أب، كما قال تعالى في الجواب لوالدته السيدة مريم: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ يعني: أَنَّ صفة عيسى عليه السلام وشأنه العجيب كصفة آدم عليه السلام في خلقه من غير أبوين ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

فعيسى خُلق بلا أب، وآدم خلق بلا أبٍ وأمٍّ، فحال آدم في خلقه وشأنه أغرب وأعجب من حال عيسى عليهما السلام؛ وفي هذا إفحام للخصم، وقطع لشبهته في شأن عيسى ابن مريم عليه السلام.

فعيسى عليه السلام أَثَرُ كلمة الله التكوينية وهي قوله: ﴿كُن﴾

وهذا من باب إطلاق اسم المصدر وإرادة اسم المفعول نظير قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فالمراد هنا برحمة الله تعالى: الجنة، وليس المراد بذلك أنها هي ذات الرحمة الإلٰهية التي اتصف الله تعالى بها، بل المراد أَنّ الجنة أثر رحمة الله تعالى التي هي صفة الله تعالى.

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ والمراد برحمته هنا المطر، فإنه أثر رحمته سبحانه، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.

وقد يقال: إذا كان كذلك فإن جميع الأشياء الموجودة إنما وُجدت بقوله: ﴿كُن﴾ فيلزم من ذلك أن يكون العالم كله كلمات الله تعالى؛ أي: آثار كلماته التكوينية.

قلنا في الجواب: نعم، ولكن إنما اشتهر عيسى عليه السلام بذلك، ووُصف بذلك، باعتبار أنه أولى وأحقُّ، حيث إنَّ تخليقه كان على غير الطريقة المعتادة في غيره، بل على وجهٍ خارق للعادة، فَحُقَّ له أن يُخصَّص بما يُميِّزه عن غيره، ولينبِّه على أن كلمة ﴿كُن﴾ من رب العالمين لا يُعجزها شيء، ولا يجاوزها شيء.

فعيسى أثر كلمة الله ﴿كُن﴾ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ فإن الملقىٰ إلى مريم هو أثر كلمة ﴿كُن﴾ وهو عيسى المخلوق بـ ﴿كُن﴾ فلو كان عيسى نفس الكلمة أي: نفس الصفة القائمة به سبحانه فكيف تُلقى إلى مريم؟ إذ الصفة لا تفارق

الموصوف إلى غيره، ولا تلقى إلى غير من اتصف بها.

وأما أنه: «روح منه» فالمعنى: أن عيسى عليه السلام روح ابتُدىء خلقُها من الله تعالى لا من غير الله، ولا أنه بعض من الله، فـ ﴿مِن﴾ ابتدائية وليست تبعيضية.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني أن ابتداء خلق ذلك كله من الله سبحانه لا من إلّه غيره.

فمَن توهَّم أن عيسى مِن الله: بَعضاً وجزءاً يجب عليه أن يَحكم على العالم كله بسماواته وأرضه أنه بَعض من الله وجزء منه سبحانه! لأن هذا ورد أنه منه، وذلك ورد أنه منه سبحانه ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد، وأنه هو سبحانه الذي بدأ الخلق ثم يعيده.

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الآية.

فالعالَم بدأ خلقه من الله تعالى، ثم الله يُعيده، ومنه روح عيسى عليه السلام، بَدَأ الله تعالى خلقها كما بدأ خلق الأرواح كلها سبحانه، وكما بدأ خلق الأشباح كلها سبحانه، وكما بدأ خلق السماوات والأرض.

وفي ذلك ردٌّ على من زعم أن عيسى إلّه ـ كلاَّ بل هو عبد الله ورسول الله، وبَدْءُ خلقه من الله تعالى.

* * *

أنواع الشفاعات الخاصة

الشفاعات الخاصة أنواعها كثيرة:

منها شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوم؛ فيدخلهم الله تعالى الجنة بغير حساب، ويدل على ذلك ما تقدَّم في آخر حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فأرفع رأسي فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي.

فيقال: يا محمد أدخِل من أمتك مَن لا حساب عليهم من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب».

ومنها الشفاعة في قوم حوسبوا واستحقُّوا العذاب ـ أن لا يُعذَّبوا.

ويدل على ذلك ما رواه مسلم، عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تُزلف ـ أي: تقرَّب ـ لهم الجنة.

فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا.

فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟ لستُ بصاحب ذلك، إذهبوا إلى إبراهيم خليل الله تعالى».

قال: «فيقول إبراهيم: لستُ بصاحب ذلك، إنما كنت خليلاً من وراء وراء[1] اعمدوا إلى موسى الذي كلمه الله تكليماً.

فيأتون موسى فيقول: لستُ بصاحب ذلك، إذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه.

فيقول عيسى: لست بصاحب ذلك.

فيأتون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فيقوم فيؤذن له ـ أي: بالشفاعة ـ وتُرسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط: يميناً وشمالاً ـ أي: تقومان لتطالبا المارِّين على الصراط بحقهما ـ فيمر أوَّلكم كالبرق».

قال: قلت بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله: أيّ شيء كالبرق؟

قال: «ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ ويرجع في طرفة عين؟ ثم

---

(١) قال الإمام النووي في: (شرحه) لمسلم: قال صاحب (التحرير): هذه كلمة تُذكر على سبيل التواضع، أي: لستُ بتلك الدرجة الرفيعة.
قال: وقد وقع لي معنى مليح فيه، وهو معناه ـ أي: معنى كلام الخليل ـ أن المكارم التي أعطيتها كانت بواسطة سفارة جبريل عليه السلام، ولكن ائتوا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فإنه حصل له سماع الكلام بغير واسطة.
قال: وإنما كرر «وراء وراء» لكون نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حصل له السماع بغير واسطة، وحصل له الرؤية، فقال إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم: أنا وراء موسى الذي هو وراء محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين ـ هذا كلام صاحب التحرير. اهـ كلام النووي.
وفي هذا بيان فضل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الجميع.

كمرِّ الريح، ثم كمرِّ الطير، وشدِّ الرجال ـ تجري بهم أعمالهم.

ونبيُّكم قائم على الصراط يقول: ربِّ سلِّم سلِّم ـ حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً».

قال: «وفي حافتَي الصراط ـ أي: على جانبيه ـ كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أُمِرت به، فمخدوش ناجٍ، ومكدوس في النار.

والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً»[1].

المخدوش الناجي: هو المجروح الذي خُدش ولكنه نُجِّي من الوقوع في النار، والمكدوس هو الموقوع في النار.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُوضع للأنبياء منابر من نور، يجلسون عليها، ويبقى منبري لا أجلس عليه؛ قائماً بين يَدَيْ ربي مخافة أن يُبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي.

فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي.

فيقول الله عزّ وجل: يا محمد ما تريد أن أصنع بأمتك؟

فأقول: يا ربِّ عَجِّلْ حسابهم.

---

(١) قال الإمام النووي: ووقع في معظم الأصول والروايات لسبعين بالياء وهو صحيح أيضاً.
أما على مذهب من يحذف المضاف ويُبقي المضاف إليه على جره، فيكون التقدير سير سبعين خريفاً.
وأما على أن قعر جهنم مصدر، يقال قعرت الشيء إذا بلغت قعره، ويكون سبعين ظرف زمان، وفيه خبر إن، والتقدير إن بلوغ قعر جهنم لكائن في سبعين خريفاً. والخريف: هو السَّنَة والله أعلم. اهـ.

فيُدْعى بهم فيُحاسَبون.

فمنهم مَن يدخل الجنة برحمته، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي، فما أزال أشفع حتى أُعطى صِكاكاً - أي: كتباً - برجال قد بُعث بهم إلى النار، حتى إن مالكاً خازن النار ليقول: يا محمد ما تركتَ لغضب ربك في أمتك مِنْ نقمة»[1].

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أشفع لأمتي حتى يناديني ربي تبارك وتعالى فيقول: أقَدْ رضيتَ يا محمد؟ فأقول: أيْ ربِّ قد رضيت»[2].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خُيِّرتُ بين الشفاعة أو يَدخُل نصف أمتي الجنة؟ فاخترت الشفاعة، لأنها أعمّ وأكفى، أَمَا إنها ليست للمؤمنين المتقدمين، ولكنها للمذنبين الخطَّائين المُتَلوِّثين»[3].

ومن أنواع الشفاعة الخاصة: الشفاعة في إخراج عصاة المؤمنين من النار:

روى مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لكلِّ نبي دعوة مستجابة، فتعجَّل كلّ

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في: (الكبير) و(الأوسط) والبيهقي في: (البعث) وليس في إسنادهما متروك. اهـ.

(٢) قال في (الترغيب): رواه البزار، والطبراني، وإسناده حسن إن شاء الله اهـ.

(٣) قال في (الترغيب): رواه أحمد، والطبراني واللفظ له وإسناده جيد، ورواه ابن ماجه من حديث أبي موسى رضي الله عنه بنحوه. اهـ.

نبيٍّ دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أُمَّتي لا يشرك بالله شيئاً».

والمراد أَنّ لكل نبي دعوة تتعلق بعامة أمته؛ محقَّقةَ الإجابة، كما بيَّن ذلك القاضي عياض رحمه الله تعالى ـ فإن أدعية الأنبياء مجابة.

قال الإمام النووي رضي الله عنه: وفي هذا الحديث بيانُ كمال شفقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أمته، ورأفته بهم، واعتنائه بالنظر في مصالحهم المهمة، فأخَّر دعوته لأمته إلى أهمِّ أوقات حاجاتهم.

قال: وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فهي نائلة إن شاء الله تعالى مَن مات من أُمتي لا يشرك بالله شيئاً» ففيه دلالة لمذهب أهل الحق أَنَّ كل من مات غير مشرك بالله تعالى لم يخلد في النار؛ وإن كان مُصِرّاً على الكبائر.

قال رحمه الله تعالى: وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن شاء الله تعالى» هو على جهة التبرّك، والامتثال لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ والله أعلم. اهـ.

وروى البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيدخلون الجنة يُسَمَّون الجُهَنَّمِيِّيْن».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يخرج من النار قوم بالشفاعة كأنهم الثَّعارير».

قلنا: وما الثعارير؟

قال: «الضغابيس»[1].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يدخل من أهل هذه القبلة النار مَن لا يُحصي عددهم إلا الله؛ بما عصوا الله، واجترؤوا على معصيته، وخالفوا طاعته».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فيُؤذَن لي في الشفاعة فَأُثني على الله ساجداً كما أُثني عليه قائماً، فيقال لي: ارفع رأسك، وسل تعطهْ، واشفع تُشفَّع»[2].

حال العُصاة في جهنم

روى الإمام مسلم، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحيَون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال: بخطاياهم ـ فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فَحماً: أُذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائرَ ضبائرَ، فبثُّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحِبَّة تكون في حَميل السيل».

---

(١) الثعارير: جمع ثعرور كعصافير جمع عصفور. والضغابيس: جمع ضغبوس وهو صغار القثَّاء.

(٢) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في: (الكبير) و(الصغير) بإسناد حسن. اهـ.

فقال رجل من القوم: كأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد كان بالبادية.

قال الإمام النووي: والظاهر ـ والله أعلم ـ من معنى هذا الحديث: أن الكفار الذين هُم أهل النار، والمستحقون للخلود لا يموتون فيها ولا يحيون حياةً ينتفعون بها ويستريحون معها كما قال الله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ وكما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

وهذا جارٍ على مذهب أهل الحق: أَن نعيم أهل الجنة دائم، وأن عذاب أهل الخلود في النار دائم ـ أي: خلافاً للجهمية في ذلك ـ.

قال رحمه الله تعالى: وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولكن ناس أصابتهم النار» إلى آخره، فمعناه: أن المذنبين من المؤمنين يُميتهم الله تعالى إماتة بعد أن يُعذَّبوا المدة التي أرادها الله تعالى، وهذه الإماتة إماتة حقيقية، يذهب معها الإحساس، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم، ثم يميتهم ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساس ـ المدة التي قدرها الله تعالى ـ ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فَحماً، فَيُحملون ضبائر ضبائر ـ أي: جماعات جماعاتٍ ـ كما تُحمل الأمتعة، ويُلْقون على أنهار الجنة، فيصبُّ عليهم ماء الحياة فيحيون وينبتون ـ أي: تنبت أجسادهم ـ نبات الحِبَّة في حميل السيل في سرعة نباتها وضعفها، فتخرج لضعفها صفراء ملتوية، ثم تشتدّ قوتهم بعد ذلك، ويصيرون إلى منازلهم، وتكمل أحوالهم.

قال رحمه الله تعالى: فهذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه.

قال: وحكى القاضي عياض رحمه الله تعالى فيه ـ أي: في معنى الحديث ـ وجهين:

أحدهما: أنها إماتة حقيقية ـ أي: كما تقدم تفصيله ـ.

والثاني: ليست بموت حقيقي، ولكن يُغَيَّبُ عنهم إحساسهم بالآلام ـ أي: بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فأماتتهم إماتة» أي: نوعاً من الإماتة غير الموتة المعهودة ـ.

قال: ويجوز أن تكون آلامهم أخفَّ ـ يعني: أَنَّ تَحسُّس العُصاة بالعذاب يكون أخف من تحسس الكفار؛ بسبب الإيمان في قلوبهم، فإن النار لا تطَّلع على أفئدتهم، بخلاف الكفار فإنَّ النار تَعُمّ كلّ ذرةٍ فيهم، حتى إنها تطلع على أفئدتهم ـ عياذاً بالله تعالى.

قال الإمام النووي: فهذا كلام القاضي، والمختار ما قدَّمناه والله أعلم. اهـ.

الشفاعة في عُصاة المؤمنين وإخراجهم من النار على طبقات مختلفة في المُدّة

روى الشيخان، عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض.

فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربك.

فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن.

فيأتون إبراهيم فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله.

فيأتون موسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام، فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فيأتوني فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي، ويُلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأَخِرُّ له ساجداً.

فيقال: يا محمد: ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسلْ تعطه، واشفع تشفَّع.

فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي.

فيقال: انطلق، فأخْرِجْ منها ـ أي: النار ـ مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، وأخِرّ له ساجداً.

فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسلْ تعطهْ، واشفع تشفع.

فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي.

فيقال: انطلقْ فأخرِج مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة؛ أو خردلة من إيمان.

فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخِرّ له ساجداً.

فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل: يُسمع لك، وسل تعطهْ، واشفع تشفع.

فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي.

فيقال: انطلقْ فأخرِج مَن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبَّة خردلةٍ من إيمان فأخرِجْه من النار.

فأنطلق فأفعل ـ ثم أعود الرابعة: فأحمده بتلك المحامد، وأخرُّ له ساجداً.

فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل: تسمع، وسل تعطهْ، واشفع تشفع.

فأقول: يا ربِّ إئذن لي فيمن قال: لا إلّه إلا الله.

قال: ليس ذلك لك، ولكن وعزَّتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي لأُخرجنّ منها مَن قال: لا إلّه إلا الله».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلتُ: يا رسول الله ماذا رَدَّ إليك ربك في الشفاعة؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لقد ظننتُ أنك أول من يسألني عن ذلك من أمتي، لما رأيت من حرصك على العلم.

والذي نفس محمد بيده: لَمَا يَهُمُّني من انقصافهم[1] على

---

(١) قال ابن الأثير في: (النهاية) مفسراً لهذه الجملة: يعني استعادَهم بدخول الجنة ـ أي: حصول السعادة لهم بدخول الجنة ـ وأن يتمَّ لهم ذلك أهمّ عندي من أن أبلغ أنا منزلة الشافعين المشفَّعين، لأن قبول =

أبواب الجنة أهمّ عندي من تمام شفاعتي لهم، وشفاعتي لمن شهد أن لا إلّه إلا الله مخلصاً وأن محمداً رسول الله: يصدِّق لسانُه قلبَه وقلبُه لسانه»[1].

وروى البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله مَن أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولَ منك لما رأيت من حرصك على الحديث.

أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة مَن قال: لا إلّه إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه».

شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم في رفعة الدرجات في الجنة

ورد في الأحاديث النبوية أن هناك شفاعة خاصة معلقة على أسباب خاصة، فمن جاء بذلك السبب نال تلك الشفاعة، فإن كانت له ذنوب ومعاصٍ لم يتب منها غفر الله تعالى له بتلك الشفاعة حسب مشيئة الله تعالى وحكمته، وإن لم تكن له ذنوب ومعاص رُفعت درجاته في الجنة بسبب تلك الشفاعة.

= شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم كرامة له، فوصولهم إلى مبتغاهم ـ وهو الجنة ـ آثر عنده من نيل هذه الكرامة، لفرط شفقته على أمته صلى الله عليه وآله وسلم. اهـ.

(١) رواه الإمام أحمد، وابن حبان في: (صحيحه) كما في: (ترغيب) المنذري.

فمن تلك الأسباب:

سؤال الدعاء بالوسيلة والمقام المحمود عقب الأذان:

روى مسلم وأصحاب السنن، عن ابن عمرو رضي الله عنهما، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا سمعتم المؤذِّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه مَن صلى عليّ صلاة صَلَّىٰ الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنَّها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو ـ فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة».

وروى البخاري وأصحاب السنن، عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَن قال حين يسمع النداءِ: اللهمّ ربَّ هذه الدِعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ـ حلَّت له شفاعتي يوم القيامة».

وزاد البيهقي في روايته: «إنك لا تخلف الميعاد».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول إذا سمع المؤذن: «اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، صلِّ على محمدٍ، وأعْطه سُؤْله يوم القيامة».

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُسمعها مَن حوله، ويُحبُّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يقولوا مثل ذلك إذا سمعوا المؤذن.

قال: «ومَن قال مثل ذلك إذا سمع المؤذن وجبتْ له شفاعة

محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة»[١].

ومن أسباب شفاعته الخاصة: زيارته الكريمة صلى الله عليه وآله وسلم:

فعن حاطب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن مات بأحد الحرمين بُعث من الآمنين يوم القيامة»[٢].

وعن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مَن زار قبري ـ أو قال: من زارني ـ كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين بَعثه الله في الآمنين يوم القيامة»[٣].

وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن مات في أحد الحرمين بُعث من الآمنين يوم القيامة[٤]، ومَن زارني محتسباً إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة»[٥].

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني في: (الكبير) و(الأوسط). اهـ.

(٢) قال الحافظ المنذري: رواه البيهقي عن رجل من آل حاطب لم يُسَمِّهِ من حاطب. اهـ.

(٣) قال المنذري: رواه البيهقي وغيره عن رجل من آل عمر لم يُسَمِّه عن عمر رضي الله عنه. اهـ.

(٤) وفي هذا بشرى لمن مات في أحدهما بالموت على الإسلام، إذ لا يبعث من مات على غير الإسلام آمناً.

(٥) قال الحافظ الزرقاني: أي: كان في أماني وعهدي، فلا يناله مكروه ـ والمراد أن له منزلة رفيعة في الآخرة. اهـ.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من زار قبري وجبتْ له شفاعتي»(١).

أي: يخصه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشفاعة ليست لغيره إما: بزيادة نعيم، أو تخفيف هول ذلك اليوم عنه، أو دخول الجنة بغير حساب، أو رفع درجاته في الجنة، أو بزيادة شهود الحق تعالى والنظر إليه، أو بغير ذلك من أنواع الإنعام والإكرام.

وفي: (المعجم الكبير) للطبراني، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَن جاءني زائراً لا تُعمله ـ أي: لا تحمله على العمل حاجة ـ إلا زيارتي: كان حقاً عليَّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة»(٢).

ويكفي بهذه الأحاديث التي ذكرناها، وتنوّع رواياتها، وكثرة طرقها: دليلاً صريحاً في مشروعية زيارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحثه عليها، وترغيبه صلى الله عليه وآله وسلم فيها، وبيانه لفضائل زيارته الكريمة ـ نسأل الله العظيم قبولها، واستمرارها، بجاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندالله تعالى.

ومن أسباب شفاعته الخاصة صلى الله عليه وآله وسلم: الموتُ

---

(١) قال في: (المواهب وشرحها): رواه الدارقطني، وأبو الشيخ، وابن أبي الدنيا كلهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ورواه عبد الحق في: (أحكامه الصغرى) و(الوسطى) وسكت عنه، وسكوته عن الحديث فيه دليل على صحته. اهـ.

(٢) قال القسطلاني: صححه ابن السكن، وهو من كبار الحفاظ النقاد. اهـ.

في مدينته الطيبة، والصبر على لأوائها ـ زادها الله تعالى شرفاً ورفعةً، ونفحنا الله تعالى بنفحاتها الطيبة.

روى الترمذي، عن ابن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَن استطاع أن يموت بالمدينة فليمتْ بها؛ فإني أشفع لمن يموت بها».

ورواه ابن ماجه بلفظ: «من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليفعل؛ فإني أشهد لمن مات بها».

وروى الطبراني بإسناد حسن، عن امرأة يتيمة كانت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ثقيف، أَنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإنَّ مَن مات بها كُنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة».

وروى مسلم، عن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني أحرِّم ما بين لابَتَيِ المدينة ـ أي: حرَّتَيْها وطرفيها ـ أن يُقطَع عِضاهها[1] أو يُقتل صيدها».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبةً عنها إلا أَبدل الله فيها مَن هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها[2] وجُهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة».

---

(١) قال في: (الترغيب): العضاه بكسر العين المهملة، وبالضاد المعجمة، وبعد الألف هاء ـ جمع عِضَاهة، وهي شجرة الخمط، وقيل: بل كل شجرة ذات شوك، وقيل: مَا عظم منها. اهـ.

(٢) اللأواء بالهمز والمدِّ هي: شدة الضيق. اهـ: (ترغيب).

وزاد مسلم في رواية: «ولا يُريد أحد أهلَ المدينة بسوء إلا أذابه الله تعالى في النار ذوب الرصاص؛ أو ذوب الملح في الماء».

وعن عبد الله بن عبَّاد رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أول من أشفع له أهلُ المدينة، ثم أهل مكة، ثم أهل الطائف»[1].

ومن أسباب شفاعته الخاصة كثرة الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم:

روى الترمذي، وابن حبان في: (صحيحه) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أولى الناس بي يوم القيامة ـ أي: أحقهم بشفاعتي وبإكرامي ـ أكثرُهم عليّ صلاةً».

وعن رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن قال: اللهم صلِّ على محمد، وأنزله المقعد المقرَّب عندك يوم القيامة ـ وجبتْ له شفاعتي»[2].

---

(١) رواه البزار في: (مسنده)، وابن شاهين، وأخرجه ابن بكار من طريق أُخرى، كما في: (شرح المواهب).
(٢) قال المنذري: رواه البزار، والطبراني في: (الكبير) و(الأوسط)، وبعض أسانيدهم حسن. اهـ.
وقال في: (المواهب وشرحها) قال ابن كثير: وإسناده حسن ولم يُخرجوه اهـ ـ أي: لم يخرجه أصحاب السنن ونحوهم، ولا يضر ذلك إسناده.

والمراد هنا بالمقعد المقرَّب: أعلى منازل الجنة، وهو مقام الوسيلة، فإنها أعلى منزلة في الجنة.

وروى الإمام أحمد، عن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه، أَنَّ رجلاً قال: يا رسول الله أرأيتَ إن جعلتُ صلاتي كلَّها عليك؟ ـ أي: جعلت دُعائي كلّه صلاة عليك ـ

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذاً يكفيك الله تبارك وتعالى ما أهمَّك من دنياك وآخرتك»[1].

وأخرج الطبراني بسند جيد، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن صلى عليّ حين يصبح عشراً، وحين يمسي عشراً: أدركته شفاعتي يوم القيامة».

وأخرج البيهقي في: (الشُّعب) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة، وليلة الجمعة، فمن فعل ذلك كنت له شهيداً أو شافعاً يوم القيامة»[2].

* * *

---

(١) قال الحافظ المنذري: وإسناده جيد. اهـ.
قلت: وهذا الحديث جاء بروايات أطول من هذه في: (سنن) الترمذي مع تصحيح له، والطبراني وتحسينه، والحاكم.

(٢) انظر: (الخصائص الكبرى).

شفاعات الأنبياء والملائكة والصِّديقين والعلماء والشهداء والصالحين

قال الله تعالى في الكفار: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

وفي مفهوم هذه الآية دلالة على أن هناك شفعاء يشفعون، وأن المسلمين ينتفعون بشفاعتهم، ولكن الذي يفتح باب الشفاعة للشفعاء ـ وهو شفيع الشفعاء ـ هو: سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الدارمي، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شافعهم إذا حُبسوا، وأنا مبشِّرهم إذا أيسوا، ولواء الكرم بيدي، ومفاتيح الجنة بيدي، ولواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر، يطوف عليَّ ألفُ خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون».

ورواه الترمذي، والبيهقي، وأبو يعلى كما في: (الخصائص الكبرى).

وجاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والبزار وأبو يعلى، وابن حبان في: (صحيحه) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفيه

فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أيْ ربِّ جعلتني سيِّد ولد آدم ولا فخر، وأولَ من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، حتى إنه ليرد عليَّ الحوض أكثر ما بين صنعاء وأيلة.

ثم يقال: أُدعوا الأنبياء، فيجيء النبي ومعه العصابة ـ أي: الجماعة الكثيرة ـ والنبي معه الخمسة والستة، والنبي ليس معه أحد؛ فيشفعون.

ثم يقال: أُدعوا الصديقين فيشفعون.

ثم يقال: أُدعوا الشهداء فيشفعون فيمن أرادوا» الحديث كما في: (ترغيب) المنذري.

وجاء في الحديث الطويل المتفق عليه، وفيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فيقول الله تعالى شفَعتِ الملائكة، وشفَع النبيون، وشفَع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين» الحديث.

وروى ابن ماجه، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء».

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ليدخلنَّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبيٍّ مثلُ الحيَّيْن: ربيعة ومضر».

فقال رجل: يا رسول الله وما ربيعة من مضر؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أقولُ ما أُقوَّل»[١].

---

(١) قال في: (الترغيب): رواه أحمد بإسناد جيد. اهـ.

وقد ذكر في: (شرح الإحياء) نقلاً عن الحافظ فيما رواه في جزء أبي عمرو بن السماك وفيه: فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل هو عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: وإسناده حسن. اهـ.

وروى الطبراني، عن أبي أُمامة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أُمتي أكثر من عدد مضر، ويشفع الرجل في أهل بيته، ويشفع على قدر عمله»[1].

وروى الترمذي، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنَّ من أمتي مَن يشفع للفئام ـ أي: للجماعات والقبائل ـ ومنهم مَن يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعُصبة، ومنهم من يشفع للرجل ـ حتى يدخلوا الجنة» ورواه الإمام أحمد.

وروى الترمذي وابن ماجه، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ قرأ القرآن فاستظهره ـ أي: أجاد حفظه ـ فأحلَّ حلاله، وحرّم حرامه، أدخله الله الجنة، وشفّعه في عشرة من أهل بيته قد وجبت لهم النار».

وروى ابن ماجه، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُصَفّ أهل النار، فيمرّ بهم أهل الجنة فيقول الرجل منهم ـ أي: من أهل النار ـ يا فلان: أما تعرفني؟ أنا الذي سقيتك شَربة، وقال بعضهم: أنا الذي وهبت لك وَضوءاً

---

(١) انظر: (شرح الإحياء) للزبيدي.

ـ أي: ماء للوضوء ـ فيشفع له ـ أي: ذلك المؤمن الصالح ـ فيدخله الله الجنة».

قال في: (المرقاة): وعلى هذا القياس: مِن لُقمةٍ، وخرقة، أو نوع إعانة، أو جنس عطية، ولو بِشقِّ تمرة، أو كلمة طيبة، فإنَّ الغريق يتعلَّق بكل حشيش.

ثم قال: وفيه تحريض على الإحسان مع المسلمين؛ لا سيما مع الصلحاء، والمجالسة معهم، ومحبتهم، فإن محبتهم زين في الدنيا ونور في العقبىٰ. اهـ.

وقد أوضح في: (المرقاة) أن المراد بأهل النار هنا هم عصاة المؤمنين، فإنهم يُصفُّون حتى يمرَّ بهم أهل الجنة من العلماء الأخيار، والصلحاء الأبرار.

قال: وتكون هيئة العصاة على هيئة المساكين السائلين في طريق الأغنياء في هذه الدار.

❊ ❊ ❊

العرض على ربِّ العالمين

قال الله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾.

والمعنى: أن العباد يُعرَضون على ربهم مصطفِّين صفاً صفاً، ويقال للكافرين المنكرين للحشر: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي: حُفاة عراة، ليس معكم شيء مما كنتم تفتخرون به من: الأموال، والخدم، والحشم ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي: زعمتم وأنتم في الدنيا أن لن نجعل لكم وقتاً لحسابكم وسؤالكم.

روى الديلمي، وابن منده ـ واللفظ له ـ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى ينادي يوم القيامة: يا عبادي إني أنا الله لا إلَه إلا أنا أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، وأسرع الحاسبين، أحضروا حُجَّتكُم، ويسِّروا جوابكم، فإنكم مسؤولون مُحاسبون.

ويقول سبحانه: يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب»[1].

---

(١) انظر: (شرح الإحياء) و(تفسير) الآلوسي.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

روى ابن أبي الدنيا بإسناده، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (حاسِبوا أنفسكم قبلَ أن تُحاسَبُوا، وزِنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنَّه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسِبوا أنفسكم اليوم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾).

أي: فأحسنوا عملكم، وأصلحوا سرائركم، وطهِّروا نفوسكم من كل خبث وفساد، لأنكم سوف تُعرضون على عالِم السرِّ وأخفى.

والتزيّن لذلك العرض إنما يكون بلباس التقوى: تقوى القوالب والقلوب، تقوى السرِّ والعلانية، التقوى في الخلوات والجلوات، والتقوى في الجامع والطريق والشارع، والتقوى عند الميزان ووراء القبَّان، والتقوى في الشُّرفات والنوافذ على الجيران، وفي داخل البنيان.

قال العلامة الشيخ الشعراني رضي الله عنه: وأما العرض على الله يوم القيامة فهو مثل عرض العساكر على الملِك، فيوقَف العبد بين يدي ربه عزّ وجلَّ كما يَليق بجلاله، ويقع السؤال بحسب ما يريد الله عزّ وجلّ بذلك العبد، فَيَاله من موقف يتساقط لحم الوجوه من شدة الخجل والحياء من الله عزّ وجلّ.

وجاء في الحديث، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي: فآخِذٌ بيمينه وآخِذ بشماله».

ففي العرضة الأولى يُدافعون عن أنفسهم، حتى إن الكافر يقول لم تبلِّغْنا الأنبياء، ويُحاجُّون ويخاصمون.

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

فكل نفس تأتي يوم القيامة تُدافع وتجادل عن نفسها، ولا يهمها إلا نفسها، فلا يهمها شأن غيرها من وَلد ووالد، وتُوفَّى كل نفس ـ أي: تعطى وافياً كاملاً ـ جزاء عملها: خيراً أو شراً ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بزيادة العقاب ولا بنقص الثواب.

* * *

موقف الاختصام

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: يُخاصم الصادقُ الكاذبَ، والمظلومُ الظالمَ، والمهتدي الضالَّ، والضعيف المستكبر.

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن الزبير عن أبيه الزبير رضي الله عنهما قال: (لما نزلت هذه السورة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

قال الزبير رضي الله عنه: أيْ رسول الله، أيُكرَّر علينا ما كان بيننا في الدنيا، مع خواطر الذنوب؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم ـ ليكرَّرنّ عليكم حتى يُؤدَّى إلى كل ذي حقٍّ حقُّه».

قال الزبير رضي الله عنه: والله إن الأمر لشديد) ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وروى الإمام أحمد، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أول خصمين ـ أي: أول متخاصمين ـ يوم القيامة جاران».

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فالمستَضعفون ـ وهم الأتباع ـ والمستكبِرون ـ وهم المتبوعون ـ في الضلال: يقفون عند ربهم، ويتراجعون القولَ فيما بينهم بالخصام والجدل العنيف، وكلٌّ منهم يُلقي التَّبِعَة على غيره، ويدفع الملامة عن نفسه.

يقول الأتباع الضعفاء للمتبوعين المستكبرين: لولا أنتم تدعوننا إلى الكفر، وتضلِّلوننا بزخارف الأقوال: لكُنّا مؤمنين بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، لكن أنتم صددتمونا عن الحق وزينتم لنا الباطل.

فيقول المستكبرون عن الإيمان والهدى للمستضعفين: أنحن صددناكم عن الهدى الذي جاءت به الرسل واضحاً جلياً، ثابتاً بالبراهين والأدلة؟ بل كنتم مجرمين لاختياركم وإيثاركم الضلالَ على الهدى، وقبولكم للضلال وإعراضكم عن الهدى الذي جاءكم، فما نحن كفَّرناكم، بل أنتم كفرتم بإرادتكم.

فيقول المستَضعَفون للمستكبرين: بل مَكْرُكم بنا في الليل والنهار على وجه الاستمرار ـ أي: ما كان إجرامنا من جهتنا بل من جهة مكركم الدائب ليلاً ونهاراً ـ وحملكم إيانا على الكفر بالله تعالى، واتخاذ الأنداد، وإلباسكم أمتعة التضليل والتسويل حتى كفَّرتمونا.

وحينذاك كلٌّ من الطَّرَفين أسرَّ الندامة ـ أي: أضمرها.

وقيل: المراد أَظْهَرُوْها[1] وهذا مبني على أن هذا الفعل من الأضداد ـ أي: فصاروا كلُّهم نادمين على ما فعلوا:

ندم البُغاة ولاتَ ساعةَ مندمٍ   والبغيُ مرتع منتهاه وخيم

وفي: (المسند) أيضاً، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده إنه ليختصم حتى الشاتان فيمَ انتطحتا»؟

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنه قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شاتين ينتطحان فقال: «أتدري فيمَ ينتطحان يا أبا ذر»؟

قلت: لا.

---

(١) وقد ذكر هذا القول عدة من المفسرين ـ ومنهم الآلوسي حيث قال: وقيل: أسروا الندامة، بمعنى أظهروها، فإن (أسر) من الأضداد، إذ الهمزة تصلح للإثبات وللسلب، فمعنى أسره جعله سراً، أو أزال سره، ونظيره أشكيت، ثم قال: وتعقب ابن عطية هذا القول بأنه لم يَثبت قط في لغةٍ أن أسر من الأضداد ـ وأنت تعلم أن المثبت مقدم على النافي فلا تغفل. اهـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لكن الله يدري، وسيحكم بينهما».

قال الحافظ ابن كثير، وقد روى ابن منده في كتاب: (الروح) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (يختصم الناس يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد.

فتقول الروح للجسد: أنتَ فعلتَ.

ويقول الجسد: أنتِ أمرت وأنتِ سوَّلت.

فيبعث الله تعالى ملكاً يفصل بينهما فيقول لهما: إنَّ مثلكما كمثل رجل مُقعَد بصير، والآخر ضرير، دخلا بستاناً.

فقال المقعد للضرير: إني أرى ها هنا ثماراً، ولكن لا أصِلُ إليها.

فقال له الضرير: اركبني فتناولها ـ فأيهما المعتدي؟

فيقولان: كلاهما.

فيقول لهما الملك: فإنكما حكمتما على أنفسكما).

وروى الترمذي، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف من الأيدي: فآخذ بيمينه وآخذ بشماله».

ففي العرضة الأولى: يُدافعون عن أنفسهم، حتى إن الكافر يقول لم تبلِّغنا الأنبياء، ويحاجُّون ويخاصمون.

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

فكل نفس تأتي يوم القيامة تدافع وتجادل عن نفسها، ولا يهمُّها شأن غيرها: من ولد ووالد ـ إلا من أكرمه الله تعالى ـ وتوفى كُلُّ نفس ـ أي: تعطى وافياً كاملاً ـ جزاء عملها خيراً أو شراً، وهم لا يظلمون بزيادة العقاب ولا بنقص الثواب.

وأما العرضة الثانية ففيها يعترفون ويعتذرون بمعاذير مختلفة، فمن كان عذره صحيحاً قبله الله تعالى، ومن كان عذره غير صحيح رده الله تعالى، وذلك لأن الله تعالى يَقبل العذر الصحيح، كما جاء في: (الصحيحين)، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا أحد أحبُّ إليه العذرُ من الله تعالى» الحديث.

وقد جاء في حديث صاحب البطاقة الذي رواه الترمذي وغيره: «أن الله تعالى ينشر له تسعةً وتسعين سجلا، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟

فيقول: لا يا ربِّ.

فيقول: أفلَك عذر؟ فيقول: لا يا ربِّ» الحديث.

وأما قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾: فهذا يكون في بعض المواقف، وذلك أَنَّ يوم القيامة هو يوم طويل ذو مواطن متعددة، ومواقف كثيرة، ففي بعضها يتكلمون ويختصمون، وربما يحلف المشركون بالأيمان كذباً، كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية.

ثم يمرون على بعض المواقف فلا نُطْق ولا عذر ولا كلام، وقد جاء هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما في جوابه لابن الأزرق لما سأله عن ذلك[1].

وفي العرضة الثالثة يكون تطاير الصحف، وتفرُّقها على أهلها بغاية السرعة ـ كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١) انظر: (تفسير) الحافظ عماد الدين ابن كثير، والخطيب وغيرهما.

السؤال

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

روى الترمذي وغيره، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تُسألون عن: لا إلّه إلا الله»[(1)].

والمعنى أنهم يُسألون عن لا إلّه إلا الله من حيث الاعتقاد بها، ومن حيث القول، ومن حيث العمل؛ لأن الوفاء بلا إلّه إلا الله يقتضي ذلك كله.

وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.

وفي هذا الإخبار من الله تعالى المؤكد، عمَّا يُجريه سبحانه من السؤال: تنبيه للعباد أن يَستعدوا للجواب، وذلك أن الله تعالى سوف يَسأل الأمم عن مواقفها مع رسلها، وهل استجابوا لدعوتهم

---

(1) عزاه الحافظ ابن كثير إلى الترمذي، وأبي يعلى الموصلي، وابن جرير، وابن أبي حاتم.
وعزاه الآلوسي في: (تفسيره) إلى الترمذي ثم قال: وأخرجه البخاري في: (تاريخه) من وجه آخر عن أنس رضي الله عنه موقوفاً. اهـ.
قلت: والموقوف في مثل هذا حكمه كالمرفوع، لأنه لا مجال للرأي فيه ـ كما هو المقرر في أصول الحديث.

أم لا؟ وهل أطاعوا ما جاءت به الرسل من عند الله تعالى أم لا؟ وكيف كان حالهم مع رسلهم؟

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

فهو سبحانه يسأل عباده يوم القيامة عن التوحيد، والإيمان بالله تعالى، ويسألهم عن الإيمان بنبيِّهم المرسَل إليهم، كما سُئلوا في قبورهم فقيل لأحدهم: مَنْ ربُّك ومن نبيك وما دينك؟

فأما المؤمن فيشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري، ولهذا يأتي الكافر يوم القيامة ولا جواب له حين يُسأل.

ولهذا قال تعالى في الكفار: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: فعميت عليهم الأخبار والأعذار والحجج، فهم لا يجيبون ولا يحتجّون، ولا يسأل أحدهم الآخر لعله يُلَقِّنه الجواب، بل أُغلِق عليهم كل باب.

قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

والمراد هنا عمىٰ القلب والبصيرة لا عمى العين الباصرة.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

والمعنى مَنْ كان في الدنيا أعمى القلب عن رؤية آيات الله وآلائه، وحقائق الإيمان به؛ فهو في الآخرة أشدُّ عمىً وأضل سبيلاً.

روى الطبراني وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به فيقول: يا ابن آدم ما غرَّك بي؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبتَ المرسلين»؟[1].

وهكذا تُسأل العباد عن مواقفها مع رسلهم صلوات الله تعالى عليهم أجمعين.

جاء في: (صحيح) البخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وفيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «وليلقيَنَّ اللهَ أحدكم يومَ يلقاه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يُترجم له.

فليقولن سبحانه: ألم أبعثْ إليك رسولاً فبلَّغك؟

فيقول العبد: بلى» الحديث.

أي: فماذا عَمِلْتَ بما جاءك به رسولك صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وهكذا يسأل الله المرسلين: هل بلَّغوا رسالات الله تعالى، وأدَّوا الأمانة ونصحوا الأمة.

ولا شكّ أنّ الرسل قد بلَّغت رسالات ربِّهم، وأدّوا واجبهم على أكمل الوجوه، ونصحوا الأمة أسعد نصح، وأن الله تعالى يعلم ذلك كلَّه، ولا يخفى عليه شيء من ذلك.

---

(١) عزاه في: (الدر المنثور) إلى النسائي، وابن المبارك في: (الزهد) وابن مردويه، وذكره الحافظ ابن كثير في مواضع من: (تفسيره).

ولكن في هذا السؤال والإتيان بالجواب إقامة حجة على المنكرين والمكذبين للمرسلين، وإعلان للملأِ الكبير هناك أنه لا عذر لمعتذر، ولا حجة لمنكر، لأن الرسالات الإلٓهية بلَّغتها الرسل، وأقامت الحجج والبراهين على حقِّيَّتها وصدقها.

ومن ثمَّ لما خطب النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم حجة الوداع، في ذلك الجمع العظيم، والحفل الكبير، نبَّه الناس فقال: «أيُّها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون»؟

قالوا كلهم: نشهد يا رسول الله أنك قد بلَّغتَ، وأدَّيتَ، ونصحتَ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم ورفع إصبعه إلى السماء: «اللهم اشهد اللهم اشهد».

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُكثر في خطبه من قوله: «ألا هل بلّغت، اللهم اشهد»، ولا سيما في خطبته يوم حجة الوداع، صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا العالم ـ أي: عالَم السؤال ـ تشهد الرسل أنهم قد بلَّغوا أممهم، وتشهد هذه الأمة المحمدية على نبينا أفضل الصلاة والسلام للرسل قبلهم بالتبليغ، ويكون الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم شهيداً على أمته المتَّبعة بالعدالة والتزكية.

* * *

موقف شهادة هذه الأمة المحمدية على الناس قبلهم وشهادة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على هذه الأمة

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وقد جاء في الأحاديث النبوية بيان المراد من هذه الآية الكريمة:

فقد روى البخاري، وأصحاب السنن، والإمام أحمد واللفظ له، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلَّغتَ؟

فيقول: نعم.

فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلَّغكم؟

فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحدٍ.

فيقال لنوح: مَن يشهد لك؟

فيقول: محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته».

قال: «فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ـ قال: والوسط: العدل ـ فتُدعَوْن فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم».

يعني: أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو يُزكِّي أمته المتَّبعين له، ويعدِّلهم، ويشهد لهم بالثقة والعدالة حتى تُقبل شهادتهم، فلما ادَّعى نوح عليه السلام أنه بلَّغ طولب بالبيِّنة، وهي: الشهود على دعواه، فلما جيء بالشهود قيل لهم: مَن يُزكيكم ويُعدِّلكم؟.

فقالوا: يزكينا ويشهد لنا بالعدالة سيد العالمين، وأكرم الأولين والآخرين على الله تعالى.

وقد استندت شهادة هذه الأمة المتبعة على إخبار رسولها صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه سبحانه؛ الذي أنزل عليه القرآن، وأخبره فيه أن نوحاً وسائر الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم، وهذا الخبر أقوى في الإثبات من رؤية العيان.

وإلى هذا نبَّه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يَجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلّغكم هذا؟ ـ أي: نبيكم ـ فيقولون: لا.

فيقال له: هل بلَّغْتَ قومك؟ فيقول: نعم.

فيقال: مَن يشهد لك؟

فيقول: محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته.

فيقال لهم: ـ أي: لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ هل بلَّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم.

فيقال ـ أي: لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ: وما علمكم؟

فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أَنّ الرسل قد بلَّغوا».

فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وإنما كان خبر القرآن الكريم الذي جاء به رسولنا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أقوى من العيان: لأن العيان وحده أحد الدليلين في إثبات الأمور إذا صح نظر المعاين ولم يَنقضه البرهان، ولكن إذا تضافر الدليلان: العيان والبرهان على إثبات أمر؛ فليس بعده توقف ولا تِبْيان؛ بل حينذاك لا يختلف فيه اثنان.

ولا ريب أن حَقِّيَّة القرآن وثبوت أنه كلام الله تعالى: ذلك أمر ثابت بالبرهان والعيان، كما أن حقِّية نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وصدق رسالته: ذلك ثابت بالبرهان وبالعيان.

أما العيان فهي مُعجزاته الظاهرة في السماوات والأرض، والأحجار والأشجار، والظاهرة في خُلُقه صلى الله عليه وآله وسلم، والظاهرة في خَلْقه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

أما البرهان العقلي فهناك براهين لا تكاد تُحصى، نبَّه إليها القرآن الكريم قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ومعنى ذلك أن مَن تعقَّل في أمر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أيقن أنه حقاً نبي الله ورسول الله، لا يحتمل أمره غير ذلك، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أمياً لم يتعلم القراءة والكتابة، ولا استمع إلى عالم أو معلِّم، بل كان يَنعزل عن البشر، وقد رعى الغنم أياماً خالياً بنفسه مع ربه، ثم حُبب إليه الخلاء،

فكان يخلو بغار حراء، وهكذا مضت عليه أربعون سنة لم يأت بآية واحدة، ولم يقرأ عليهم شيئاً من القرآن، ثم بعد ذلك على تمام الأربعين سنة: يأتيهم بهذا القرآن المعجز، ويتلوه على الناس على أسلوب خاصٍّ غير معروف عند قومه، ولا بين كافة الناس، ويأتي بهذا القرآن الجامع لأنواع العلوم التي لا تُحصى، والمخبر عن العوالم التي لا تُستقصى، والمُبيِّن لجميع الأحكام الشرعية المشتملة على ما فيه صلاح الدنيا وسعادة الآخرة، على أكمل نظام وأبدع إحكام.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية.

فعند ذلك لا ينبغي أن يختلف اثنان بعد البرهان والعيان: الدالين على صدق هذا الرسول الكريم سيد ولد عدنان صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً.

ثم إنَّ ذلك المنصب ـ وهو منصب شهادة هذه الأمة على الأمم قبلها ـ هو منصب عالٍ شريف، خُصَّت به هذه الأمة المحمدية المتبعة لرسولها صلى الله عليه وآله وسلم ـ جعلنا الله تعالى منهم ـ ولهذا يقف هؤلاء الشهود يوم القيامة في مكان عالٍ مُشرف على الخلائق كلهم.

روى ابن مَرْدُويه، وابن أبي حاتم، عن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا وأمتي يوم القيامة على كَوْم مشرفين على الخلائق، وما من الناس أحد إلا ودَّ أَنَّه مِنَّا، وما

من نبيٍّ كذَّبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلَّغ رسالة ربِّه عزّ وجلّ»[١].

ولما كان هذا المنصب شريفاً مُنيفاً، كان حقيقاً بأن يُدعى به ويُسأل من الله تعالى نيله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: (أيْ فاكتبنا مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته، وهم الشاهدون الذين يشهدون لنبيهم أنه قد بلَّغ، ويشهدون للرسل أنهم قد بلَّغوا)[٢].

* * *

(١) انظر: (تفسير) الحافظ ابن كثير عند الآية.

(٢) قال ابن كثير: رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصحح إسناده. اهـ.

موقف شهادة الرسل على أممهم

قال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

يُخبر الله سبحانه في هذه الآية الكريمة عن هول يوم القيامة وشدة أمره، وكيف الحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد يشهد عليها وهو نبيها المبعوث فيها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ الآية.

روى البخاري، والترمذي، عن ابنِ مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرأ عليَّ القرآن».

قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أُنزل؟

قال: «نعم، فإني أحبُّ أن أسمعه من غيري».

قال ابن مسعود رضي الله عنه: فقرأت سورة النساء، حتى انتهيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ الآية.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حسبُك الآن» فإذا عيناه صلى الله عليه وآله وسلم تذرفان ـ أي: تدمعان.

فالمشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ هم أمة

محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ شَهِيدًا ﴾ قال العلامة النَّسَفِي: أي: شاهداً على مَن آمن بالإيمان، وعلى من كفر بالكفر، وعلى مَن نافق بالنفاق. اهـ.

وهكذا الرسل صلوات الله تعالى عليهم يَشهدون لمن آمن بالإيمان، وعلى مَن كفر بالكفر.

وأما قوله تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾.

فهذه الآية لا تتعارض مع الآيات السابقة، التي تُثبت جواب الرسل حين يسألهم الله تعالى عن أممهم، وتُثبت شهادة الرسل على أممهم، ولدفع التعارض وجوه:

أولاً: إن قوله تعالى للرسل: ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ ـ أي: ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى الإيمان؟.

﴿ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ أي: لا علم لنا بإخلاصهم، وما أخفوه في نفوسهم، يدل على ذلك تمام الآية ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ أي: ومن جملة الغيوب ما أضمروه في خفايا القلوب، والمعنى: لا علم لنا كعلمك فيهم، لأنك تعلم ما أضمروه وما أظهروه، ونحن لا نعلم إلا ما أظهروه ـ وأما ما أخفوه في نفوسهم فلا علم لنا بذلك إلا ما علمتنا من ذلك.

ثانياً: قولهم: ﴿ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ أي: لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا، فإننا نعلم منهم ما كان من أفعالهم وأقوالهم في حياتنا، ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا إلا ما علمتنا، ويكون من هذا ما أخبر الله تعالى به عن عيسى عليه السلام بقوله: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا

﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾.

ثالثاً: إنّ الآخرة فيها مواقف متعددة، فلما سُئلوا في بعض المواقف الأولى سئلوا عن أممهم؛ فأجابوا، واسْتُشْهِدوا فشَهدوا بما علموا منهم، وكان هذا السؤال لكل رسول مع أمته، كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾.

ثم في موقف آخر سُئلوا فلم يجيبوا، بل فوَّضوا علم ذلك إلى الله تعالى، أدباً مع الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية، وكان هذا في موقف خاص جُمعت فيه جميع الرسل وحدهم دون أممهم، كما يدل عليه قوله سبحانه ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾[١].

* * *

---

(١) انظر جميع ذلك في: (تفسير) النسفي، والخازن وغيرهما.

السؤال عن التكاليف العملية

وكما أن العباد يُسألون يوم القيامة عن قضايا الإيمان كما تقدم فهم يُسألون أيضاً عما كُلِّفوا به من الأعمال، وأعظمها الفرائض، وأهمها الصلاة.

جاء عن قَبيصة بن حُرَيث رضي الله عنه قال: قدمتُ المدينة فقلت: اللهم يَسِّرْ لي جليساً صالحاً يُحدثني بحديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لعلَّ الله تعالى ينفعني به، فجلست إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقلت: إني سألت الله تعالى أن يرزقني جليساً صالحاً.

فقال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن أولَ ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، فإن صلحتْ: فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت: فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضته شيئاً قال الربُّ تبارك وتعالى للملائكة: انظروا هل لعبدي من تطوّع ـ أي: نوافل فوق الفرائض ـ فيكمَّل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك» رواه الترمذي والنسائي وغيرهما.

وفي هذا بيان مسؤولية العبد عن الفروض التي فرضها الله تعالى عليه، ويُبدأ بالسؤال عن أهمها وأعظمها وهو الصلاة، ثم سائر

الأعمال التكليفية، وقد بين صلى الله عليه وآله وسلم أن النوافل تُكمل نقص الفرائض، وتجبر كسرها، وتسد ثغورها، ولذلك ينبغي المواظبة على السنن الصلاتية: القبلية والبعدية ونحوها من التطوعات، ليكمل بها فروضه، ولا يكون من أتى بالنوافل متنفلاً إلا إذا كملت له فرائضه من كل جانب ـ وهؤلاء قليل ما هم.

وأما ما دام صاحب النافلة محتاجاً إليها في تكميل فروضه فلا نافلةَ ـ أي: زيادة ـ عنده، فإنَّ فضلة الثوب ما زادت على الثوب بعد خياطته، وأما إذا كانت القطعة يحتاجها الخياط لتكميل الأكمام أو الظهر أو الجوانب؛ فليست تلك القطعة فضلة، بل هي من تمام الثوب ـ فاعتبر وتبصَّر.

سؤال الإنسان عن أهله وعمَّا استرعاه الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

روى ابن حبان في: (صحيحه) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله سائل كلّ راعٍ عما استرعاه: حَفظ أم ضيَّع؟ حتى يَسأل الرجل عن أهل بيته» ـ أي: هل أدى واجبه الديني نحوهم، وأحسن رعايتهم وعشرتهم أم أساء؟

وفي: (الصحيحين) عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «كلُّكم راع ومسؤول عن رعيته: الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله

ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته».

ومن هنا يجب على المرأة أن تعلم أن عليها مسؤولية في رعايتها لبيت زوجها، وفي تربيتها لأولادها، وفي قيامها في خدمة زوجها وَبَيْتها، فلا يجوز لها أن تُقَصِّر، ولا أَنْ تُسْرف في مال زوجها؛ بل ولا تتصدَّق من ماله إلا بإذنه، ولا تَخرج إلا بإذنه، لِما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إِنَّ المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره: لعنها كل ملك في السماء وكل شيء مرَّت عليه غير الجن والإنس» رواه الطبراني بإسناد الثقات.

السؤال عن السمع والبصر والفؤاد

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

نهى الله الإنسان أن يتَّبع ما ليس له به علم، بأن يتبع الأوهام والظنون مما لا دليل فيه يُثبت العلم.

فمعنى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي: لاتتبع ما لم تعلم، فلا تقل رأيتُ وما رأيتَ! ولا تقل سمعتُ والحال أنت ما سمعتَ! ولا تقل علمتُ والحال أَنت لم تَعلم! تبني ذلك كلَّه على توهم وتظنُّن.

كما أنك لا ترم أحداً بما ليس لك به علم: من دليل أو بينة تُثبت ذلك ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

لما نهى سبحانه عن اتباع ما ليس للإنسان به علم من مسموعات ومُبصَرات، أو معلومات، أو تصديقات قلبية ونحو ذلك: بَيَّن أن هناك سؤالاً عن السمع والبصر والفؤاد.

وذلك أَن الإنسان يُسأل عن سمعه وبصره وفؤاده أين صرف ذلك، وإلى أيِّ جهة وَجهها؛ هل تصرَّف بسمعه وفؤاده فيما أحلّ الله تعالى أم فيما حرم الله؟.

فيُقال للإنسان: لِمَ سمعتَ ما لا يحلّ لك سماعه؟ ولِمَ نظرت إلى ما لا يَحلُّ لك النظر إليه؟ ولم عزمت بقلبك على ما لا يحل لك العزم عليه؟ ولم تَعلَّق قلبك بما لا يحل لك شرعاً؟ ولم أحببتَ بقلبك ما كرهه الله تعالى؟ ولم كرهت بقلبك ما يحبه الله تعالى؟ ولمَ أبغضتَ ما يرضاه الله تعالى؟ ولِمَ رضيت بما يُغضب الله تعالى؟

وهكذا يُسأل الإنسان عن جميع تصرفاته وتقلباته: السمعية والبصرية، وعن جميع تأثراته القلبية: بالتصديق والإنكار، بالحب والبغض، والرضىٰ والغضب، والاستحسان والكراهية، والاستكبار والاستصغار، وجميع ما هنالك من أعمال القلوب وتأثراتها، ولذلك جاء ذكر القلب هنا بالفؤاد باعتبار أنه موضع الانفعال والتأثر.

فَلْيَتَّق الإنسان ربَّه في سمعه وبصره وفؤاده، وليعلم أن كل ما يمرّ عليه سمعه وبصره وفؤاده، ويتوجَّه إليه، فهو مسؤول عنه، فإن كان في الخير أُجِر، وإن كان في الشر خَسِر.

روى الترمذي، عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يؤتى بالعبد يوم القيامة

فيقول الله تعالى: أَلَمْ أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسخَّرتُ لك الأنعام والحرث، وتركتُك ترأس وتربع[1] - وفي رواية لصحيح مسلم: «ترتع» - أي: تتنعم بالمأكل والمشرب - فكنتَ تظن أَنَّكَ ملاقِيَّ يومَك هذا؟ - أي: هل كنت تعتقد أنك سوف تلقاني في هذا اليوم يوم القيامة - قال: فيقول العبد - أي: الكافر -: لا.

فيقول الله تعالى له: اليوم أنساكَ كما نسيتني».

أي: اليوم أتركك في العذاب كما تركتَ في الدنيا شريعتي وديني، ولم تُؤمن بلقائي.

وروى أصحاب السنن، عن شَكَل بن حُمَيد رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا نبيَّ الله علِّمني تعويذاً أتعوَّذُ به.

قال: فأخذ بيدي ثم قال: «قل: اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري، وشر لساني، وشر قلبي، وشر منيِّي».
قال: فحفظتها.

السؤال عن العمر والعلم والمال والجسم والشباب

روى الإمام الترمذي وغيره، عن أبي بَرزة الأسلمي رضي الله

---

(١) وفي رواية: «تربَّعْ» قال في: «النهاية»: أي: تأخذ ربع الغنيمة، يقال: ربعت القوم أربعهم إذا أخذت ربع أموالهم، مثل عشرتهم، يريد: أَلَمْ أجعلك رئيساً مطاعاً، لأنَّ الملك كان يأخذ الربع من الغنيمة في الجاهلية، ويسمى ذلك الربع: المرباع. اهـ.

عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن: عمره فيمَ أفناه، وعن علمه ما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»؟

قال الحافظ المنذري: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه البيهقي وغيره، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وما عَمِل فيما عَلِم».

قال الحافظ المنذري: رواه الترمذي أيضاً، والبيهقي، وقال الترمذي: حديث غريب من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. اهـ.

فلا تزول قدما العبد يوم القيامة عن موقف السؤال، ولا يبرح مكانه حتى يُسأل عن: عمره المقدَّر له فيم أفناه وصرفه: أفي طاعة الله تعالى ورسوله أم في المعصية؟ وفي الخير أم في الشر؟ وهل ربح عمره فشغله في الخير والتقى والبرّ؟ أم خسره فأضاعه في الشر والفساد والبغي؟.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فلقد أقسم الله تعالى بالعصر أي: الدهر المشتمل على عمر كل ذي عُمُرٍ، أقسم بذلك على أَنَّ الإنسان لفي خسر ـ أي: إن كل إنسان لفي خسرٍ لعمره الداخل في طيِّ العصر، ولم يخرج من تلك الخسارة لرأس ماله الذي هو عمره، ويربح الربح العظيم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: اعتقدوا وصدّقوا بما يجب الإيمان به، وبرهنوا على صدق إيمانهم بالعمل الصالح، فعملوا الصالحات التي أمر الله تعالى بها.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: تناصحوا فيما بينهم، ونهض بعضهم بِهِمَّة الآخر نحو فعل الحق واتباعه، والبعد عن الباطل وإغوائه.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على عبادة الله تعالى وأوامره.

قال تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية ـ أي: أنت اصطبر على الصلاة، وأمسك نفسك عليها، بأن تُؤديها في أوقاتها، ومطمئناً في أعمالها.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على ترك المناهي التي نهى الله تعالى عنها، فإنها تحتاج إلى إمساك النفس عنها.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على البلاء والمحن التي تعتري المؤمنين ـ ونسأل الله تعالى العافية.

فما ربح عمره واستثمره ونال خير عمره وبرّه إلا الإنسان المتصف بهذه الصفات الأربعة: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر ـ فهو قائم بحقوق الله تعالى، وقائم بحقوق خلق الله تعالى.

روى الطبراني بإسناده، عن عبد الله بن حُصين قال: كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلِّم أحدهما على الآخر.

وفي هذا تذكير بعضهم لبعض بالنصح والتواصي بالحق، ولذلك قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: لو تدبَّر الناس هذه السورة لوسِعَتْهم.

وهكذا يُسأل عن علمه ما عمل به، والناس في العلم على مراتب، فكلٌّ يُسأل على حسب ما عنده.

وروى البيهقي، عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: (إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: يا عويمر.

فأقول: لبَّيك ربي.

فيقول: ما عَمِلتَ فيما عَلِمْت)؟.

وروى ابن عساكر، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «كيف أنت يا عويمر إذا قيل لك يوم القيامة أعلمتَ أم جهلت؟ فإن قلتَ: علمتُ، قيل لك: فما عَمِلت فيما علمت، وإن قلتَ: جهلتُ، قيل لك: فما كان عُذرك فيما جهلت ألا تَعَلَّمت»!.

ويُسأل الإنسان عن ماله من أين اكتسبه أي: حَصَل عليه وجمعه، أكان ذلك من طريق شرعي وبيع وشراء، وعقود صحيحة، أم من طريق غير شرعي؟ وفيم أنفقه وصَرَفه: هل كان ذلك في

مصرف شرعه الله تعالى أم غير مشروع؛ ولو كان شيئاً قليلاً، فإنَّه يُسأل عنه: هل كان ما أنفقه في طريق شرعي؛ كالإعطاء للفقراء، والمساعدة في الخيرات، والمبرات، أم في سبيل الشهوات والمحرمات والملذات؟

ويُسأل الإنسان عن جسمه فيم أبلاه، فهذا الجسم وما أَوْدع الله تعالى فيه من القُوى فيمَ صرفها وأَتعبها، هل صرف تلك العافية والقوى الجسمية، وتلك الأعضاء البدنية صرفها وأتعبها فيما يُقربه إلى الله تعالى، وينال به سعادة الدنيا والآخرة؟ أم أنَّه صرف ذلك في الشهوات المحرمة، والأهواء النفسية الباطلة، حتى تَعب جسمه، ووهن عظمه، وخارت قواه بسبب فِسْقِهِ وهتكه، وانتهاكه لِمَا حرم الله تعالى عليه.

اللهم استعمل أجسادنا في طاعتك، وأشهِد قلوبنا أنوار تجلياتك، وأجِلْ أفكارنا وعقولنا في آياتك وآلائك ـ آمين.

السؤال عن النعيم

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

إن الله تعالى سوف يسأل الإنسان عن النعيم الذي مرّ عليه في الدنيا، ونَعِم به وتلذَّذ من: صحة البدن، ولذة الشراب، والماء البارد، ولذة المطعم والمأكل، ولذة الظلال الباردة، ومتعة النظر إلى النَّضار والخَضار وغير ذلك.

فيُسأل الكافر عن ذلك سؤال تعنيف وتوبيخ وتحقير ـ لأنه كفر تلك النعم.

ويُسأَل المؤمن عن ذلك سؤال تلطيف وتشريف وتذكير ـ لأنه شكرها.

روى الترمذي وحسنه، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الزبير: يا رسول الله وأيّ نعيم نُسأل عنه، وإنما هو الأسودان التمر والماء؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أما إنه سيكون» ـ يعني: سيكون السؤال عن التمر والماء، وغيرهما من ألوان الأطعمة والأشربة.

وروى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة أن يقال له: أَلَمْ نصحَّ لك جسمك، ونرويك من الماء البارد»؟

وروى الإمام مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

فقال لهما صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة»؟

فقالا: الجوع يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما ـ فقوموا».

فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أين فلان»؟

قالت: ذهب يَستعذب لنا الماء ـ إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرمُ أضيافاً مني.

قال: فانطلق فجاءهم بعِذْقٍ فيه بُسْر وتمر ورُطب، فقال: كلوا، وأخذ المدية ـ أي: السكين ـ ليذبح شاة.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكَ والحلوبَ» أي: لا تذبح شاة حلوباً.

فذبح لهم شاة غير حلوب، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العِذْق وشربوا.

فلما شبعوا ورَوَوْا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتُسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم».

وروى ابن أبي حاتم بإسناده، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال: «الأمن والصحة».

وروى أيضاً بإسناده، عن زيد بن أسلم رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ يعني: شِبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخَلْق، ولذة النوم.

وفي هذا تنبيه للإنسان إلى الاهتمام بشكر نعم الله تعالى، وأن

يرعى نعم الله تعالى، ويصرفها فيما يُرضيه سبحانه، ويتخذها عوناً له على طاعة ربه، ولا يكفر نعم الله تعالى، ويصرفها في الشهوات المحرمة، وفي المعاصي التي نَهىٰ الله تعالى عنها، فإنَّ ذلك يُعرضها إلى الهلاك والزوال، وسوف يُشدَّد عليه في السؤال عنها.

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَها ... فإن المعاصي تُزيل النعمْ
وحُطْها بطاعة ربِّ العباد ... فربُّ العباد سريع النقم
وإياك والظلمَ مهما استطعـ ... ـت فظلم العباد شديد الوخم
وسافِرْ بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار مَنْ قد ظَلم
فتلك مساكنهم بعدهم ... شهود عليهم ولا تُتَّهم
فكم تركوا من جنان ومن ... قصور وأجرى عليهم أُطُم
صُلُوا بالجحيم وفات النعيم ... وكان الذي نالهم كالحُلُم

السؤال عن بقية الآلاء والنعم المالية وغيرها

إن الله تعالى سوف يسأل العبد يوم القيامة عما أنعم عليه به من أنواع النعم: السمعية والبصرية، والعقلية والبدنية، والصحة والقوة، والمُتَع النفسية، واللذائذ الجسمية، وغير ذلك كما تقدم.

كذلك يُسأل عما خوَّله الله تعالى من الأموال، على مختلف أنواعها.

روى الترمذي، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج[1] . .

---

(١) البَذَج: هو أضعف ما يكون من الحملان ـ أي: الصغار من أولاد الضأن.

فيوقف بين يدي الله تعالى.

فيقول الله تعالى له: أعطيتك وخوَّلتك، وأنعمت عليك فماذا صنعتَ؟

فيقول: يا ربِّ جمعتُه، وثمَّرته، وتركته أكثر ما كان ـ فارجعني آتك به.

فيقول الله تعالى: أرني ما قدمت..

فيقول: ربِّ جمعته وثمَّرته، وتركته أكثر ما كان ـ فارجعني آتك به، فإذا عبد لم يقدِّم خيراً، فيُمضى به إلى النار».

كما أنه يَسأله عن نعمة الزواج، والوجاهة بين الناس، وجميع ما خوَّله من النعم والأسباب، والمظاهر والمفاخر.

روى الإمام مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل نَرَى ربنا يوم القيامة؟

قال: «هل تضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة»؟.

قالوا: لا.

قال: «هل تُضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة»؟

قالوا: لا.

قال: «فوالذي نفسي بيده لا تُضارون في رؤية ربكم إلا كما تُضارون في رؤية أحدهما».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَيلقى العبد ربه فيقول الله تعالى: أي فُلُ ـ أي: يا فلان ـ أَلَمْ أُكرِمْكَ وأسوِّدْك ـ أي: ألم

أجعلك سيداً في أهلك أو قومك ـ وأُزَوِّجْك، وأُسخر لك الخيل والإبل، وأتركك ترأسُ وتربع؟

فيقول العبد: بلى.

فيقول الله تعالى: أظننتَ أنك ملاقيَّ؟ ـ أي: هل كنت في الدنيا تعتقد أنك تلقاني في يومك هذا ـ.

فيقول: ـ أي: العبد الكافر ـ لا.

فيقول سبحانه: فاليوم أنساكَ ـ أي: أتركك في العذاب ـ كما نسيتَني.

ثم يلقى الثاني فيقول: أي فُلُ ـ أي: يا فلان ـ أَلَم أكرمكَ، وأسوِّدك، وأزوِّجك، وأُسخر لك الخيل والإبل، وأتركك ترأس وتربع؟

فيقول: بلى يا ربِّ.

فيقول ـ أي: الله تعالى ـ: أفظننتَ أنك ملاقيَّ؟

فيقول: لا.

فيقول الله تعالى: فإِني أنساك كما نسيتَني.

ثم يلقى الثالث ـ فيقول له مثل ذلك ـ.

فيقول: ـ أي: والقائل منافق ـ يا ربِّ آمنتُ بك، وبكتابك، ورسلك، وصليتُ، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع.

ـ أي: ويدَّعي أنه عمل بما أَمر الله تعالى به، وأدى حقوق تلك النعم، واستعملها في مرضاة الله تعالى؛ ولكنها دعوى كاذبة ـ

فيقول الله تعالى: أهاهنا مَن يشهد لك؟

فيقول: لا.

فيقول سبحانه وتعالى: الآن نبغث عليك شاهدنا.

ويتفكر في نفسه: مَنْ الذي يشهد عليه ـ فيُختم على فِيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي.

فتنطق: فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليُعذَر من نفسه ـ وذلك المنافق الذي سخط الله تعالى عليه».

وفي هذا تنبيه للمسلم إلى أَنْ يهتم بشكر نعمة الله عليه، وأن يرعاها حقوقها، وأَنْ يصرفها في طاعته تعالى ومرضاته، ويتخذها عوناً له على دينه وعبادته وآخرته، ولا يكفر نعم الله تعالى، ولا ينشغل بها عن عبادة الله تعالى، ولا يصرفها في الشهوات المحرَّمة: بأن يتقوّى بها على معصية الله تعالى، فإنه مسؤول عنها وعن حقوقها، وعن شكرها ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

ولقد كان سيد الشاكرين، بل سيِّد كل شاكر وشكور، بل الذي نال أعلى وأسمى مقام في الشكر، سيدُنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، يدعو وراء الصلوات المكتوبة، ويُسمع الصحابة تعليماً لهم فيقول:

«اللهم إني أسألك الثباتَ في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك لساناً صادقاً، وقلباً سليماً، وأسألك شُكر نِعْمتك، وحُسْنَ عبادتك، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرِّ ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم، وأنت علاّم الغيوب» رواه الترمذي.

سؤال الإنسان عن نيته
ومراده من الأعمال الصالحة

إنَّ في الآخرة موقفاً يُسأل فيه الإنسان عما نواه وأراده من الأعمال الصالحة المشروعة: هل كان في ذلك العمل مخلصاً لله تعالى، مُبتغياً مرضاة الله تعالى ورضوانه، أم كان مقصوده من ذلك العمل الرياء، أَوْ أَنْ يقال عنه: إنه صالح، أو منفق، أو عابد، أو نحو ذلك؟

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (نزلت هذه الآية في الذين يعملون عمل الآخرة لنيل الدنيا). اهـ.

روى مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن أول الناس يُقضى يومَ القيامة عليه:

رجل استُشهد فأُتيَ به فعرَّفه نعمَه فعرفها.

قال: فما عملتَ فيها؟

قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت.

قال الله له: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال: هو جريء، فقد قيل ـ ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتِيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها.

قال: فما عَمِلْتَ فيها؟

قال: تعلمتُ العلم، وعلمتُه، وقرأتُ فيك ـ يا ربِّ ـ القرآن.

قال: كذبتَ، ولكنك تعلَّمتَ ليقال عالِم، وقرأتَ القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل ـ ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِي به فعرَّفه نعمه ـ سبحانه ـ فعرفها.

قال: فما عَمِلتَ فيها؟

قال: ما تركتُ من سبيل تُحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك.

قال الله تعالى له: كذبتَ، ولكنكَ أنفقت ليقال هو جواد، فقد قيل ـ ثم أمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار».

قال الحافظ المنذري: رواه مسلم، والنسائي، ورواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في: (صحيحه). اهـ.

* * *

سؤال الواعظين والخطباء
عما أرادوه من وعظهم وخطبهم

روى ابن أبي الدنيا، والبيهقي مرسلاً بإسنادٍ جيد، عن مالك بن دينار، عن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من عبدٍ يَخطب خُطبة إلا الله عز وجل سائلُه عنها ـ أظنه قال: ـ ما أراد بها»؟.

قال جعفر: فكان مالك بن دينار رضي الله عنه، إذا حدَّث بهذا الحديث بكى حتى ينقطع، ثم يقول: تحسَبون أَنَّ عيني تقر بكلامي عليكم، وأنا أعلم أَنّ الله عز وجل سائلي عنه يوم القيامة ما أردتَ به؟.

ولذلك أثنى الله تعالى على أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ الآية.

فمدحهم سبحانه بالتراحم بينهم، ثم بكثرة أعمالهم وتقرباتهم إلى ربهم بالعبادات: وأهمها وأفضلها الصلاة، فقال سبحانه: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ يعني: أنهم من كثرة صلواتهم وتنفلاتهم، حيثما نظرتَ إليهم أيها العاقل تراهم ركعاً سجداً.

ولما مدحهم بكثرة عباداتهم؛ مدحهم بالإخلاص في عباداتهم، وذلك أنهم يبتغون بتلك الركعات والسجدات فضلاً من الله

ورضواناً، فلا رياء ولا سمعة ولا كِبْر.

وأما قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ فهذه الآية لا تختلف مع قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾.

لأنَّ يوم القيامة يوم طويل، وفيه مواقف ومواطن متعددة، فيُسألون في مواطن، ولا يُسألون في موطن آخر.

أو: المراد بقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أنهم لا يُسألون سؤال استعلام ـ أي: لا يُسألون عن ذنوبهم لتُعلَم من جِهتهم، لأن الله تعالى قد عَلِمَها جميعها، وكتبها الحفظة عليهم، ولكنهم يُسألون: للتوبيخ والتعنيف والزجر.

أو: المراد لا تَسأل الملائكةُ المجرمين عن ذنوبهم، إذ لا حاجة إلى سؤالهم عنها، لأنهم يُعرفون بسيماهم، بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بسواد وجوههم وزُرقة عيونهم ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي: تُجعل أقدامهم مضمومة إلى نواصيهم، ثم يُلقون في النار ـ نعوذ بالله العظيم من ذلك.

* * *

أخـــذ الكـتب

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ أي: جاهد في عملك ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى لقاء ربك بعد الموت ﴿كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ أي: فأنت ملاقٍ ربك فيجزيك على كدحك في الدنيا: إنْ كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.

وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾.

فصاحب كتاب اليمين حسابه يسير ـ وهو العَرْض، كما سيأتي ـ وينقلب إلى أهله ـ أي: أهل الإيمان والحور العين في الجنان ﴿مَسْرُورًا﴾ فرحاً مستبشراً بحاله.

والذي ﴿أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ يدعو بالهلاك والموت، ولكن لا موت بعدُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ في الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ بسبب اتباع هواه وركوبه الشهوات المحرمة ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾ حين كان في الدنيا يَفسق ويفجر ﴿أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: ظن أنه لن يرجع إلينا ولن نبعثه بعد الموت ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: ليس الأمر كذلك ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ﴾ بأعماله التي عملها في الدنيا ﴿بَصِيرًا﴾ لا يخفى عليه شيء منها، فلا

بـدَّ أن يَرجع ويُـجازى عليها، بعد ما يُسأل عنها ويحاسب عليها، فليس الأمر عبثاً، ولا لعباً بل هو حَقٌّ.

وقد أخبر الله سبحانه عن حال العباد عند أخذهم كتبهم، وفيها جَلاَءاتهم.

فكتبُهم: فيها جَلاء عما قدموه، ونتيجة ما حصَّلوه في الدنيا، فهم بعد أخذها ما بين فرِح مستبشر مسرور، وما بين حزين كئيب مَوْتور؛ يدعو بالوَيل والثبور.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴾ يعني: أنه لـمَّا أُعطي كتابه بيمينه، وبلغ من السرور غايته، وأيقن أنه من أهل الجنة، أحب أن يُظهر ذلك لأحبابه وأصحابه وأهله فقال: تعالَوا اقرؤوا كتابيَه، وانظروا ما فيه من البشائر والمسرات.

﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أي: كنت في الدنيا أعتقد أني سأحاسب في الآخرة، وكنت أخشى نتيجة الحساب، فالآن قَد ذهب الخوف، وجاء الأمان والاطمئنان بدخول الجنان.

﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذاتِ رضىً، يرضىٰ صاحبها كل الرضىٰ ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ أي: ثمارها قريبة التناول لمن اشتهاها، ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ أي: بما قدَّمتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة في أيام الدنيا الماضية.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴾ وذلك أنه لما نظر في كتابه، ورأى قبائح أعماله، وسوء أقواله وأحواله، تَمنى أنه لم يؤت كتابه، لِما فيه من الخجل والفضائح.

﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ تمنى ذلك لأنه كلّه وبال عليه.

﴿ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴾ أي: يا ليت الموتة التي مُتُّها في الدنيا كانت القاطعة لأمري، فلم أُبعث بعدها، وتكون هي القاطعة لكل حياة بعدها.

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴾ أي: لم ينفعني شيئاً ما جمعته من مال الدنيا.

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ أي: زال عني سلطاني، وملكي، وقوتي، وتسلطي على الناس في الدنيا، وبقيت الآن ذليلاً حقيراً، وذَهَبَتْ عني حُجَّتي التي كنت أحتج بها في الدنيا، وما فيها من المهارة والجدل الباطل.

ثم يقول سبحانه للملائكة عليهم السلام: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ أي: اجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي: أدخلوه قعر الجحيم وعُظْمَاها، لأنه كان يَتعاظم في الدنيا: بالكبر والكفر ﴿ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا﴾ أي: طولها ﴿ سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ أي: أدخلوها فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (تَدخل في دبره وتخرج من منخره).

وقال: (هي سبعون ذراعاً بذراع المَلَك).

وقال بعضهم: سبعون ذراعاً، وكل ذراع سبعون باعاً، وكل باعٍ أبعد ما بين مكة والكوفة.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لو أن رُضاضة مثل هذه ـ وأشار إلى مثل الجمجمة ـ أُرسِلت من السماء إلى الأرض ـ وهي مسيرة خمسمائة سنة ـ لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أَنَّها أُرسِلت من رأس السلسلة

لسارت أربعين خريفاً الليلَ والنهارَ قبل أن تبلغ قعرها ـ أو أصلها» رواه الترمذي وحَسّنه، كما في: (تفسير) ابن كثير وغيره.

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴾ أي: ليس له في الآخرة قريب ينفعه، ولا صديق يشفع له ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ أي: صديد أهل النار، وهو مأخوذ من الغَسل، لأنَّه غُسالة جروح أهل النار وقروحهم، وما يسيل من قيحهم وصديدهم ﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ أي: الكافرون.

وقد تبين من الآيات السابقة أَنّ الخلائق عند تناول الكتب على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: هم الآخذون كتبَهم بأيمانهم، وهم المؤمنون السعداء ـ جعلنا الله تعالى منهم آمين.

الصنف الثاني: الآخذون كتبهم بشمالهم، وهم الذين لم يؤمنوا بالله العظيم، ولم يحضُّوا على طعام المسكين، ويدخل تحت هذا الصنف عدة أصناف:

١ ـ صنف المُعطِّلَةِ، الذين عطَّلوا العالم عن صانعه، واعتقدوا أَنّ الأمر طبيعة، وأَنّه ليس للعالَم خالق عليم يدبِّره، فهؤلاء لم يؤمنوا بالله العظيم، فهم داخلون في عموم الآية السابقة، لأنهم لم يؤمنوا بوجود الله العظيم.

وهؤلاء محجوجون بالأدلة القاطعة، ولَسْنا الآن نُريد أن نخوض في الرد عليهم حتى نوضح تلك البراهين، ولكننا نأتي بنبذةٍ لطيفة على طريق العجالة، لعلها تُنَبِّه العاقل، وتوقظ الغافل.

وذلك أننا نقول لمن يرى أَنّ الأمر طبيعة، وأَنّ مستند العالَم إنما هو الطبيعة ـ نقول للطبيعي:

ما هو مفهوم الطبيعة عندك؟ وماذا تتصوَّر من معنى الطبيعة التي أَسْندت تدبير العالَم إليها؟ هل ذلك المفهوم للطبيعة أَمْر سلبي عدمي، أم إيجابي وجودي؟

فإن قال: إن مفهوم الطبيعة والمعنى المتصوَّر منها هو سلبيٌّ عدمِيّ ـ بمعنى أن العالم وُجد بطبيعة حاله من العَدَمِ.

قلنا في الجواب: إنَّ العالَم أمَر وجوديٌّ، والعدم هو عدم، فكيف يَنشأ عنه وجود؟ فإِنَّ حقيقة مفهوم العدم هي العدم، فكيف يُتصور في العقل أن ينشأ عنها وجود؟!

وقد نبه القرآن الكريم العقلاء إلى هذه القضيَّة في قوله سبحانه: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾! والمعنى: أنهم شيء وجودي محقَّق الوجود، فكيف يُعقل أنهم أُوجدوا من غير شيء ـ أي: من غير خالق واجب الوجود؟!

ولئن ادَّعوْا أن الذي أوجدهم من عدمهم هو هُم ـ أي: أنهم هم الخالقون لأنفسهم: فهذا باطل، فإنهم لو كانوا هم الذين خلقوا أنفسهم لوجب تقدُّم وجودهم على وجود أنفسهم، والحال أنهم قبل أن يُخلقوا كانوا عدماً، فلا بُدَّ أن ينتهي الأمر إلى واجب الوجود الذي هو موجدُ كلِّ موجود؛ ولا موجِد له، فإنه الأحد الواحد، وليس قبل الواحد واحد، ولا أحد قبل الأحد.

قال سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: ولا أحد قبله، ومن ادَّعى غير ذلك فليأت قبل الواحد العددي بواحد، وإذا كان الواحد

العددي لا واحد قبله، فلا شكَّ أن الواحد الحقيقي واجب الوجود الذي لا يقبل التعدد ـ هو لا أحد قبله قطعاً.

وإن قال: إن مفهوم الطبيعة هو أمر إيجابي وجودي، بمعنى: أنها هي ذاتُ وجودٍ وقوَّة وعلم وحكمة، وأنّها المدبِّرة لنظام العالَم، وأنها المتصرِّفة في العوالَم، وأن من صفاتها كذا وكذا. . .

فيقال له: إنَّ هذا المفهوم الذي فهمتَه من الطبيعة، وهذه الصفات التي أثبتها للطبيعة هذا هو الله ربُّ العالم، وخالقُه وبارئه، ولكن ربَّ العالمين لم يُسمِّ نفسه بالطبيعة، وإنما سَمَّى نفسه بأنه هو الله تعالى، وأنَّ له الأسماء الحسنى، ولم يرض لنفسه غير الأسماء الحسنى التي تسمَّى بها، لأنَّ غير الأسماء الحسنى التي تسمَّى بها لا تليق بكماله، بل توهم النقص.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ الآية.

على أن لفظ الطبيعة هو على وزن فَعيلة، فهي مفعولة مطبوعة، وإن الله تعالى هو طابع الطبائع وخالقها.

٢ ـ صنف المشركين الذين أشركوا مع الله تعالى إلٓهاً آخر، فإنَّهم لم يُؤمنوا بالله العظيم إيماناً صحيحاً لائقاً بكماله سبحانه، لأن الله تعالى هو واحد لا شريك له.

٣ ـ صنف المتكبرين على الله تعالى، الذين أبَوْا واستكبروا أن يُذعنوا لدينه وشرعه ـ ورأس هذه الطائفة إبليس عليه اللعنة، فإنَّه أبى واستكبر عن الإذعان لأمر الله تعالى، ولذلك كان من الكافرين.

وهكذا فرعون وجنوده: قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

٤ ـ صنف المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر، فإنهم لم يُؤمنوا بالله العظيم، لأنهم استسلموا ظاهراً خوف القتل والسَّبْي، وحِفظاً لمالهم وأهلهم، ولكن قلوبهم على قلبِ واحدٍ من الأصناف الثلاثة الذين تقدم ذكرهم.

الصنف الثالث: مَنْ أُوتي كتابه وراء ظهره، فَهم الذين أُوتوا كتاب الله تعالى في الدنيا فنبذوه وراءهم ظِهرياً، واشتروا به ثمناً قليلاً، فإذا كان يوم القيامة قيل لأحدهم: خذ كتابك من وراء ظهرك.

روى أبو داود، عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النار فبكت.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يبكيك»؟

فقالت: ذكرتُ النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أمّا في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخِفُّ ميزانه أم يَثقل؟، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه: في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وُضع بين ظهرانيْ جهنم»..

* * *

عـالم الحسـاب

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾.

فإياب العباد كلِّهم ـ أي: رجوعُهم ـ إلى ربهم ، ثم إن حسابهم عليه سبحانه، فهو الذي يحاسبهم يوم الحساب.

وقد جاءت الآيات الكثيرة في ذكر الحساب، وهول يوم الحساب، وفي مدح الذين يَستعدُّوْن ليوم الحساب ويخافونه، وفي ذمِّ الذين نَسُوا يوم الحساب، ولم يَخْشَوا الحساب.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: يخافون المناقشة في الحساب على النقير والقِطمير، والشيء الكبير والحقير ـ وفي هذا مدح للواصلين ما أمر الله أن يوصل: فيما بينهم وبين ربهم، وبينهم وبين رسولهم صلى الله عليه وآله وسلم، وبينهم وبين سائر عباد الله تعالى.

فهم الواصلون، وهم أهل الخشية بالغيب، وهم يخافون سوء الحساب، مع أنهم على قدم في التقوى، ودرجة كبيرة في العمل الصالح والإخلاص ـ وهو شأن الواصلين المقربين.

ألحقنا الله تعالى بهم ـ آمين.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ وفي هذا تحذير من نسيان يوم الحساب، ووعيد لمن نسيه.

وقد بين سبحانه أَنَّ محاسبته لعباده سَوف تأتي على جميع الأعمال: العلانية والسِّرِيَّة، والجسمية والقلبية، والبادية الظاهرة والنفسية الخفية.

قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾.

فهو سبحانه الذي له السموات والأرض وما فيهن مِلكاً ومُلكاً، فذواتها وأعيانها مملوكة له وحده، وهو الملك المطلق المتصرف فيها كما يشاء بمقتضى حكمته، فهو الفعال لما يريد، والكل له عبيد، وهو الذي يقضي ويحكم، ولا معقِّب لحكمه، ولا راد لأمره جلّ وعلا، بل هو الغالب على أمره ـ أي: هو الغالب على تنفيذ أمره، وإمضاء حكمه، ولا مانع له ولا معقب.

وهو الذي يَعلم السرَّ وأخفى، ويعلم ما يُسرون وما يعلنون، وما يُبدون وما يُخفون من خفايا نفوسهم وخبايا قلوبهم، وسوف يحاسبهم على جميع ذلك، فَلْيَخافوا وليخشَوْا الحساب عند رب الأرباب.

ثم بعد الحساب: يَغفر لمن يشاء، وهم الذين فيهم أهلية لأن يتفضل عليهم بالمغفرة، ويُعذب من يشاء وهم الذين ليسوا أهلاً للتفضل بالغفران، وذلك عائد لعلمه وحكمته، فإنَّه هو العليم الحكيم وهو على كل شيء قدير ـ ومِن ذلك قدرته على المغفرة لهذا والتعذيب لهذا، لا يُعجزه شيء من ذلك.

فالأعمال القلبية من الحبِّ والبغض، والحسد والحِقْد، والنيات

الحسنة والسيئة، والهمم والعزائم القلبية في الخير والشر، كل أولئك يُحاسَب به العبدُ يوم القيامة، فيؤجَر على خيرها، ويعاقَب على شرها ـ ما لم تشمله المغفرة بأسباب يعلمها الله تعالى.

ويدل على أَنّ أعمال القلوب يُحاسَب بها العبد يوم القيامة في الخير والشر: ما رواه الترمذي، والإمام أحمد، عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، أَنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثة أُقسم عليهنَّ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه:

ما نقص مال من صدقة، وما ظُلم عبد مظلمة فصبر عليها إلاّ زاده الله بها عِزّاً، وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله تعالى».

قال: «وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: إنما الدنيا لأربعة نفرٍ:

رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي في ماله ربَّه، ويَصِل فيه رحمَه، ويعلم أن لله فيه حقاً ـ فهو في أعلى المنازل.

ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، يقول: لو أَنّ لي مثل فلان ـ أي: العالم صاحب المال ـ لعمليتُ مثله ـ فهو بنيته وأجرهما سواء.

ورجل آتاه مالاً ولم يُؤته علماً، فهو يخبط في ماله: لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه ـ فهذا في أخبث المنازل.

ورجل لم يؤته مالاً ولا علماً يقول: لو أَنَّ لي مثل فلان ـ أي: صاحب المال الشقي ـ لعملت مثله» ـ أي: من ارتكاب الشهوات المحرمة، وأنواع الفسق ـ.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فهو بنيته ووزرهما سواء».

فالنيات القلبية لها اعتبارها في الحساب، والثواب والعقاب،

وكذلك الهِمَم كما في: (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك: فمَن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة كاملة، وإنْ هَمَّ بها فعملها كُتِبَتْ له عشر حسنات، إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة.

وإن همَّ بسيئة فلم يعملها ـ أي: خوفاً من الله تعالى كما في رواية: «وإن تركها من أجلي» ـ كُتبت له حسنة كاملة، وإنْ همَّ بها فعملها كتبت له سيئة واحدة».

وكذلك الإرادات العازمة، فإنَّ الإنسان يُحاسب عليها:

روى الشيخان، عن الأحنف بن قيس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما: فالقاتل والمقتول في النار».

قيل: يا رسول الله هذا القاتلُ، فما بال المقتول؟

قال: «إنه أراد قتل صاحبه» أي: ولكن سُبق عليه فلم يُحقِّق إرادته.

وفي رواية: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» أي: فبسبب حرصه على قتل صاحبه كان من أهل النار.

ولا شك أَنَّ الحرص من جملة أعمال القلوب، فالحرص القوي على الشيء يُدين صاحبه يوم القيامة، وكذا الإرادة.

وهكذا الحبُّ والبغض: فإن العبد يُحاسب عليهما يوم القيامة، فإن كان سبب الحبِّ والبغض ومتعلَّقهما مما أمره الشارع به ورضيه ففيه الثواب؛ كمحبة المؤمنين وبُغض الكافرين ونحو ذلك.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من أحبَّ لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله: فقد استكمل الإيمان» رواه أبو داود.

وإن كان سببهما ومتعلَّقهما غير شرعي ففيهما العقاب.

وأما الوساوس والخواطر السريعة، وحديث النفس السيىء الذي لم يوطِّن الإنسانُ نفسَه عليه، ولم يَهِمَّ به، ولم يَعزم صاحبه على إظهاره إلى الوجود، بل يَكرهه ويَدْفعه عن نفسه فلا يندفع: فقد نص العلماء على أنه معفو عنه بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وفي: (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدَّثت به أنفسَها: ما لم يعملوا به أو يتكلموا به».

وفي رواية: «ما وسوستْ به صدورها».

وفي: (صحيح) مسلم، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالوا: (يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأَنْ يَحترقَ حتى يصير حُمَمَةً، أو يخرَّ من السماء إلى الأرض: أحبّ إليه من أن يتكلم به).

ولمسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم سألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به.

قال: «أَوَقَد وجدتموه»؟

قالوا: نعم.

قال: «ذلك صريح الإيمان» ورواه أبو داود.

وفي رواية: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الحمد لله الذي رَدَّ كيده إلى الوسوسة».

فما يَمرُّ على القلب من خواطر رديئة، وما يعتري الإنسان من وساوس سيئة: وهو ينكرها ولا يرتضيها، فهو غير مؤاخذ عليها، بل إن إنكاره لها؛ وتأذِّيه منها وألم نفسه بسببها؛ في هذا دليل على محض إيمانه وصراحته، وأَنَّ قلبه عامر بالإيمان.

إذ لو كان قلبه غير حيٍّ بالإيمان لاستسلم لتلك الوساوس السيئة، وانشرح صدره لها، ولم يضق بها ذرعاً.

وعلى كل حال فتلك الوساوس التي تعتري المؤمن هي عارضة، وقد تمرُّ على بعض الناس ولكنها زائلة عما قريب، فلا ينبغي أن يَلتفت إليها، بل يلجأ إلى الله تعالى، ويطرح ما هنالك وراء ظهره، ويتعوذ بالله العظيم ـ فإنها لا تضره.

هذا ـ وإن يوم الحساب شأنه كبير، وأمره خطير، إلاَّ على مَن تغمَّده الله بغفرانه ورضوانه.

قال تعالى مُخبراً عن دعاء الخليل عليه السلام لينبه العباد إلى هول موقف الحساب: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ اللهم آمين.

* * *

أول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال

أولُ ما يحاسَب عليه العبدَ من الأعمال المتعلقة بِحقوق الله تعالى: الصلاة.

قال الإمام الترمذي في: (سننه): باب ما جاء أَن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة:

ثم أسند إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن أول ما يحاسَب عليه العبد يوم القيامة من عمله: الصلاةُ؛ فإن صلحتْ فقد أفلح وأنجح، وإن فسدتْ فقد خاب وخسر.

وإن انتقص من فريضته شيئاً قال: الرب عز وجل للملائكة: انظروا هل لعبدي من تطوّع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك».

وأول ما يحاسَب عليه العبد من الأعمال المتعلقة بحقوق العباد: الدماء:

فقد روى البخاري بسنده، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أول ما يُقضى بين الناس بالدماء».

المحاسبة على الزكاة
والتشديد على مانعها في الحساب
والعقوبات المترتبة عليه في القبر والحشر ومواقف الآخرة
والخطر على دِيْن مانع الزكاة وعلى صلاته وصيامه

إعلم أيها الأخ المسلم أَن الزكاة أمرها عظيم في دين الله تعالى، وأَنّ عقاب تركها شديد يوم لقاء الله تعالى.

إنّها ثالث أركان الإسلام، وقد قرنها الله تعالى بالصلاة في آيات كثيرة، وقد وصف المؤمنين بفعلهما، ونزَّههم عن تركهما فقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾.

وقال جل شأنه: ﴿ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾ الآية.

ووصف سبحانه الكفار بأنهم لا يُؤتون الزكاة، قال تعالى: ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾.

وقال في أهل النار من المجرمين: ﴿ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴾ الآيات.

فتركُ الصلاة ومَنع الزكاة ليس من صفات المؤمنين، بل إن مانع الزكاة هو في خطر على دينه أن يكون مُنافقاً، لما جاء في الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الزكاة قنطرة الإسلام»[1].

وقال: «إن تمام إسلامكم أن تؤدّوا زكاة أموالكم»[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ظهرتْ لهم الصلاة فصلَّوْها» وفي رواية: «وخفيت لهم الزكاة فأكلوها أولئك هم المنافقون»[3].

وهذا إخبار عما يقع بعده صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الأمة.

فأداء المسلم زكاته برهان على صِدق إيمانه، كما جاء في: (صحيح) مسلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «والصدقة برهان» والمراد بالصدقة هنا الزكاة، فهي برهان على إيمان فاعلها.

وفي ترك الزكاة خطر على دين تاركها أيضاً، ومنع الزكاة خطر على صلاة مانعها يُضرُّ بصلاته:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (أُمِرْنا ـ أي: أمرنا

---

(١) قال في: (مجمع الزوائد): رواه الطبراني في: (الكبير) و(الأوسط) ورجاله موثقون. اهـ.
(٢) رواه البزار، والطبراني في: (الكبير) كما في: (مجمع الزوائد).
(٣) رواه البزار وفيه راوٍ ضعيف محتمل، كما في: (مجمع الزوائد) و(ترغيب) المنذري.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزكِّ فلا صلاة له)[١].

ولذلك كان تارك الزكاة ملعوناً على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (آكلُ الربا، ومؤكلُه، وشاهداه إذا علماه، والواشمة، والمستوشمة، ولاوي الصدقة ـ أي: الممتنع من أداء الزكاة ـ والمرتدّ أعرابياً بعد الهجرة: ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة).

قال الحافظ المنذري في: (الترغيب): رواه ابن خزيمة في: (صحيحه) واللفظ له، ورواه الإمام أحمد وأبو يعلى، وابن حبان في: (صحيحه).

قال المنذري: وروى الأصبهاني عن علي رضي الله عنه أنه قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آكلَ الربا ومؤكلَه، وشاهده وكاتبه، والواشمة والمستوشمة، ومانع الصدقة ـ أي: الزكاة ـ والمحلِّل والمحلَّل له).

ومانع الزكاة يَلقىٰ العذاب حين يَحضره الموت، وتتوالى عليه

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في: (الكبير) موقوفاً هكذا بأسانيد أحدها صحيح.
وقال في: (مجمع الزوائد): رواه الطبراني في (الكبير) بإسناد صحيح.
وجاء في رواية للأصبهاني وذكرها المنذري في: (ترغيبه) قال: (من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فليس بمسلم ينفعه عمله).

المآسي والمخازي والحسرات، ويتمنى الرجعة إلى الدنيا ليؤدِّي ما عليه حين يُحتضر.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كما تقدم في معناها.

ومانع الزكاة يُعذَّب في قبره، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عذاب تاركي الصلاة والزكاة في البرزخ ـ أي: القبر ـ كما جاء في أحاديث الإسراء.

ومن ذلك ما جاء في رواية البزار وغيره (أنه صلى الله عليه وآله وسلم مرَّ على قوم على أدبارهم رِقاع، وعلى أقبالهم رقاع[1] يسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع والزَّقوم ورَضْف جهنم).

قال: «ما هؤلاء يا جبريل؟

قال: هؤلاء الذين لا يُؤَدُّون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله، وما الله بظلَّام للعبيد».

قال الحافظ المنذري بعد ما أورد ذلك قال: الحديث بطوله في قصة الإسراء وفرض الصلاة. اهـ.

وتارك الزكاة كما يُعذَّب في قبره يُعذب في مواقف الآخرة، ويعذّب في حسابه فيشدَّد عليه، ويعذَّب في نار جهنم:

---

(١) هذه الرقاع مكتوب فيها ما عليهم من الحقوق التي لم يُؤدوها، تقرؤها الناس من حولهم فضيحة لهم وتشهيراً بهم، انظر: (النهاية) لابن الأثير.

أما عذابه في مواقف الآخرة:

فكما جاء في: (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما مِنْ صاحبِ ذهبٍ ولا فضةٍ لا يُؤدِّي منهما حقهما، إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمي عليها في نار جهنم، فيُكوى بها جبينه وجنبه وظهره، كلَّما بَرَدَتْ أُعيدت له، في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيُرى سبيلُه إما إلى الجنة أو إلى النار».

قيل: يا رسول الله فالإبل؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا صاحبِ إبلٍ لا يؤدي منها حقَّها، ومن حقها حلبها يوم وِرْدِها؛ إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها بقاعٍ قَرْقَرٍ[1] أوفرَ ما كانت، لا يُفقد منها فصيلاً واحداً، تطؤه بأخفافها، وتعضُّه بأفواهها، كلَّما مرّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخراها، في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيُرى سبيلُه إما إلى الجنة وإما إلى النار».

قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا صاحب بقرٍ ولا غنمٍ لا يؤدي حَقَّها، إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها بقاع قرقر أوفرَ ما كانت، لا يُفقد منها شيئاً، ليس منها عَقْصاء، ولا جَلْحاء،

---

(١) قال في: (الترغيب): **القاع**: هو المكان المستوي من الأرض، **والقرقر** بقافين مفتوحتين وراءين مهملتين هو: الأملس.

ولا عَضْباء، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها[١]، كلما مرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» الحديث.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما من أحدٍ لا يؤدي زكاة ماله إلاَّ مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرعَ حتى يُطوَّق به عنقه» ثم قرأ علينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم مصداقه من كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ الآية[٢].

وأما تشديد الحساب على تارك الزكاة:

فقد جاء عن علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدْر الذي يَسَع فقراءهم، ولن يُجهد الفقراء إذا جاعوا وعَرُوا إلا بما يصنع أغنياؤهم، ألا وإنَّ الله يُحاسبهم حساباً شديداً، ويُعذبهم عذاباً أليماً»[٣].

---

(١) **الظلف** للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس، **والعقصاء** هي: الملتوية القرن، **والجلحاء** هي: التي لا قرن لها، **والعضباء** هي: المكسورة القرن.

(٢) قال المنذري: رواه ابن ماجه واللفظ له، والنسائي بإسناد صحيح وابن خزيمة في: (صحيحه). اهـ.

(٣) رواه الطبراني في: (الأوسط) و(الصغير) وقال: تفرَّد به ثابت بن محمد الزاهد. اهـ. =

ومن هذا الحديث يُعلم أن الله تعالى الحكيم، شرع مقادير الزكاة، وجعلها وافية كافية لمهامِّ الفقراء وحاجاتهم، وإنَّ الفقراء إذا أجهدهم الفقر: فجاعوا وعَرُوا بسبب أنهم اعترتهم ضائقة؛ فذلك من تقصير الأغنياء في دفع ما أوجب الله تعالى للفقراء، فإنَّ الموازنة الشرعية هي كافية وافية، فليطبقوها كما أمرهم الله تعالى، وليرعوها حقَّ رعايتها، فسوف يُحاسبهم الله تعالى على ذلك، وسوف يُشدِّد الحساب على مَن قصَّر في ذلك، فلم يؤدِّ ما أوجب الله تعالى عليه كاملاً، وَمَنْ نوقش الحسابَ عُذِّب لا محالة.

هذا وإن الزكاة حق للفقراء في مال الأغنياء، يجب عليهم أن يدفعوها إليهم على أنّها حق لهم عندهم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ الآية.

وقد روى الطبراني في: (الصغير) عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة: يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فَرضتَ لنا عليهم!

= قال الحافظ المنذري بعد ما أورد هذا الحديث: وثابت ثقة صدوق، روى عنه البخاري وغيره، وبقية رواته لا بأس بهم.
قال: وروي موقوفاً على عليّ رضي الله عنه وهو أشبه. اهـ.
قلت: ومن المعلوم عند المحدثين أنَّ الموقوف له حكم المرفوع فيما لا مجال للرأي فيه.
وقال في: (مجمع الزوائد) بعدما أورد هذا الحديث: قلت: وثابت من رجال الصحيح، وبقية رجاله وُثقوا وفيهم كلام. اهـ. أي: والكلام فيهم لا عبرة به لأنهم وثقوا.

فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لأُدْنينّكم - أي: لأقربنّكم - ولأُباعدنّهم».

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[1].

ومانع الزكاة يُعذب في النار إلا إذا غفر الله تعالى له ورحمه:

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مانع الزكاة يوم القيامة في النار»[2].

* * *

---

(١) قال في: (مجمع الزوائد): فيه الحارث بن النعمان: ضعيف. اهـ.

(٢) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في: (الصغير) عن سعد بن سِنان، ويقال فيه: سنان بن سعد عن أنس رضي الله عنه. اهـ.

أصناف الناس بالنسبة للحساب
وأنواع الحساب

الناس في الحساب على أصناف متعددة:

١ ـ صنف يحاسبون حساباً يسيراً بلا مناقشة ولا تشديد، وإنَّما تُعرض عليهم أعمالهم عرضاً، ثم إنَّ الله تعالى يَتجاوز عن سيئاتهم ويغفرها لهم ـ وهؤلاء هم الذين أُوتوا كتبهم بأيمانهم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾.

وفي: (الصحيحين) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من نوقش الحساب عُذِّب».

وفي رواية: «من حوسب عذِّب» أي: من حوسب حسابَ مناقشةٍ وتشديد عُذِّب لا محالة.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس ذاكِ الحساب، إنما ذاكِ العرض، ومن نوقش يوم القيامة عُذِّب».

فلما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّ من نوقش الحساب عُذِّب استشكلت السيدة عائشة رضي الله عنها؛ بأن هناك مَن يحاسب ولا يهلك ولا يُعذَّب، وهم أهل الحساب اليسير، فأجابها صلى الله عليه وآله وسلم بأنَّ أهل الحساب اليسير لم يُحاسبوا مناقشة وتَدقيقاً؛ وإنما حسابهم هو عرض أعمالهم، ثم التجاوز عن سيئاتهم.

روى البخاري وغيره، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وسأله رجل: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في النَّجوى؟

فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله يُدني المؤمن فيضع عليه كَنَفه ويستره.

فيقول: أتعرف ذنبَ كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟

فيقول العبد: أعرف ربِّ، أعرف ربِّ.

حتى إذا قَرَّرَه بذنوبه، ورأى نفسه أنه قد هلك قال الله تعالى: سترتُها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ـ فيُعطى كتاب حسناته.

وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين».

قال العلامة الخازن: والحساب اليسير هو أَنْ تُعرض على العبد أعماله، فيعرَّف بالطاعة والمعصية، ثم يُثاب على الطاعة ويُتجاوز له عن المعصية، فهذا هو الحساب اليسير، لأنه لا شدة فيه على صاحبه ولا مناقشة، ولا يقال له: لِمَ فعلت هذا؟ ولا يطالب بالعذر

فيه، ولا الحجة عليه، فإنه متى طولب بذلك لم يجد عُذراً ولا حجة فيُفْتَضَح. اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث من كنَّ فيه حاسبه الله حساباً يسيراً، وأدخله الجنة برحمته».

قالوا: وما هي يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟

قال: «تُعْطِي مَنْ حَرَمك، وتَصلُ من قَطَعك، وتَعْفُو عمَّن ظلمك ـ فإذا فعلت ذلك تدخل الجنة».

قال في: (الترغيب): رواه البزار، والطبراني في: (الأوسط) والحاكم وصحح إسناده. اهـ.

٢ ـ صِنْفٌ يُحاسبون حساباً عسيراً: مُناقشة وتدقيقاً، فهؤلاء لا بدّ أن يَهلكوا أو يعذبوا.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ نُوقِشَ الحساب يَهلك» الحديث، وفي رواية: «عُذِّب».

وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

ولذلك كان من شأن المؤمنين أنَّهم يخافون من سوء الحساب وشدته، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

فالمؤمن يَنظر إلى تقصيره في أعماله مع الله تعالى: فيخاف سوء الحساب، ولكنه ينظر إلى سعة رحمة الله وعفوه: فيحسن ظنه بربه تعالى، ويرجو مغفرته ورحمته.

روى مسلم في: (صحيحه) عَن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يَموتَنَّ أحدكم إلاَّ وهو يحسن الظن بالله عز وجل».

زاد ابن أبي الدنيا في روايته: «فإِنَّ قوماً قد أَرْدَاهم سوء ظنهم بالله عز وجل فقال لهم: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾».

وروى الإمام أحمد، وابن أبي الدنيا وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنْ شئتم أنبأتكم ما أول ما يقول الله عز وجل للمؤمنين يوم القيامة، وما أول ما يقولون له»؟

قلنا: نعم يا رسول الله.

قال: «إن الله عز وجل يقول للمؤمنين: هل أحببتم لقائي؟

فيقولون: نعم يا ربنا.

فيقول: لِمَ؟

فيقولون: رجونا عفوك ومغفرتك.

فيقول: قد وجبتْ لكم مغفرتي».

وفي رواية للطبراني: «فقد وجبتْ لكم رحمتي»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله

---

(١) ذكره المنذري في: (ترغيبه) وعزاه لـ: (مسند) أحمد، وأورده صاحب: (مجمع الزوائد) وقال: رواه الطبراني بسندين أحدهما حسن. اهـ.

عليه وآله وسلم: «أمر الله عز وجل بعبدٍ إلى النار، فلما وقف على شفتيها ـ أي: طرفيها ـ التفت فقال: أما والله يا ربِّ إنْ كان ـ أي: إنه كان ـ ظني بك لحسن.

فقال الله عزَّ وجلَّ: رُدّوه ـ أي: إلى الجنة ـ أنا عند حُسن ظن عبدي بي»[1].

فالمؤمن الكامل المتحقق بمقام الخوف والرجاء: ينظر إلى ذنوبه وتقصيره في عمله مع الله تعالى؛ فيخاف ربه، وينظر إلى سعة مغفرة الله تعالى، وسعة رحمته تعالى؛ فيرجو مغفرة الله تعالى ورحمته.

روى الترمذي، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل على شابٍّ وهو في الموت فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف تجدك»؟

فقال: يا رسول الله أرجو الله تعالى، وأخاف ذنوبي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما اجتمعا ـ أي: الرجاء والخوف ـ في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا غَفر الله له».

وقد أوضح الإمام الغزالي رضي الله عنه، أَنَّ الرجاء الصحيح هو الذي يحمل صاحبه على الصالح من العمل ما استطاع صاحبه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فوصفهم بالإيمان وبالعمل

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه البيهقي عن وَلد عُبادة بن الصامت رضي الله عنه، ولم يُسمِّه، عن أبي هريرة رضي الله عنه. اهـ.

الصالح: وهو الهجرة والجهاد في سبيله؛ ثم أثبت لهم الرجاء الصحيح.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

وأما مَنْ قعد عن العمل وأخلد إلى الكسل، ومشى وراء أهواء نفسه المحرمة، ثم زعم أنَّه يرجو رحمة الله؛ فيقال له: أنت لستَ من أهل الرجاء، بل أنت مغرور بالأماني.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الكيِّس مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» رواه الترمذي.

٣ ـ وصِنْفٌ يدخلون الجنة بغير حساب ـ اللهم ألحقنا بهم، وهذا الصنف يشتمل على أصناف متعددة متفاوتة المراتب:

فهناك صنف يدخلون الجنة بغير حساب، بسبب أنهم من أهل التوكل الخاصِّ، ويدخل بمعيَّتهم أعداد كثيرة؛ لكرامتهم وفضلهم عند الله تعالى.

قال البخاري في: (صحيحه): باب: يَدخل الجنةَ سبعون ألفاً بغير حساب:

ثم أسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عُرضت عليَّ الأمم، فأخذ النبي يمرّ ومعه الأُمَّة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمرّ معه العشرة، والنبي يمرّ معه الخمسة، والنبي يمر وَحْده، فنظرت فإذا سواد ـ أي: أشخاص ـ كثير قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟

فقال: لا ولكن انظر إلى الأفق، فنظرتُ فإذا سَواد كثير.

فقال جبريل: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سَبعون ألفاً قُدَّامَهم لا حساب عليهم ولا عذاب.

قلت: ولمَ؟

قال: كانوا: لا يكتوون، ولا يَسْتَرْقون، ولا يتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكلون».

وفي رواية لمسلم زيادة: «لا يَرقُون».

وعنده أيضاً: «إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنَّهم أمتي فقيل: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأُفق؛ فنظرتُ فإذا سواد عظيم.

فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر ـ فإذا سواد عظيم.

فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب».

وفي لفظ للإمام أحمد، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فرأيت أُمتي قد مَلؤوا السهل والجبل، فأعجبتني كثرتهم وهيئتهم.

فقيل لي: أرضيتَ يا محمد؟

قلت: نعم أَيْ ربِّ».

وروى الإمام أحمد، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أُعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجلٍ واحدٍ؛ فاستزدتُّ ربي فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: فرأيت أَنَّ ذلك آتٍ على أهل القرى ومُصيبٌ مِنْ حافَّات البوادي.

وَرَوى أيضاً، عن ثوبان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ليدخلنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفاً، لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفاً»[1].

وروى الطبراني عن عتبة بن عبدٍ السُّلَمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ ربي عزّ وجلّ وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب، ثم يَشفع كلُّ ألفٍ لسبعين ألفاً، ثم يَحثي ربي عز وجل بكفيه ثلاث حثيات».

فكبَّر عمر رضي الله عنه وقال: (إن السبعين الأول يُشفعهم الله تعالى في: آبائهم وأبنائهم، وعشيرتهم، وأرجو أن يجعلني الله في إحدى الحثيات الأواخر)[2].

ومن جملة الذين يدخلون الجنة بغير حساب قُوّام الليل:

روى البيهقي، عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة، فينادي منادٍ فيقول: أين الذين كانوا تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناد رجاله كلهم ثقات، شاميون حمصيون، فهو حديث صحيح ولله الحمد والمنة. اهـ.

(٢) قال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه: (صفة الجنة): لا أعلم لهذا الإسناد علة. اهـ كما في: (تفسير) ابن كثير.

فيقومون وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب ـ ثم يُؤمر بسائر الناس إلى الحساب».

ومن جملة من لا حساب عليه: قارىء القرآن ابتغاء وجه الله تعالى، ومَن أمَّ قوماً وهم به راضون، وداعٍ يدعو إلى الصلاة، وعبد مملوك أحسن فيما بينه وبين ربِّه؛ وفيما بينه وبين مواليه.

روى الطبراني في: (الأوسط) و(الصغير) بإسناد لا بأس به، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر، ولا ينالهم الحساب، وهم على كثيبٍ من مِسكٍ حَتى يَفرغ من حساب الخلائق: **رجل** قرأ القرآن ابتغاء وجه الله تعالى؛ وأمّ به قوماً وهم به راضون، **وداعٍ** يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله، **وعبد** أحسن فيما بينه وبين ربه، وفيما بينه وبين مواليه»[1].

ومن جملة مَن يدخل الجنة بغير حساب: العلماء العاملون: فعن ثعلبة بن الحكم الصحابي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة: إني لم أجعل علمي وحلمي فيكم إلاّ وأنا أُريد أن أَغْفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي»[2].

وعن أَبي موسى رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَبعثُ الله العباد يوم القيامة، ثم يُميِّز العلماء فيقول:

---

(١) وأصل هذا الحديث في: (سنن) الترمذي، و(مسند) الإمام أحمد كما في (ترغيب) المنذري.

(٢) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في: (الكبير) ورواته ثقات. اهـ.

يا معشر العلماء إنِّي لم أَضع علمي فيكم لأعذبكم؛ اذهبوا فقد غفرت لكم»[1].

ومن جملة الذين يدخلون الجنة بغير حساب: الشهداء، والعافون عن الناس.

روى الطبراني بإسناد حسن، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا وقف العباد للحساب، جاء قوم واضعي سيوفهِم على رقابهم تقطر دماً، فازدحموا على باب الجنة.

فقيل: مَن هؤلاء؟

قيل: الشهداء، كانوا أحياء يُرزقون.

ثم نادى منادٍ: ليقم مَن أجره على الله فليدخل الجنة، ثم نادى الثانية: ليقم مَن أجره على الله فليدخل الجنة.

قيل: وَمَن ذا الذي أجره على الله»؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «العافون عن الناس.

ثم نادى الثالثة: ليقم مَن أجره على الله فليدخل الجنة.

فقام كذا وكذا ألفاً فدخلوها بغير حساب»[2].

ومن جملة الذين يدخلون الجنة بغير حساب: الحمّادون في السرّاء والضرّاء، ورجال لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى.

---

(١) عزاه الحافظ المنذري للطبراني في: (الكبير) أيضاً.

(٢) انظر: (ترغيب) المنذري في موضعين منه.

روى البيهقي في: (الشُّعَب) وابن مَرْدُويه، وابن أبي حاتم وغيرهم، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، يَسمعهم الداعي ويَنفذهم البصر، فيقوم منادٍ فينادي: أين الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء؟

فيقومون ـ وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب.

ثم يعود فينادي: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟

فيقومون ـ وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب.

فيعود فينادي: أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؟

فيقومون ـ وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب»[١].

* * *

---

(١) انظر: (تفسير) ابن كثير، و(الدر المنثور) من سورة النور.

تمثُّل الأعمال: خيرها وشرِّها

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

والمعنى: واذكر يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً: أمامها مشهوداً مُعَايَناً لديها، والذي عملته من الشر تودُّ حين تراه: لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ـ أي: مسافة بعيدة ـ أي: تود لو أَنَّ بينه وبينها بُعدَ المشرقين، فلا يجتمعان؛ ولا يلتقيان أبداً.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ والمعنى: أَنَّ الله سبحانه يُخوفكم نفسه، فلا تتعرَّضوا لغضبه وسخطه، ولا لعذابه، ولا لعتابه ولا لحجابه.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ومن رأفته بهم أنه حذرهم وأنذرهم عذابه وعقابه وغضبه، ومَن أنذر فقد أعذر.

ففي هذه الآية: دليل على أَنَّ الأعمال كلَّها: خيرها وشرها سوف يُحضرها الله تعالى يوم القيامة، ويراها صاحبها.

قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ أي: موجوداً.

وليس المراد حضورها في الكتاب، إذاً لقيل: ووجدوا ما عملوا مكتوباً أو مسطوراً ـ وإنما يرونه حاضراً بوجودٍ مِثاليٍّ.

وذلك أَنَّ هناك عالماً كبيراً واسعاً يُسمى عالم المثال، تتمثَّل جميع الأشياء فيه، سواءٌ كانت حِسية أو معنوية، وسواء كانت جسمية أو عقلية أو عملية، تتمثل هناك بمثال يُناسبها، فالحسنات تتمثل بصور نيِّرة حسنة، والسِّيئات بصور مظلمة سيئة قبيحة.

روى الإمام مسلم، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجَّة لك أو عليك» الحديث.

فالصلاة تتمثل بصور نورانية لصاحبها، والصيام ضِياءٌ له، والصدقة ـ أي: الزكاة ـ تأتي يوم القيامة بُرهاناً لفاعلها على صِدْق إيمانه، والقرآن يقف مع العبد موقف الحجة له إن عمل به، وعليه إنْ لم يعمل به.

روى مسلم، عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «اقرؤوا القرآن، فإِنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوَيْن[1]: البقرة وآل عمران؛ فإِنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غَمامتان أو غيايتان[2] أو كأنهما فرقان من طيرٍ صوافٍّ تُحاجَّان عن صاحبهما، اقرؤوا البقرة: فإِنَّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلة» يعني: أَن

---

(١) تثنية زهراء وسميت بذلك لشدة نُورها وجمالها.

(٢) الغمامة والغياية: كل شيء أظلَّ الإنسان فوق رأسه من سحابة أو غيرها ـ والمعنى: أنها تظله من حَرِّ الموقف وشدة الحساب.

من واظب على قراءة سورة البقرة حلَّت عليه البركة في: عمره، وعمله، ورزقه، وأهله، وداره، وحفظه الله تعالى من البَطَلةِ ـ أي: السحرة ـ.

وفي: (صحيح) مسلم، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِه الذين كانوا يَعملون به في الدنيا، تقدمه سورة البقرة وآل عمران».

وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهنَّ بعدُ قال: «كأنهما غَمامتان أو ظُلَّتانِ سوداوان، بينهما شَرْقٍ ـ أي: ضوء ـ أو كأنهما فِرقان من طيرٍ صوافٍّ تحاجّان عن صاحبهما».

فقراءة سورة البقرة وآل عمران تتمثل يوم القيامة بطيور صواف أجنحتها، يُحاجان ويدافعان عن صاحبهما يوم القيامة.

وعن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الصيام والقرآن يشفعان بالعبد يوم القيامة:

يقول الصيام: ربِّ منعته الطعام بالنهار فشفعني فيه.

ويقول القرآن: ربِّ منعته النوم بالليل فشفعني فيه ـ فيشفعان» رواه أحمد، وابن أبي الدنيا، والطبراني، والحاكم كما في: (الترغيب) للمنذري.

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾.

فأثبت سبحانه هُنا أَنَّ للسعي أمرين: **أحدهما** أنه يُرى، **ثانيهما** أنه يُجزى صاحبه الجزاء الأوفى.

فالسعي أي: العمل سوف يراه صاحبه وغيره عَياناً، متمثلاً بصورة مناسبة له، ولا يجوز أن يُقال: سوف يُرى جزاؤه؛ لأنه جاء بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

وهكذا أعمال الشرِّ والمخالفات تتمثل يوم القيامة بما يُناسبها في القيامة من الصور المثالية.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

والمعنى: لا يحسبنَّ الذين يَبخلون أن يؤدُّوا زكاة أموالهم؛ أن البخل خير لهم، وتوفير لمالهم، وتكثير له، وحفظ له من النقصان، بل إنَّ البخل شرٌّ لهم في الدنيا والآخرة، فإنَّه لا خير في مالٍ لا تُؤدى زكاته، وليعلموا أنهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم في هذه الآية: يجعل ما منعه من الزكاة حيَّة تُطوّق في عنقه يوم القيامة، تنهشه من فرقه إلى قدمه.

وهذا مأخوذ من الحديث الذي رواه البخاري وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم: «مَنْ آتاه الله مالاً فلم يُؤدِّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً ـ أي: ثُعباناً عظيماً ـ أقرعَ، له زبيبتان[1] يُطَـوِّقُه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيهِ ـ ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك» ثم تلا ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ الآية.

وروى مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في ظِلِّ الكعبة، فلما رآني قال: «هم الأخسرون وربِّ الكعبة».

قال: فجئت حتى جلستُ، فلم ألبث ـ أي: أستقر ـ أنْ قمت فقلت: يا رسول الله فداك أبي وأمي مَن هم الأخسرون؟.

قال: «هم الأكثرون أموالاً إلاّ مَن قال: هكذا وهكذا وهكذا: من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله[2] ـ وقليل ما هم.

ما مِن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يُؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنَه: تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما نفدت أُخراها عادت عليه أُولاها؛ حتى يقضىٰ بين الناس».

فالحيوانات التي لا تُزكَّى تُعاد أسمن ما كانت، تنطح صاحبها وتطؤه، والذهب والفضة ونحوهما من المال الذي لا يزكَّى ويسمى: كنزاً، فإنه يُمثَّل لصاحبه ثُعباناً عظيماً ـ كما تقدم في الحديث.

---

(١) هما: نكتتان سوداوان فوق عيني الحَيَّة الكبيرة.

(٢) والمراد: أنهم يكثرون الصدقات في سبيل الخيرات، ولا يمنعون خيرهم لعباد الله تعالى، فهؤلاء هم السالمون الرابحون من أغنياء المال، ومن عداهم هم الأخسرون.

وعن ثوبان رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من ترك بعده كنزاً مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً ـ أي: حية كبيرة ـ أقرع، له زبيبتان، يتبعه فيقول: مَن أنت؟

فيقول: أنا كنزك الذي خلّفتَ.

فلا يزال يتبعه حتى يُلقمهُ يده فيقضمها ـ أي: يأكلها بأطراف أسنانه ـ ثم يتبعه سائر جسده»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الذي لا يُؤدي زكاة ماله: يخيَّل إليه ماله ـ أي: يمثل له ماله ـ يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان» قال: «فيلزمه أو يطوقه يقول: أنا كنزك، أنا كنزك» رواه النسائي بإسناد صحيح.

* * *

---

(١) رواه البزار وقال: إسناده حسن، والطبراني، وابن خزيمة، وابن حبان، في: (صحيحيهما) كما في: (ترغيب المنذري). =

يوم تبيَضُّ وجوه وتسودُّ وجوه

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ـ اللهم بيِّض وجوهنا يا أرحم الراحمين.

وفي هذه الآية إخبار عن حال الناس يوم القيامة، وأَنَّ فريقاً منهم يَبْيَضُّ وجهه، وفريقاً يَسْودُّ وجهه.

قال الحسن البصري رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ قال: هم المنافقون، كانوا أعطوا كلمة الإيمان بألسنتهم، وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم. اهـ.

يعني: وأما الذين ابيضت وجوههم فهم: أهل الإيمان الصادق بالقلب واللسان والعمل.

وكما أَنَّ المنافقين تَسوَدُّ وجوههم، كذلك الكفار تسوَدُّ وجوههم ويقال لهم: ﴿ أَكَفَرْتُمْ ﴾ أي: في عالم الدنيا ﴿ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ يوم أخذ الميثاق في عالَم الذَّرِّ، يوم قال الله تعالى لكم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾.

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن أُبي بن كعب

رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: صاروا فرقتين يوم القيامة، يقال لمن اسودَّ وجهه: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فهو الإِيمان الذي كان في صُلب آدم، حيث كانوا أُمةً واحدة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾، فهم الذين استقاموا على إيمانهم، وأخلصوا له الدين، فَبَيَّض الله تعالى وجوههم، وأدخلهم في رضوانه وجنته. اهـ.

ويدل على ذلك ما رواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في: (صحيحه) والحاكم وصححه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾.

قال: «يُدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويُمدّ له في جسمه ستون ذراعاً، ويُبَيَّض وجهه، ويُجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ».

قال: «فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم بارك لنا في هذا ـ حتى يأتيهم فيقول: أبشروا فإِنَّ لكل رجل منكم مثلَ هذا.

وأما الكافر: فَيُعطىٰ كتابه بشماله، وَيُسَوَّدُ وجهه، ويُمدُّ له في جسمه ستون ذراعاً، ويُجعل على رأسه تاج من نار؛ فيراه أصحابه فيقولون: اللهم أخِّره، اللهم لا تأتنا به ـ فيأتيهم فيقول: أبعدكم الله، فإِنَّ لكل رجل منكم مثلَ هذا».

ففي هذا الموقف: تبيض وجوه أهل الإيمان والاستقامة،

ويُمنحون تاج العزة والكرامة، وتسود وجوه الكفار، ويقبَّحون بتاج المذلة والإهانة.

وإنَّ تيجان الكرامة هي أنواع متعددة، ويُعطاها أهلها على حسب مراتبهم، فلأهل القرآن تيجان كرامة القرآن مع تيجان كرامة الإيمان.

روى الترمذي وحسنه، وابن خزيمة، والحاكم وصحح إسناده، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول: يا ربِّ حلِّه، فيُلبس تاج الكرامة.

ثم يقول: يا ربِّ زده؛ فيُلبس حلة الكرامة.

ثم يقول: يا ربِّ ارضَ عنه؛ فيرضى عنه.

فيقال له: اقرأ وارْق، ويَزداد بكل آية حسنة».

وعن سهل بن معاذ، عن أبيه رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ قرأ القرآن وعمل به: أُلبس والداه تاجاً يوم القيامة: ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا، فما ظَنُّكم بالذي عمل به» رواه أبو داود.

كما أن هناك أَلْوِيَةٌ تُنصب يوم القيامة لأهل الخير والشر، فينصب لكل متبوع من أئمة الهدى، وأئمة الضلال لواء يُعرف به.

قال الحافظ الزرقاني في: (شرح المواهب): وتنصب في القيامة مقامات لأهل الخير والشر، لكل متبوع لواء يُعرف به قدره. اهـ.

فهناك ألوية العزة والكرامة: لدعاة الهدى والرشاد، يُكرمهم الله

تعالى بها، ويُعلن كرامتهم على مشهدٍ من الخلائق ـ تكريماً وتشريفاً لهم.

قال العلامة التُّورِبِشْتي فِيما نقله العلامة المناوي عنه: ولا مقام من مقامات عباد الله الصالحين أَرفع وأعلى من مقام الحمد، ودونه تنتهي جميع المقامات. اهـ.

فلواء سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فوق جميع الألوية المرفوعة لأهلها، وهو عالٍ مشرف على الكل، وجميع الألوية وأصحابها تحت لوائه صلى الله عليه وآله وسلم، فله المقام الأكبر، والمظهر الأنور الأشهر صلى الله عليه وآله وسلم.

وسيأتي بعض الكلام على بعض خصائص لوائه العالي صلى الله عليه وآله وسلم.

وأَمَّا دعاة الشر وأئمة الضلالة، فأولئك لهم أَلوية الذلة والمهانة ـ تشهيراً وفضيحة لهم.

روى الترمذي، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً صلاة العصر، ثم قام خطيباً، فلم يدعْ شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حَفِظه مَنْ حفظه، ونسيه من نسيه، وكان فيما قال: «إنَّ الدنيا خضرة حُلوة، وإنَّ الله مستخلِفُكم فيها فناظر كيف تعملون، ألا فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء.

ألا إنَّه يُنصَب لكل غادرٍ لواء يوم القيامة بقدر غدْرته، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامَّةٍ، يُركز لواؤه عند اِسته» الحديث، وهو حسن صحيح.

وفي: (الصحيحين): «إنَّ الغادر ينصب له لواء يوم القيامة».

وهكذا أئمة الضلال تُحمل عليهم ألوية الخزي والمهانة، ويقودون أتباعهم إلى النار: كما قادوهم إلى الكفر في الدنيا.

قال الله تعالى مخبراً عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «امرؤ القيس حاملُ لواء شعراء الجاهلية إلى النار».

ورواه ابن عساكر وغيره بلفظ: «امرؤ القيس قائد الشعراء إلى النار».

قال العلامة المناوي في: (شرح الجامع الصغير): تنبيه: قال العلامة القرطبي: هذا الحديث وما قبله يدل على أَنَّ من كان إماماً درّاساً في أمرٍ ما؛ هو معروف به، فله لواء يُعرف به: خيراً كان أو شراً، فللأولياء والصالحين ألوية: تَنويه، وإكرام وإفضال، كما أَنَّ للظالمين ألوية: فضيحةٍ، وخزي ونكال.

* * *

عـالَم الميـزان

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

فوزن الأعمال والأقوال يوم القيامة هو حقٌّ ثابت، محقَّق الوقوع لا محالة؛ لإظهار الحق.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع موزون وهو: العمل، أو جمع ميزان وهو: ما له لسان وكفَّتان، توزن فيه الأعمال والأقوال.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: رجحت حسناته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين ظفروا بالبغية، ونالوا غاية الأماني.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: موازين حسناته، بأن رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ وهذا أعظم الخسران ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فإنهم لما ظلموا بآيات الله تعالى، وضيعوها، ولم يرْعوها حقها: باتباع ما جاء فيها؛ أضاعهم الله تعالى، وأوقعهم في الخسران المبين، وهو خسارة أنفسهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

فلا يثقل الميزان إلا بالحسنات والأعمال الصالحة، فإنَّ بها صلاحَ النفس وصلاح الأهل وصلاح المجتمع، وبها يَصلح الإنسان لأنْ يَدخل في حضرة الله تعالى، وأَنْ يتقرب بها إلى الله تعالى، ويكون في جنة الله عز وجل، ويحلَّ ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

ومن جملة الحسنات المثقلة للميزان: الإكثار من التسبيح والتحميد.

وفي الحديث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلمتان: خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده؛ سبحان الله العظيم».

وروى النسائي، وابن حبان وصححه ـ واللفظ له ـ عن ثوبان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بخ بخ، خَمْسٌ ما أثقلهنَّ في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إِلَه إِلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يُتوفَّى للمرء المسلم فيحتسبُه» أي: فيصبر ويحتسب الأجر عند الله تعالى.

ومما يُثْقل الميزان: حُسْنُ الخلق، وطول الصمت.

فقد روى ابن أبي الدنيا، والبزار وأبو يعلى، والطبراني، والبيهقي بسند حسن، عن أنس رضي الله عنه قال: لقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا ذر رضي الله عنه فقال: «ألا أدلك على خصلتين: هما خفيفتان على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرهما»؟

قال: بلى يا رسول الله.

قال: «عليك بحسن الخلق، وطول الصمت ـ فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما».

وروى أبو داود، والترمذي وصححه، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من شيء يُوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خُلُقٍ حسن».

ومما يثقل به الميزان: كثرة الدعاء.

فقد روى أبو داود وغيره، عن أبي الأزهر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل قال: «بسم الله، وضعت جنبي لله، اللهم اغفر لي ذنبي، وأخْسىء شيطاني، وفُكَّ رِهاني، وثَقِّل ميزاني، واجعلني في النديِّ الأعلى».

ومما يثقل به الميزان: أثر العلم النافع.

فقد أخرج ابن عبد البرِّ، عن إبراهيم النخعي قال: (يُجاء بعمل الرجل فيوضع في كِفَّةِ ميزانه يوم القيامة فَيَخِفُّ، فيجاء بشيء أمثالِ الغمام فيوضع في كفة ميزانه فترجح كفته.

فيقال له: أتدري ما هذا؟.

فيقول: لا.

فيقال له: هذا فضل العلم الذي كنت تعلِّمه الناس).

وأخرج ابن المبارك في: (الزهد) عن حمَّاد بن أبي سليمان قال: (يجيء رجل يوم القيامة فَيَرىٰ عمله مُحضراً، فبينما هو كذلك إذ جاءه مثل السحاب حتى يقع في ميزانه.

فيقال له: هذا ما كنتَ تعلِّم الناس من الخير، فَوُرِث بعدك

فأُجِرْت فيه). اهـ. ذُكر ذلك في: (الدر المنثور) وغيره.

وقال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾.

أصل القَرْع الصوت الشديد، ومنه: قوارع الدهر أي: شدائده.

والقارعة هي اسم من أسماء القيامة، سميت بذلك: لأنها تَقْرع القلوب بالفزع والأهوال والشدائد، أَوْ بسبب صوت إسرافيل عليه السلام حين ينفخ في الصور نفخة الإماتة، فتموت الخلائق من شدة صوت نفخته.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ فيه تهويل لأمرها وتعظيم لداهم خطرها ـ والمعنى: أنها فاقت جميع القوارع في هولها وشدتها، فهي القارعة كلَّ القارعة التي لا تُشابهها أيُّ قارعة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: لا علم لك بكُنْهِها، لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها الفهم، ولا يتصور عِظمها الوهم، بل هي أشد وأعظم، وأدهى وأمرُّ.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ والفَراش هو الذي يتهافت في النار، سميت بذلك لتفرشها وانتشارها، وهكذا الناس يَومئذ يُبعثون من قبورهم، يكونون كالفراش المبثوث: المتفرق المتطاير الثائر المنتشر.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ أي: كالصوف

المندوف المتطاير، بعد أن كانت عظيمة صَلدة صلبة.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذاتِ رضىً، تُرضي صاحبها كل الرضى، أو مَرضية يَرضى بها صاحبها كل الرضى ـ اللهم اجعلنا منهم.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي: مأواه الذي يُؤويه: هو الهاوية أي: النار، سميت بذلك لأنها مَهواة عميقة القعر، يهوون فيها على رؤوسهم سبعين خريفاً ـ والعياذ بالله تعالى.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ أي: وما أدراك ما الهاوية! إن أمرها عظيم وخطرها جسيم.

﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ أي: قوية الحرارة، أليمة العذاب.

وفي هذا تحذير وتخويف للعباد لئلا يسلكوا طريق تلك النار الحامية، بل يُباعدوا أنفسهم عن اقتراف أسباب عذابها: من المحرمات، والمخالفات التي نهى الله تعالى عنها، لأنَّ عذاب تلك النار أليم، وإنها نار الحميم، وإنها نار الله الموقدة، فلا يتخذوها هزواً، ولا يستهينوا بجانبها، ولا يفعلوا المحرمات فيقعوا في أشراكها وأوديتها.

فليحذر العاقل، وليعلم الجاهل، ولينتبه الغافل أنها الهاوية، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.

ولقد بيَّن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى له: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ بيَّن حَماوة تلك النار، وشدة حرها، فقال كما جاء في: (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله

عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ناركم هذه ـ ما يوقِدُ بنوا آدم ـ جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم».

قالوا: والله إنْ كانت لكافية ـ أي: إنّها إن كانت في حرارتها كافية ـ.

قال: «إنها فُضِّلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً، كلهنَّ مِثْل حَرِّها».

قال الحافظ المنذري في: (الترغيب): ورواه أحمد، وابن حبان في: (صحيحه) والبيهقي فزادوا فيه: «وضُربت ـ أي: نار الدنيا ـ بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جَعل الله فيها منفعة واحدة».

وهنا قف واعتبر، واعلم ما للبحر المحيط في كُرة الأرض من تعديلاتٍ في أجواء الأرض، وتأثيرات على ما في الأرض، حتى على نارها، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة.

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر ناركم هذه فقال: «إنها لجزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وما وصلت إليكم حتى ـ أحسبه قال: ـ نُضِحت مرتين بالماء ـ أي: ماء البحر ـ لتُضيء لكم، ونار جهنم سوداء مظلمة» رواه البزار، والحاكم وصححه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم»[1].

---

(١) قال في: (الترغيب): رواه أحمد ورواته رواة الصحيح. اهـ هذا وإن =

فهي نار حامية حقاً وحقيقة ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴾.

فلا تهزل أيُّها المسلم في آيات الله تعالى، وتتخذها هزواً فتقول: هذا من باب الإيهام في التخويف، وليس من باب الحقيقة ـ بل هو من باب الحق والحقيقة.

قال الله تعالى: ﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ ﴾ الآية.

فإنزال القرآن بالحق هو: حفظ الله تعالى له من تلاعب الشياطين حين أنزله، وقد نزل به الروح الأمين بجمهرة من الملائكة، حتى انتهىٰ إلى قلب السيد الأكرم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، المعصوم بعصمة ربِّ العزة ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾.

وأما معنى: ﴿ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ ﴾ أي: ونزل هذا القرآن ببيان الحق الكاشف عن حقيقة الأمور، فلا هزل فيه ولا لهو، ولا عبث ولا باطل.

قال تعالى: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ الآيات.

= تفاصيل الكلام على أوصاف جهنم وشدة حرها، وألوان عذابها، وجميع ما يتعلق بها وبأهلها؛ سوف يأتي ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب ـ إن شاء الله تعالى.

وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه؛ بسبب اتباعهم الحق الذي جاءت به الرسل صلوات الله تعالى عليهم من عند الله تعالى الملك الحق، وطبقوا أوامر الحق في أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم - وإن لكل حقٍّ حقيقةً ثابتة يثقل بها الميزان.

وإنما خفت موازين مَن خفَّت موازينه؛ بسبب اتباعهم الباطل، وإنَّ الباطل لا حقيقة له ثابتة، وإنما هو ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾.

ويشير إلى ذلك ما جاء في وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إلى الفاروق رضي الله عنه، حين استخلفه وأوصاه فقال له:

(يا عمر إني قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

يا عمر إن لله تعالى حقاً في الليل ولا يقبله في النهار، وحقاً في النهار ولا يقبله في الليل، وإنه لا يقبل نافلةً حتى تُؤدىٰ الفريضة.

ألم تر يا عمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة: باتباعهم الحق وثقله عليهم - وحُقَّ لميزانٍ لا يُوضع فيه غداً إلا حقٌّ أن يكون ثقيلاً.

ألم تر يا عمر أنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة: باتباعهم الباطل وخفَّته عليهم - وحُقَّ لميزانٍ لا يوضع فيه غداً إلا الباطل أن يكون خفيفاً.

ألم تر يا عمر أنما أُنزلت آية الرجاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرجاء، ليكون المؤمن راغباً راهباً: لا يرغب رغبةً يتمنى

على الله تعالى ما ليس له، ولا يَرْهَب رهبة يُلقي فيها بيديه ـ أي: بأن يقنط من رحمة الله تعالى ـ.

ألم تر يا عمر أنما ذكر اللهُ تعالى أهلَ النار بسوء أعمالهم، فإذا ذكرتَهم قلتَ: إني لأرجو أن لا أكون منهم، وأنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم، لأنه تجاوز عمَّا كان من سيّيء، فإذا ذكرتهم قُلتَ: أين عملي من أعمالهم).

أي: فتنظر إلى تقاصر أعمالك بالنسبة لأعمالهم، ولكنك ترجو من الله أن يجعلك منهم، ويكرمك بما أكرمهم.

فلا تغرنك نفسك أيها الأخ المؤمن، مهما علتْ بك المراتب، وارتفعتَ في المقامات والدرجات، ومهما زكت نفسك بالأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة، وليكن شأنك شأن المؤمنين المقربين، الذين وصفهم الله تعالى في سورة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

روى الترمذي، عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الذين يزنون ويسرقون؟

قال: «لا يا ابنة الصديق! ولكنهم الذين يُصلُّون ويصومون ويتصدقون، وهم يَخافون أن لا يُتَقبل منهم».

ولفظ أحمد: قالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر؛ وهو يخاف الله عز وجلَّ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يا بنت الصديق! ولكنه الذي يُصلي ويَصُوم ويتصدق؛ وهو يخاف الله عز وجلّ».

فهؤلاء لما خافوه، وخافوا أن لا يَتَقَبَّل صلواتهم وصدقاتهم، لاحتمال أنهم قد قصروا في القيام بشرط القبول والعطاء، فلما خافوا من ذلك: أمنهم الله تعالى من جميع ما هنالك يوم القيامة لأن الله تعالى لا يجمع على عبد خوفين ولا أمنين: فمن خافه في الدنيا أَمَّنَهُ في الآخرة، وَمَن أَمِنَهُ في الدنيا أخافه في الآخرة ـ كما ورد في الحديث.

دقّــة الميزان وأنــواع الموازيــن

قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

في هذه الآية الكريمة: تتجلى عظمة الفضل الإلّهي، وحقيّة العدل الرباني، فإِنَّ المحاسبة والميزان سوف يأتيان على مثاقيل الحبّات ومقادير الذرات، لأنَّ الرقيب على أعمال العباد هو الحسيب العليم، الحاسب: هو الله تعالى رب العالمين، الذي لا تخفى عليه خافية.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: ونُحضر الموازين ذاتَ القسط، الذي هو العدل، وهي الموازين المستقيمة كل الاستقامة، فلا يجري فيها ظلم ولا نقص ولا بَخس.

والموازين هنا جمع ميزان: وهو ما يوزن به الشيء، وله كِفَّتان ولسان.

وإنما جمع الموازين إما لتعددها: فهناك ميزان أعمال القلوب، وميزان لأعمال القوالب والجوارح، وميزان لأقوال اللسان، وميزان للإيماءات القولية، وميزان للأخلاق، وميزان لأحوال القلوب، وميزان لأحوال النفوس، وميزان وميزان...

وقيل: جمعها لاعتبار تعدد الأعمال والأقوال الموزونة بها.

وقيل: جمع الموازين مع أنها ميزان واحد لتعظيم شأن الميزان.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لأجل أهل يوم القيامة.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: فلا يُنقص مما لها شيء، ولا يزاد فيما عليها شيء.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ ـ أي: صغيرة جزئية ـ ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: أحضرناها للحساب، ووضعناها في الميزان، لأنه لا يغيب عن علمنا شيء، ولا يُعجز قدرتنا إحضار شيء، فهو سبحانه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير.

وإنما أَنَّثَ ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فهو سبحانه لا يظلم العبد مثقال ذرةٍ ـ أي: لا يزيد في عقوبة المسيىء مثقال ذرة فوق إساءته وعقابه، ولا يُنقص من أجر المحسن مثقال ذرة من حسنته وثوابه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الذرَّة رأس نملة حمراء.

وقال بعضهم: الذرّة كل جزءٍ من أجزاء الهباء الذي يكون في الكوَّة؛ إذا كان فيها ضوء شمس.

ومن المعلوم أن هذا شيء صغير جداً جداً، ولكنه مَثَل ضربه الله تعالى لأقل الأشياء؛ ليبين لعباده أنه لا يظلم أحداً شيئاً من قليل ولا من كثير.

ثم يبين سبحانه سعة فضله وكرمه، بعدما بيّن تمام عدله فقال سبحانه: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾ أي: وإن تك تلك الذرَّة الجزئية حسنة يضاعفها إلى عشر أمثالها، إلى سبعين ضعفاً، إلى سبعمائة ضعفٍ، إلى أضعاف كثيرة كما ورد في الأحاديث.

ومع ذلك فإنه سبحانه كما قال: ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ فما أعظم فضله وما أوسع كرمه سبحانه وتعالى.

روى الإمام أحمد من طريقين، عن أبي عثمان النَّهدي قال: أتيت أبا هريرة رضي الله عنه فقلت له: بلغني أنك تقول إن الحسنة تُضاعف ألف ألف حسنة.

فقال: وما أعجبك من ذلك؟ فوالله لقد سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة».

وقد أورد ابن كثير هذا الحديث من طريقين آخرين، أسندهما ابن أبي حاتم.

ومن عظيم فضله سبحانه أَنّ حسنة المؤمن وإنْ دقَّتْ تنفعه في الدنيا والآخرة، وأما الكافر فينعم بها في الدنيا، وأما في الآخرة فلا ينعم بها.

روى مسلم، عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ الآية، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن الله لا يظلم مؤمناً حسنةً: يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة.

وأما الكافر فيُعطى بحسناتٍ قد عمل بها في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها» أي: ينعم بها.

وهذا لا يتنافى مع ما ورد من أَنَّ حسنات الكافر تُخفِّف عنه من شدة العذاب لا من مدته يوم القيامة.

والمراد بالحسنات التي تُخَفِّفُ عن الكافر من شدة العذاب: هي الأعمال التي فيها منافع للعباد، أو دفع مضارٍّ، أو رفق بحيوان ونحو ذلك مما لم يشترط فيه الإسلام، وأما تعبداتهم وطاعاتهم التي يزعمونها فإنها لا تُقبل منهم؛ لعدم وجود الإسلام الذي هو أساس في قبولها.

قال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ أي: ما عملوا من قربات وطاعات وتعبدات في زعمهم، وأمَّا ما عملوه من نفع للعباد، ودفع الضرر عنهم، والرفق بعباد الله تعالى؛ وبالإنسان وبالحيوان فذلك ينفعهم في الدنيا، ويخفِّف عنهم من شدَّة العذاب في الأُخرى، لا من مدّته ـ كما عليه المحققون، جمعاً بين الأدلة الواردة في ذلك.

وسيأتي تفصيلها في القسم الثاني، حين نتكلم على عالم الجنة وعالم النار إن شاء الله تعالى.

هل الوزن يأتي على الأعمال
أم على كُتُب الأعمال

اختلف علماء السلف رضي الله عنهم في الموزون: أهو الأعمال والأقوال، أم كتب الأعمال والأقوال؟ ولكلٍ وجهة ودليل.

فذهب كثير من العلماء إلى أن الأعمال والأقوال توزن في الميزان.

قال البخاري في: (صحيحه): باب قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وأن أعمال بني آدم وأقوالهم توزن.

وقال مجاهد: القسطاس العدل ـ بالرومية ـ، ويقال: القِسط مصدر المقسط وهو العادل، وأما القاسط فهو الجائر.

ثم روى البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وبهذا الحديث استدل البخاري على أَنَّ ذات الأقوال والكلمات تُوزن، والأعمال كذلك.

وروى مسلم، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة بُرهان، والصبر

ضياء، والقرآن حجَّة لك أو عليك، كلُّ الناس يغدو فبائع نفسَه: فمعتقُها أو موبِقُها».

وروى الترمذي، عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن رجلاً قعد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إنَّ لي مَمْلوكين يَكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يُحسَب ما خانوك وعصوك وكذبوك: وعقابُك إياهم:

فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً: لا لك ولا عليك.

وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك.

وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتُصَّ لهم منك الفضل».

قال: فتنحَّى الرجل فجعل يبكي ويهتف.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أما تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾»؟

فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء خيراً من مُفارقتهم، أُشْهدكَ أنهم كلَّهم أحرارٌ.

وروى الطبراني في: (الأوسط) عن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أوّل ما يوضع في ميزان العبد

نفقته على أهله»[١] ـ يعني: أنه يؤجره الله تعالى عليها إذا أنفقها على أهله وهو يحتسبها كما ورد.

وروى أبو داود وغيره، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليهِ وآله وسلم أنه قال: «ما مِنْ شَيءٍ أثقل في الميزان مِنْ حُسن الخُلق».

فهذه الأحاديث تدل على أَنّ الأعمال والأقوال والأخلاق هي التي توزن في الميزان.

وقد يَرِد على ذلك إشكال وهو: أن الأعمال والأقوال هي أعراض، فكيف يأتي عليها الوزن وتُوزن في الميزان؟.

والجواب عن ذلك كما قال المحققون من أهل العلم والمعرفة هو: أن هناك عالَماً يُسمَّى: عالم المثال تتمثل فيه جميع المحسوسات والمعاني، والأعمال والأقوال حسب المناسبات.

فهناك تتمثل الأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة بصورة حسنة نيِّرة.

وهناك تتمثل الأعمال الخبيثة بصورٍ سيئةٍ قبيحةٍ مُظلمة، كل ذلك على حسب المناسبات لتلك العوالم التي تتمثل فيها.

والكلام على المثال وتفاصيله أوضحناه في كتابنا: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام)، وكتابنا: (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) وقد تقدم في هذا الكتاب البحث في تمثل الأعمال يوم القيامة بصور مختلفة.

---

(١) انظر: (ترغيب) المنذري.

وذهبت طائفة من العلماء إلى أَنّ الذي يوزن يوم القيامة هو: كتب الأعمال والأقوال، واستدلوا على ذلك بحديث البطاقة المشهور.

روى الإمام الترمذي في: (سننه) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله عز وجل سَيُخَلِّص رجلاً من أُمتي على رؤوس الخلائق، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجلٍّ مدُّ البصر.

ثم يقول الله تعالى له: أتنكر من هذا شيئاً؟

أظلمكَ كتبتي الحافظون؟

فيقول: لا يا ربِّ.

فيقول: أفلك عذر؟

فيقول: لا يا ربِّ.

فيقول الله عزّ وجل: بلى إنَّ لك عندنا حسنة ـ فإنه لا ظلم عليك اليوم.

فتُخرَج بطاقة فيها: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فيقول الله له: احضُر وزنكَ.

فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟

فيقول الله تعالى: إنك لا تُظلم.

فتوضع السِّجلات في كِفة، والبطاقة في كِفة ـ فطاشتْ السجلات وثقلت البطاقة؛ ولا يَثِقُل مع اسم الله تعالى شيء».

فهذا الحديث صريح في أَنّ الذي يُوضع في الميزان هو كتب الأعمال والأقوال.

فإن قيل: كيف رجحت بطاقة شهادة هذا على تلك السجلات المليئة بالذنوب، مع أَنَّ جميع العصاة من المسلمين عندهم هذه الشهادة، ولم تترجح على كتب معاصيهم وذنوبهم؟

فالجواب عن ذلك:

إنَّ كلمة الشهادتين قد تكون هي بها الإسلام، وقد تكون حسنة من الحسنات التي أتى بها صاحبها بعد الدخول في الإسلام:

فمن كان كافراً فقال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، أو قال: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، ودخل بها في الإسلام، فإن هذه الشهادة وهي شهادة الإسلام تَهْدِم ما قبلها من الذنوب والمعاصي:

كما جاء في: (صحيح) مسلم، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له حين جاء يبايعه على الإسلام: «أما علمت أَنّ الإسلام يَهْدم ما قبله، وأَنّ الهجرة تهدم ما قبلها، وأَنّ الحج يهدم ما قبله» الحديث.

وأما من كان مسلماً وتشهَّد أَو هلَّل فإِنَّ ذلك يُعتبر حسنة بل من أكبر الحسنات.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في: (مسنده) عن أبي ذرٍ رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله: أوصني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا عَمِلتَ سيئةً فأَتْبعها بحسنة تمحُها».

قال: قلت: يا رسول الله أَمِنَ الحسنات لا إلّه إلا الله؟

قال: «هي: أفضل الحسنات».

والمعنى: أَنّ لا إلّه إلا الله تمحو من السيئات على حسب إخلاص قائلها فيها، كما هو شأن سائر الحسنات، بل هي أفضل الحسنات، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية.

فصاحب البطاقة الوارد ذكره في الحديث السابق ـ فيه أقوال:

القول الأول: يحتمل أنه كان كافراً ثم أسلم في آخر عمره، وشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وخُتِمَ له بذلك، فحينئذ يكون بها إسلامه، والإسلام يهدم ما قبله من الذنوب.

والقول الثاني: أَنّه كان مسلماً لكنه مسرف على نفسه، بكثرة ذنوبه التي ملأت تسعة وتسعين سجلاً بالخطايا والذنوب، ولكنه له حسنة كبيرة قد تقرَّب بها إلى الله تعالى وهي: **لا إلّه إلا الله محمد رسول الله** المسطورة في البطاقة الصغيرة الحجم، لكنَّ صاحبها قد قالها في آخر عمره، وقد نَطَق بهاتين الشهادتين منيباً إلى ربه، تائباً من ذنوبه، خائفاً من العقاب ومن سوء الحساب، مُقبلاً بقلبه على الله تعالى، خائفاً من ذنبه، راجياً رحمة ربه ـ هكذا كانت خاتمة عمره فكانت المغفرة عاقبة أمره.

والحاصل أَنّ خاتمة هذا الرجل كانت حسنة، وهي الشهادة الصادرة عن قلب منيب، وعن توبة إلى الله تعالى من جميع الذنوب، وعن خوف من الله تعالى أَنْ يعاقبه على ذنوبه، وعن رجاء من الله تعالى أن يَرحمه فيغفر له، وكان له ذلك لأن العبرة بالخواتيم.

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها.

فيكون هذا الرجل هو نظيرَ الرجل الآخر الذي ورد أَنَّه قتل تسعةً وتسعين نفساً، ثم ذهب إلى القوم العابدين ليعبد الله تعالى، تائباً من ذنبه، منيباً إلى الله تعالى بقلبه، فجاءه الموت قَبْل أن ينتهي إلى القوم العابدين، وهناك يأمر الله تعالى الملائكة أَنْ يقيسوا بين الأرض التي خرج منها، والأرض التي أرادها، فإلى أيِّهما أقرب؟ فإذا هو أقرب إلى الأرض التي أرادها بشبر ـ فغفر الله تعالى له وألحقه بالتائبين العابدين.

ورد في: (الصحيحين) عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على راهب ـ أي: عابد غير عالم ـ فأتاه فقال له: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟

فقال: لا ـ فقتله فكمل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجل عالم، فقال له: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟

فقال: نعم، ومَنْ يحول بينك وبين التوبة؟!

انطَلِقْ إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء.

فانطلَقَ حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاه ملك الموت...» إلى تمام الحديث، كما تقدم في بحث لقاء الله تعالى.

فصاحب البطاقة الذي نحن في بحثه، وشمول المغفرة له هو

من جهة حسن العاقبة؛ نظير هذا الرجل الذي قتل مائة نفس، الذي قالت فيه ملائكة العذاب: «إنه لم يعمل خيراً قط»، ولكن قالت فيه ملائكة الرحمة: «إنه جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى».

القول الثالث: قال بعض العلماء: إن صاحب البطاقة أراد الله الغفور الرحيم أن يُكرمه إكراماً خاصّاً، ويُعلن ذلك على رؤوس الخلائق، فغفر له جميع ذنوبه، ومحاها عنه بسبب تلك الشهادة التي تقرَّب بها إلى الله سبحانه.

فهذا من باب الإكرام الإلّهي الخاصِّ به، كما يُشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم في صدر الحديث: «إن الله تعالى سيخلِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق».

هذا وإن الله تعالى الغفور الرحيم: يغفر لمن يشاء من المذنبين المرتكبين الذين لم يتوبوا؛ فضلاً منه وكرماً، كما هو الاعتقاد عند أهل السنَّة والجماعة، ويُعذب مَن يشاء من العُصاة المرتكبين، فالأمر عائد إليه سبحانه وتعالى.

* * *

موقف الامتحان الاعتقادي والعملي

إن أول الامتحانات التي تمرّ على الإنسان حين يَنتقل من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة؛ هو الامتحان بالسؤال الذي يُلقى عليه في القبر، الذي هو أول برازخ الآخرة كما تقدم.

وإن الامتحانات التي تَجري عليه يوم القيامة هو الامتحان في العقيدة والعمل.

أما الامتحان الاعتقاديُّ: فإنَّ الله تعالى يَمتحن العباد يوم القيامة في معتقداتهم التي اعتقدوها برب العالمين؛ حين كانوا في الدنيا، وبهذا الامتحان يتميَّز المنافق الكاذب من المؤمن الصادق، ويظهر أهل الإيمان الصحيح والاعتقاد الصادق، وأهل الإيمان الكاذب والعقيدة الفاسدة.

وأما الامتحان العمليُّ: فإن الله تعالى يَمتحن العباد يوم القيامة بأمرهم بالسجود له سبحانه، وبهذا الامتحان: يتبيّن المؤمن الصادق المخلص بعباداته، ممن هو كان في الدنيا منافقاً أو مرائياً في عباداته وأعماله.

روى الشيخان ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن أناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل تُضارُّون[1] في رؤية القمر ليلة البدر»؟

قالوا: لا يا رسول الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل تُضارّون في الشمس ليس دونها سحاب»؟

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: «فإنكم ترونه كذلك»[2].

«يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: مَن كان يعبد شيئاً فليتْبعه.

---

(١) قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: وفي الرواية الأخرىٰ: «هل تُضامُّون» وروي «تُضارون» بتشديد الراء وبتخفيفها، والتاء مضمومة فيهما:
ومعنى المشدَّدة: هل تضارون غيرَكم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها ـ لخفائه؛ كما تفعلون أول ليلة من الشهر؟
ومعنى المخفَّفة: هل تلحقكم في رؤيته ضَير؟ وهو الضرر.
وروي أيضاً: «تضامُّون» بتشديد الميم وتخفيفها.
فمن شدَّدها فتح التاء، ومن خفَّفها ضمَّ التاء.
ومعنى المشدّدة: هل تتضامُّون وتتلطفون في التوصل إلى رؤيته؟
ومعنى المخفَّف: هل يلحقكم ضَيم؟ وهو المشقة والتعب.
قال: وفي رواية للبخاري: «لا تضامون أو لا تضارون» على الشك (من الراوي) ومعناه: لا يشتبه عليكم، وترتابون فيه، فيعارض بعضكم بعضاً في رؤيته، والله أعلم. اهـ.

(٢) ووجه التشبيه في ذلك: هو قوة الجلاء والوضوح، وزوال الشك والمشقة والاختلاف ـ كما في: (شرح) مسلم.

فيتبع من كان يعبد الشمسَ: الشمسَ، ويتبع مَن كان يعبد القمر: القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت[1] الطواغيتَ، وتبقى هذه الأمَّة فيها منافقوها[2].

فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورةٍ غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم.

فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه.

فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يَعرفون فيقول: أنا ربكم.

فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه[3].

---

(١) جمع طاغوت، وهو كل ما عبد من دون الله تعالى، لما في ذلك من الطغيان، ولذا قال علماء اللغة: هو على وزن فَعْلوت، والتاء زائدة، وهو مشتق من طغىٰ، وتقديره: طَغَووت، ثم قلبت الواو ألفاً.

(٢) قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: قال العلماء: إنما بَقوا ـ أي: بقي المنافقون من هذه الأمة في جملة المؤمنين من هذه الأمة ـ إنّما بقوا في زُمرة المؤمنين لأنهم كانوا في الدنيا متسترين بهم، فيتستَّرون بهم أيضاً في الآخرة، وسلكوا مسلكهم ودخلوا في جملتهم، وتبعوهم ومشوا في نورهم، حتى ضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب، وذهب عنهم نور المؤمنين.
قال بعض العلماء: هؤلاء هم المطرودون من الحوض الذين يقال لهم: سُحقاً سحقاً والله أعلم. اهـ.

(٣) أي: فيتبعون أمر الله تعالى إياهم بذهابهم إلى الجنة، أَوْ يتبعون دعوة الله تعالى لهم إلى الجنة، فيستجيبون لدعوته.
قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾. =

ويُضرب الصراط بين ظَهْري جهنم، فأكون أنا وأمتي أوَّل مَن يُجيز» الحديث وسيأتي تمامه إن شاء الله تعالى.

الكلام على الصورة الوارد ذكرها في الحديث المتقدم:

قال الإمام النووي رضي الله عنه: اعلم أَنّ لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين:

أحدهما: وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أَنّه لا يُتكلَّم في معناها، بل يقولون: يَجب علينا أَنْ نؤمن بها، ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته، مع اعتقادنا الجازم أَنّ الله تعالى ليس كمثله شيء، وأَنَّه منزَّه عن التجسُّم والانتقال، والتحيُّز في جهة، وعن سائر صفات المخلوقين ـ وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين، واختاره جماعة من محقِّقيهم، وهو أسلم.

والقول الثاني: وهو مذهب معظم المتكلمين: أنها تتأوَّل على ما يليق بها، على حسب مواقعها.

والتأويل هو: صرف الكلام عن ظاهره الموهم للتشبيه، إلى معنى آخر لائق وموافق لبقية النصوص مع التنزيه.

= فكما أنه سبحانه دعاهم إلى دار السلام حين كانوا في الدنيا، ليستعدّوا لها بامتثال أوامره، والقيام بعبادته، واجتناب ما نهاهم عنه فاستجابوا لذلك، كذلك يدعوهم إلى دار السلام يوم القيامة ليُسعدهم بدخولها، ويُنعمهم بأثمارها وأنوارها، وأسرارها، فيدخلهم دار السلام، ويحييهم بالسلام.

قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

قال رضي الله عنه: وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله، بِأَنْ يكون عارفاً بلسان العرب، وقواعد الأصول والفروع، ذا رياضةٍ في العلم.

فعلى هذا المذهب يُقال في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فيأتيهم الله»: إن الإتيان عبارة عن رؤيتهم إيَّاه سبحانه، لأن العادة أَنَّ من غاب عن غيره لا يُمكنه رؤيته إلا بالإتيان، فعبَّر بالإتيان والمجيء هنا عن الرؤية مجازاً.

وقيل: الإتيان هو فعل من أفعال الله تعالى سمَّاه إتياناً.

وقيل: المراد بـ «يأتيهم الله»: أي يأتيهم بعض ملائكة الله تعالى.

قال القاضي رحمه الله تعالى: وهذا الوجه أشبه عندي بالحديث.

قال: ويكون هذا الملَك الذي جاءهم في الصورة التي أنكروها من سِماتِ الحَدَث الظاهرة على الملك والمخلوق.

قال: أو يكون معناه: يأتيهم الله في صورة أي: يأتيهم بصورة، ويظهرها لهم من صور الملائكة ومخلوقاته، التي لا تُشبه صفات الإلّه ليختبرهم، وهذا آخر امتحان المؤمنين، فإذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة: أنا ربكم، رأوا عليه من علامات المخلوق ما يُنكرونه، ويعلمون أنه ليس ربَّهم، ويستعيذون بالله منه. اهـ.

قال الإمام النووي رضي الله عنه: وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون»: فالمراد بالصورة هنا

الصفة، ومعناه: فيتجلَّى الله سبحانه وتعالى لهم على الصفة التي يَعلمونها، ويعرفونه بها.

وإنما عرفوه بصفته وإنْ لم تكن تَقدَّمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى: لأنهم يَرونه لا يُشبه شيئاً من مخلوقاته، وقد علموا ـ أي: حين كانوا في الدنيا ـ أنه سبحانه لا يُشبه شيئاً من مخلوقاته، فيعلمون أَنَّه ربهم فيقولون: أنت ربُّنا.

وإنما عبَّر بالصورة عن الصفة لمشابهتها إياه، ولمجانسة الكلام، فإنه تقدم ذكر الصورة. اهـ.

أي: فيكون هذا من باب المشاكلة، وهو فنٌّ بديع من أنواع البديع، وذلك بأنْ يُذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة غيره: تحقيقاً أو تقديراً كما هو معروف في موضعه.

وإنما فسَّر العلماء الصورة الواردة في هذا الحديث بالصفة، لأن تفسير الصورة بالهيئة الشكلية لا يجوز في جناب الحق جلَّ وعلا، فإنَّه سبحانه منزَّه عن الهيئة، وعن التشكُّل بشكل، لأن ذلك من سِمات الحوادث الجسمية، وإنَّ الله تعالى ليس بجسم ولا بجسماني، ولا هو رُوح ولا روحاني، بل هو هو كما هو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

هذا؛ وإنَّ إطلاق الصورة على الصفة هو أمر شائع وارد في كثير من الأحاديث النبوية.

فقد روى البخاري في: (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أوَّل زمرةٍ تَلِج ـ أي: تدخل ـ الجنة صورتهم صورةُ القمر ليلة البدر».

وفي رواية أخرى: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على إثرهم كأشدِّ كوكب إضاءة» الحديث.

فإِن المراد هنا بصورة القمر صفته النيِّرة، التي اتصف بها، وليس المراد بصورته هنا هيئَته المستديرة الشكل، فإِنه لا يخطر على أضعف العقول أَنّ أهل الجنة يدخلون الجنة على شكل مستدير كاستدارة القمر!.

وهكذا تقول: صورةُ المسألة كذا وكذا، تُريد: صفتها كذا وكذا.

قال الإِمام النووي رضي الله عنه: وأما قولهم «نعوذ بالله منك»:

فقال الخطَّابي: يحتمل أن تكون هذه الاستعاذة من المنافقين خاصة. اهـ.

قال النووي: وأنكر القاضي عياض هذا، وقال: لا يصح أن تكون من قول المنافقين، ولا يستقيم الكلام به.

قال النووي: وهذا الذي قاله القاضي هو الصواب، واللفظ مصرِّح به أو ظاهر فيه، وإنما استعاذوا منه لما قدمناه من كَونهم رأوا سمات المخلوقين. اهـ.

وقد ذكر الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي رضي الله عنه في مواضع من كتبه حول الأحاديث المتشابهة فقال: إن هذا الحديث الذي فيه ذكر الصورة هو من الأحاديث المتشابهة، ومرجعها الآيات والأحاديث المحكمة، وكل مَن له نور من الله تعالى له في مرجعها إلى المحكَم فِهمٌ على حسب نوره.

قال: ونحن نذكر مبلغ علمنا وفهمنا فيه، ونسأل الله تعالى أن يَهدينا لما اختُلف فيه من الحق بإذنه.

قال: فاعلم أَنَّ للصورة التي يأتي فيها ربنا سبحانه وتعالى يوم القيامة مظهراً وحقيقة: فالحقيقة هي الظُّلَّة في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ الآية، فعُلم بذلك أَنّ مظاهر تجلِّيه لعباده هي ظلل غمامة، وحقائق هذه الظلل آياته القرآنية، التي تعرَّف بها لخلقه بواسطة أنبيائه صلوات الله تعالى عليهم، وقد ثبت في الصحيح تمحُّض ـ أي: تشخُّص وتمثّل ـ حقائق آياته كالظُّلل.

ففي: (صحيح) مسلم وغيره، من حديث أبي أمامة وحديث النواس بن سمعان رضي الله عنهما: أن القرآن يوم القيامة يأتي تقدمه سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو ظلَّتان سوداوان بينهما شَرْق ـ أي: ضوء ـ[1].

قال: وأما مظهر الصورة: فهو العمل، وقد ثبت تشخص ـ أي: تمثل ـ الأعمال بصورٍ شتى، كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه بإسناد صحيح، أخرجه أصحاب المسانيد كالإمام أحمد وغيره، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الميت المؤمن يُفسح له في قبره مدَّ البصر، ويمثَّل له عمله في صورة رجل حسن الوجه، طيِّب الريح، حسن الثياب فيقول: مَن أنت؟

فيقول: أنا عملك الصالح.

---

(١) قد تقدمت هذه الأحاديث في بحث: تمثل الأعمال خيرها وشرها.

وإن الفاجر يُمثَّل له عمله في صورة رجل: قبيح الوجه، منتن الريح فيقول: مَن أنت؟

فيقول: أنا عملك» الحديث.

قال: وقد صحَّ تمثُّل الموت بكبش أملح يوم القيامة، ويوقف على السُّور بين الجنة والنار ويذبح. اهـ.

قلت: وحاصل ما ذكره العارفون حولَ حديث الإتيان بصورة: هو أَنَّ ذلك من باب التجلِّي الصوريِّ المقرر عندهم رضي الله عنهم.

وقد تقرّر عندهم أن التجلي هو عبارة عن ظهور تجلٍّ أعظم بصورة ـ أي: بصفة ـ منزَّهة مقدَّسة، على حسب استعداد الإنسان المتجلَّى له، وعلى حسب معرفته، ولا يكون إلا بقدر استعداد المتجلَّى له، والتجلِّي لا يتكرر للمتجلَّى له ولا لغيره ـ فافهم ذلك.

واعلم أَنَّ العلماء والعرفاء وعلماء الشريعة والحقيقة كلهم مجمعون على إثبات وحدانية الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، وأنه سبحانه منزه عن الحلول في شيء ما، ومنزَّه عن الاتحاد بشيء ما، ومنزَّه عن جميع صفات المخلوقين، وعن مُشابهة خلقه، بل هو سبحانه كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: فلا أحد قبله، ولا أحد بعده، ولا أحد معه ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ المصمود إليه في كل شيء، والعالَمُ كلهم محتاجون إليه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

الامتحـــان العمـــلي

قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾.

روى البخاري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يَكشف ربُّنا عن ساقه فيسجد له كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقى مَن كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة: فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»[1].

والمعنى أَنَّ ربَّ العزّة يكشف يوم القيامة عن ساقٍ أي: عن أمر عظيم وهول وشدّة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي أشد ساعة تكون في يوم القيامة. اهـ.

والكشف عن الساق هو مَثَلٌ تَضْربه العرب لشدَّة الأمر، ولهذا يقولون: قامت الحرب على ساقٍ.

وقال الشيخ الأكبر رحمه الله تعالى: والساق التي كُشفت لهم عبارة عن أمرٍ عظيم من أهوال القيامة، وكذلك ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: دخلت الأمور العظام بعضها في بعض. اهـ.

قال القاضي عياض رضي الله تعالى عنه: وقيل: المراد بالساق

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث مُخرج في: (الصحيحين) وفي غيرهما من طرق، وله ألفاظ، وهو حديث طويل مشهور اهـ. أقول: وستأتي رواية مسلم لهذا الحديث بطوله.

هنا نور عظيم، وورد ذلك في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. اهـ.

وأشار بذلك إلى الحديث الذي رواه أبو يعلى، وابن جرير بإسنادهما، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُكشف عن ساقٍ ـ يعني: عن نور عظيم ـ يَخرُّون له سجداً»[1].

والمعنى: أنه سبحانه يتجلَّى على عباده في مواقف القيامة بنور عظيم، فيسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكافرين والمنافقين أن يسجد له، بل يَعُود ظهر أحدهم طبقاً، وفي رواية: «طبقةً واحدة».

ونقل النووي عن الهروي وغيره أَنَّ الطبق هنا فَقَار الظهر، أي: صار فقار ظهره فقارة واحدة، فلا يَقْدر أن يسجد، كُلَّما أراد أَنْ يسجد خرَّ لقفاه عكس السجود، وذلك عقوبة لهم، لأنهم كانوا في الدنيا يُدعون إلى السجود لله تعالى وهم سالمون، يستطيعون السجود فلم يسجدوا كِبْراً وكُفراً، فكان جزاؤهم ذلك وفاقاً.

قال الإمام الخطابي رحمه الله تعالى: وهذه الرؤية التي في هذا المقام يوم القيامة غير الرؤية التي في الجنة لكرامة أولياء الله تعالى، وإنما هذه للامتحان ـ والله أعلم. اهـ.

يعني: أَنّ هذا الموقف فيه امتحان للمكلفين في عالم الدنيا، يتبيَّن الساجد الصادق من المرائي المنافق.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير عند الآية الكريمة.

روى الإمام مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن ناساً في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم هل تُضارُّون في رؤية الشمس صحواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب»؟

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: «ما تضارّون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارّون في رؤية أحدهما.

إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذِّن لتتَّبعْ كلُّ أمةٍ ما كانت تعبد ـ فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا مَن كان يعبد الله من بَرٍّ وفاجرٍ وغُبَّر أهل الكتاب[1].

فيُدعى اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟

قالوا: كنّا نعبد عزيراً ابن الله.

فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ـ فماذا تبغون؟

قالوا: عطشنا يا ربنا، فاسقنا ـ فيشار إليهم: ألا تَرِدون؟ فيحشرون إلى النار، كأنها سراب[2] يُحَطِّم بعضها بعضاً ـ

---

(١) قال النووي رضي الله عنه: أما البَرُّ فهو المطيع، وأما غُبَّر: فبضم الغين المعجمة وفتح الباء الموحَّدة المشددة ومعناه: بقاياهم جمع غابر. اهـ.

(٢) قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: أَما السَّراب فهو الذي يَتَراءى للناس=

فيتساقطون في النار.

ثم يُدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟

قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله.

فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد.

فيقال لهم: ماذا تبغون؟

فيقولون: عطشنا يا ربَّنا فاسقنا ـ فيشار إليهم ألا تَرِدُون؟ فيحشرون إلى جهنم، كأنها سَراب يُحَطِّم بعضها بعضاً ـ فيتساقطون في النار.

حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من برٍّ وفاجرٍ: أتاهم ربُّ العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها. قال: فما تنتظرون؟ تتبع كلُّ أمة ما كانت تعبد.

قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كُنَّا إليهم، ولم نصاحبهم.

فيقول: أنا ربكم.

= في الأرض القفر؛ والقاع المستوي: وسط النهار؛ في الحر الشديد لامعاً مثل الماء، يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.
فالكفار يأتون جهنم ـ أعاذنا الله الكريم وسائر المسلمين منها ومن كل مكروه ـ وهم عطاش، فيحسبونها ماءً فيتساقطون فيها.
وأما أنها «يُحطم بعضها بعضاً» فمعناه: لشدة اتقادها وتلاطم أمواج لَهبها، والحطم: الكسر والإهلاك، والحُطمة اسم من أسماء النار، لكونها تُحَطِّم ما يُلقىٰ فيها. اهـ.

فيقولون: نعوذ بالله، لا نشرك بالله شيئاً ـ مرتين أو ثلاثاً، حتى إنَّ بعضهم ليكاد أن ينقلب.

فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟

فيقولون: نعم ـ فيُكشف عن ساقٍ فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلَّما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه.

ثم يرفعون رؤوسهم وقد تَحوَّل في صورته التي رأوه فيها، فقال: أنا ربكم.

فيقولون: أنت ربُّنا.

ثم يُضرب الجسر على جهنم وتحلّ الشفاعة» الحديث، وسيأتي تمامه في عالم الصراط إن شاء الله تعالى.

وفي هذا الموقف تنجلي الأمور، وتنكشف القضايا الاعتقادية والعملية، فتظهر حقيقة الإيمان الحقّ، والعمل الحق، ويظهر بُطلان الباطل، وتلك الأوهام والتخيلات الاعتقادية الفاسدة.

قال الله تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

وهذا عامٌّ في كل العوالم: في الدنيا والبرزخ والآخرة.

فهو سبحانه يُحقُّ الحق، وإحقاق الحق هو إظهار حقيقته وحقيّـته، وإبطال الباطل إظهار بطلانه.

فالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وما جاء عن الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كلُّ ذلك

حقٌّ، ولكل حقٍّ حقيقة لا بدَّ وأن تظهر.

وفي الحديث المشهور، الذي رواه المحدثون متصلاً ومرسلاً: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لحارثة: «كيف أصبحتَ يا حارثة»؟

فقال: أصبحت مؤمناً حقاً يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «انظر ما تقول، فإن لكل حقٍّ حقيقة، فما حقيقة إيمانك»؟ الحديث.

أي: فما هي الحقيقة الإيمانية التي تحققتَ بها؟

وروى أبو نعيم في: (الحلية) عن معاذ رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ لكل قول مصداقاً، ولكل حق حقيقة» الحديث.

وإن الله تعالى سوف يُظهر حقائق الإيمان التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيراها المؤمنون، ويشهدونها عياناً، قضايا حقَّةً وحقائق ثابتة.

لأن الإيمان له حقائق ووثائق، وأما الكفر فلا حقيقة له ولا وثيقة.

وقد روى أبو نعيم في: (الحلية) بإسناده، عن أيوب السختياني رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول في دعائه: اللهم إني أسألك الإيمان وحقائقه ووثائقه، وكريم ما مننتَ به عليَّ من الأعمال التي يُنال بها مِنك حسن الثواب.

اللهم اجعلنا ممن يتقيك ويخافك، ويرجوك ويستحييك.

اللهم استرنا بالعافية. اهـ.

وأما الكفر بأنواعه فهو باطل، والباطل لا حقيقة له، وإنما هو ظنٌّ فاسد، أو وهم باطل، خُيِّل إلى صاحبه أَنَّ الأمر كذا وكذا، ولكن الحقيقة الواقعية الثابتة ليست بذاك، فلا بدَّ وأن يظهر بُطلان ذلك الباطل.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

اللهم اجعل لنا من لدنك نوراً ـ اللهم آمين.

فقد ضرب الله تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين مثلين للكفار: مثلاً بالسراب، ومثلاً بالظلمات المتراكمة، لأن الكفار المعْرِضين عن الحق والهدي الذي أنزله الله تعالى على رسله صلوات الله عليهم ـ هم نوعان:

أحدهما: الذين يظنون أنهم على شيء فيتبيَّن لهم عند انكشاف الحقائق خلاف ما كانوا يظنونه، وهذه حال أهل الجهل، والأهواء الفاسدة، وأتباع الآراء الفاسدة، الذين يظنون أنهم على هُدى وعِلم، فإذا جاءت الحاقَّة، وانكشفت الأمور: تَبَيَّنَ أَنَّهم ليسوا على شيء، وأَنَّ عقائدهم وأعمالهم التي ترتَّبتْ على تلك العقائد الضالة إنَّما هي كسراب بقيعة.

والسراب هو: ما يُرى في البرِّ في منتصف النهار، وعند اشتداد الحرِّ، يُخيَّل للناظر أنَّه ماء سارب ـ فعقائد الكفار وأعمالهم

المترتبة عليها، والتي عملوها لغير الله تعالى، وعلى غير ما شرعه الله تعالى من: تعبُّدات عبدوا بها، وقرباتٍ تقرَّبوا بها لم يشرعها الله تعالى، يَحسبون أنَّها تنفعهم، ولكن هي في الواقع كسراب بقيعة ـ أي: بأرض قفراء، وخالية من البناء، والشجر، والنبات والعالَم، يَحسبه الظمآن الذي قد اشتدَّ عطشه ـ يحسبه ماءً، فيتبعه ليشرب فيروىٰ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، بل خانه أحوج ما كان إليه.

وكذلك الكفار الذين اتبعوا أهواءهم في: عقائدهم وأعمالهم، وهم يحسبون أنهم على شيء، قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

فإذا جاءهم يوم القيامة لم يَجدْ أحدهم لعقائده الباطلة، وأعماله الفاسدة المترتبة على تلك العقائد؛ لم يجد لها أثراً، ولم يَجدْها شيئاً لأنها باطلة، والباطل كاسْمه لا حقيقة له كالسراب، وإنما هي خيالات وأوهام لا حقيقة لها.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾.

روى عَبْدُ بن حُمَيْد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق السُدِّي، عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ الكفار يُبعثون يوم القيامة وُرداً عطاشاً فيقولون أين الماء؟

فيمثل لهم السراب، فيحسبونه ماءً، فينطلقون إليه فيجدون الله تعالى ـ أي: في موقف الحساب ـ فيوفيهم حسابهم، والله سريع الحساب».

وقد تقدم في الحديث السابق ما يدل على ذلك.

فهذا مثل الكفار الذين يحسبون أنهم عل هدىً، وأنَّهم على

شيء، ثم يتبين لهم أنهم ليسوا على شيء.

وأما النوع الثاني من الكفار الذين ضرب الله لهم مثلاً بالظلمات المتراكمة: فهم الذين عرفوا الحق والهدى الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولكنهم لم يعترفوا، بل أعرضوا عنه وجحدوا، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال، فتراكمت عليهم ظُلمة الطبع، وظلمة ظلم النفوس، فإنهم ظَلموا أنفسهم؛ حيث لم يسلكوا بها طريق الحق وقد عرفوه ـ وإن الظلم ظلمات.

واجتمعت عليهم ظلمة الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم، لأنَّهم عَلموا الحق وعرفوه؛ ولكنهم لم يعملوا به، فصاروا كالجاهلين الذين لم يعملوا، لأنهم لم يَعْلموا ـ إذ الجهل نوعان: جهل علم، وجهل عمل.

واجتمع على هؤلاء ظلمة اتِّباع الغيِّ والهوى، فحال هؤلاء: كحال مَنْ هو في بحر لجيٍّ لا ساحل له، وقد غشيه موج، ومِنْ فوق ذلك الموج مَوْج، ومن فوقه سحاب مظلم، فهو في ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة الموج فوق الموج، وظُلمة السحاب المتراكم عليه ـ نعوذ بالله تعالى.

وَيُحتمل أَنَّ هذين المثالين المذكورين في الآيتين المتقدمتين هما لجميع طوائف الكفار جملة:

فالمثال الأول: هو بالنسبة لأعمالهم التعبدية التي كانوا يرجون نفعها؛ فإذا بها كالسراب لا تنفعهم شيئاً.

والمثال الثاني: هو بالنسبة لتراكم شبهاتهم وضلالاتهم الاعتقادية، يتخبَّطون في ظلماتها، فهم كالذي تراكمت عليه

ظلمات البحر والأمواج والسحاب من فوقها.

وأما المؤمنون بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبجميع ما أمرهم الله تعالى به على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فأولئك ضرب الله تعالى لهم مَثَلاً بالنور الوضَّاء، وقَدَّم ذكر هذا المثل الوضَّاء النورانيّ على المثال القاتم الظلماني.

فقال سبحانه: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ففي هذه الآية الكريمة ذكر سبحانه النور الذي أَظهر به وجود الأكوان، والنور الذي أضاء به القلوب بالإيمان:

فالأول أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ .

فهو سبحانه الذي أفاض على السموات والأرض وما فيهن نور الوجود؛ فأظهرها من ظلمة العدم الإمكاني، فإِنَّ النور هو ما كان ظاهراً بنفسه ومُظهراً لغيره، وما مِنْ ظاهر في الوجود إلاَّ والذي أظهر وجوده هو أظهرُ وجوداً منه، ولا مِنْ نيّرٍ إلاَّ والذي نوَّره هو أقوى نوراً منه.

فسبحان من أظهر الظاهرات بعد ما كانت في خفايا الظلمات.

وسبحان من نَوَّر النيِّرات فأشرق نورها على الكائنات.

وسبحان من تجلَّى بنور الإِيجاد على الظلمات العدمية فأشرقت بنور الوجود.

وفي: (الصحيحين) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا

قام يتهجَّد في الليل قال: «اللهم ربنا لك الحمد أنت قيِّم السموات والأرض ومَن فيهن، ولك الحمد أنت نُور السموات والأرض ومَن فيهن، ولك الحمد أنت ربُّ السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت مالك السموات والأرض ومن فيهن» الحديث.

وجاء في دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: «أَعُوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءتْ له السموات والأرض، وأشرقتْ له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة: أَنْ يحلَّ بِي سخطك، أو أن ينزل عليّ غضبك، ولك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وأما النـور الذي أضـاء القلوب بالإيمان والمعرفة فهو المذكور في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ فقد قال أُبـيُّ بن كعب وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم أجمعين: إنَّ المعنى مثل نور الله تعالى في قلب عبده المؤمن.

وهذا هو نور الإيمان والهداية المذكور في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الآية.

روى ابن أبي حاتم وغيره أنه قيل: يا رسول الله ما هذا الشرح؟

قال: «نور يُقذف في القلب» الحديث وقد تقدم.

روى الترمذي، وأحمد وغيرهما، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أَنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمةٍ، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ».

فلم يترك سبحانه عباده في ظلمةٍ، بل ألقى عليهم من نوره ليعرفوه، وليهتدوا بنوره إليه، فمن تعرَّض لذلك النور أصابه فاهتدى، ومن أعرض عن ذلك النور ضَلَّ، وتركهم الله في ظلمات لا يبصرون؛ لأنهم أعرضوا وتولوا.

ومن البديهي في المحسوسات أَنّ من توجَّه إلى النور أضاء وجهه واستنار، ومن أعرض عنه أظلم وجهه وحار.

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ الآية.

فالكافر يتخبط في الظلمات، وأما المؤمن فهو على نور مِنْ ربه.

وهذا النور الإيماني هو المذكور في الحديث الذي رواه أبو يعلى، من حديث الفرات بن سليمان قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا يقوم أحدكم فيصلي أربعِ ركعاتٍ، ويقول فيهنَّ ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «تمَّ نورك فهديتَ فلكَ الحمد، عَظُم حلمكَ فغفرت فلكَ الحمد، بسطتَ يدك فأعطيتَ فلك الحمد» الحديث كما في: (الحصن الحصين) و(شرح المواهب).

وإنَّ أول القلوب، وأعظم القلوب إضاءةً بهذا النور، وأوسع القلوب إشراقاً بهذا النور، وأكثرها نَصيباً من هذا النور: هو قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أفاض النور على سائر القلوب، والذي أشرق على مرايا القلوب، فانعكس فيها ذلك النور الإيماني على حسب استعداد ذلك القلب وقابليته.

وقد قال كثير من المفسرين المحققين في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

إن المراد بالمشكاة هو صدر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والزجاجة هي قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، والمصباح هو النور الإيماني المحمدي، والشجرة التي يأتي منها المدد هي: شجرة الوحي المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم ـ فالتقى نور على نور.

فسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو مصباح مصابيح القلوب، ونور أنوار البصائر، وهو صلى الله عليه وآله وسلم السراج المنير للقلوب والعقول، والأسماع والأبصار، والأفكار والوجوه، والمدارك والأفهام.

وقد سمَّاه الله تعالى بما سمى به شمس الضياء في علياء السماء، ولكن وصفه بوصف أكمل وأجمل، وأعلى وأسمى من وصف شمس السماء.

قال تعالى في وصف الشمس السمائية: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ وقال تعالى في وصف الشمس المحمدية: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

وشتان بين الشمسين: فإِنَّ شمس السماء وهَّاجة، فهي تُضرُّ بِوَهْجِها، وإنما يَنتفِع منها الناس بنسبة محدودة، ويستغنون عنها مدة مديدة من الزمن، ونورها إنَّما يُضيءُ للبصر فحسب ـ فهي تُظهر للبصر العينيِّ ما كان محسوساً من الكائنات.

وأما الشمس المحمدية: فهي المنيرة، ومن المعلوم أَنه

لا يستغني أحد عن النور: لا في الليل ولا في النهار، وإنَّ النور المحمدي هو المنير للقلوب وللعقول، والأفكار وجميع المدارك، وإنَّ الذي يَسير بلا نور لا يهتدي إلى حقيقة بل يتخبط في الأوهام والظلمات.

فالنور المحمدي هو الذي يكشف حقائق الأمور: للقلوب والعقول والمدارك.

وكما أَنَّ الأبصار العينية لا يَنتفع صاحبها بها إلاَّ إذا مشتْ على شعاع نور خارجي، كذلك أنوار العقول البشرية لا ينتفع بها صاحبها ما لم تمش على ضياء النور المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم، وبذلك تَهتدي لسعادتها وصلاح أمورها.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

فالأبصار العينية هي في حاجة لنور الشمس السمائية، والبصائرُ القلبية والمدارك العقلية هي في أشدِّ الحاجة إلى نور الشمس المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنَّ أتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين اقتبسوا من مشكاة أنواره صلى الله عليه وآله وسلم، وانعكست أنواره صلى الله عليه وآله وسلم في قلوبهم وعقولهم، ومداركهم وجوارحهم وحواسِّهم، سوف يَبْرز ذلك النور عليهم جليّاً منذ انتقالهم إلى برازخ الآخرة، ويسعى بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة القبر، وظلمة الحشر، وظلمة الجسر، ويصحبهم في سائر العوالم.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾...

والكلام على معنى هذه الآيات سيأتي في بحث الصراط إن شاء الله تعالى.

والمؤمنون هم في ذلك النور على مراتب مختلفة، فمنهم مَنْ نوره كالقمر ليلة البدر، ومنهم كأشدِّ كوكب دُريٍّ في السماء إضاءةً، ومنهم كسائر الكواكب المضيئة، ومنهم ومنهم... حتى إنّ منهم من يُعطىٰ نوراً على إبهام قدمه يضيء له مرة ويطفأ أخرى حين يمشي على الصراط، كل أولئك على حسب حالهم واتباعهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكلٌّ متبع له نوره حسب اتباعه.

جاء في: (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشدِّ كوكب دُريٍّ في السماء إضاءة» الحديث.

ولكن قد يقال إن تلك البدور الساطعة، والكواكب الدرية اللامعة التي دخل أهل الجنة الجنةَ على نورها وضيائها ـ مِنْ أيِّ شمس استمدادها وانعكاس أضوائها؟

نعم إنّما ذلك بانعكاسات وإشراقات الشمس المحمدية صلى

الله عليه وآله وسلم فيها، فإنَّ شمس تلك الأقمار والكواكب هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، وقال في شمس كواكب السماء وقمرها: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.

فاعتبر أيها العاقل وتدبّر، ولا تكذِّب بآيات الله وتتنكر.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

فلا تكن أصمَّ ولا أبكم، ولا أعمى القلب، فإنَّ الشمس الفلكية هي شمس الأشباح، وأما الشمس المحمدية فهي شمس الأرواح التي تَحيى بها الأشباح.

وإن الشمس الفلكية هي شمس الهياكل والقوالب، وأَما الشمس المحمدية فهي شمس القوابل والقلوب.

وإنَّ الشمس الفلكية هي شمس الأحجار والتُّلول، وأما الشمس المحمدية فهي شمس الأفئدة والعقول.

وإياك أَنْ تقول: إنَّ هذا الكلام من باب ضرب الخيال، أو من باب المثال!!

فإن الله تعالى إنَّما يذكر الحق، ويُخبر عن الحقيقة.

فوَصف الشمس الفلكية بأنها سِراج وهَّاج فذاك حقٌّ وحقيقة، وَوَصف الشمس المحمدية بأنه سراج منير فذلك حق وحقيقة، فلا تتلاعب بالحقائق القرآنية التي أخبر الله تعالى عنها.

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ الآية.

فالقرآن يخبر عن الحق والحقيقة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ الآية.

فالقرآن الكريم هو الذي يُبَيِّنُ لك الحق، ويكشف لك عن الحقيقة.

* * *

موقف فصل القضاء والحكم بين العباد

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾.

والمعنى أنّ يوم الفصل بين الخلائق بقضاء الملك الحكم العدل سبحانه، كان وقتاً محدداً لأَجَل معلوم، فحُكمه سبحانه بين عباده هو الفصل، وقد نبه الله سبحانه إلى عظمة يوم الفصل وهيبة مقامه فقال: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وفي هذا إنباءٌ عن هول ذلك الموقف وشدَّة خطره.

ومعنى توقيت الرسل هو: جمعهم لميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة، الذي تُجْمَعُ فيه الرسل كلهم صلوات الله تعالى عليهم؛ ليشهدوا على أممهم كما تقدم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يَوم الفصل هو يَوم يَفصل الرحمن فيه بين الخلائق. اهـ.

أي: يفصل بينهم بحكمه العادل، وقضائه الفاصل كما قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾.

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يُنذر العباد يوم الآزفة، المشتمل على المخاوف الشديدة، الذي يُجري الله تعالى فيه القضاء بالحق، لأن الله تعالى هو الملِكُ الحقُّ.

قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾.

والمراد بيوم الآزفة: يوم القيامة، والآزفة هي القريبة، وجُعلت اسماً للقيامة لقربها بالنسبة لما مضى من الدنيا، فإنَّه لم يبق من الدنيا إلا القليل، وإنَّ كلَّ آت فهو قريب.

وقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه الترمذي، وأحمد وغيرهما، عن أبي سعيد رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى يوماً صلاة العصر، ثم خطبهم حتى تدلَّت الشمس للغروب، قال أبو سعيد رضي الله عنه: (فجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي من النهار شيء) ـ وفي رواية: والشمس على رؤوس الجبال ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا إنَّه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه».

وفي هذا بيان امتداد العصور الماضية، وكثرة مرِّ الدهور على عالَم الدنيا، وأنَّه لم يبق منها بالنسبة للماضي إلا القليل، لأنه

مضى من عُمر الدنيا شيء كثير جداً، يفوق الملايين من السنين ـ كما أشار إليه الحديث المتقدم.

وروى الشيخان، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار صلى الله عليه وآله وسلم بإصبعيه الوسطى والتي تليها.

وعند الترمذي: «بعثتُ في نفس الساعة، فسبقتها كما سَبقت هذه لهذه» وأشار لأصبعيه.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ﴾.

الحناجر جمع حنجرة أو حُنجور كحلقوم لفظاً ومعنى، وهو رأس الغَلصمة، وفي ذلك إخبار عن شدة الخوف الذي يَعتري الكفار يوم القيامة، والآلام التي تلمُّ بهم، حتى إنَّ قلوبهم تبلغ حناجرهم، وهم كاظمون عليها أي: ممسكون أنفسهم عليها، لئلا تخرج مَعَ النَّفس، فإن كاظم القربة كاظم على الماء ممسكها عليه لئلا يخرج منها، وهم في ذلك على حالٍ لا يموتون فيها ولا يحيون.

﴿ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالكفر من قريب ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل تقطَّعت بهم جميع أسباب الخير، ووسائل النفع والبرِّ.

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ وفي هذا بيان سعة علمه سبحانه، المحيط بجميع الأشياء: كبيرها وصغيرها، وجليها وحقيرها، وكثيفها ولطيفها، ليحذرَ العباد علم ربهم فيهم، فيستحيون من الله تعالى، ويرهبونه، ويتقونه، ويُراقبونه مراقبة مَن

يعلم يقيناً أَنَّ الله تعالى يراه، ويعلم خائنة الأعين ـ أي: العين الخائنة وإن أَظهرتِ الأمانة، ويعلم النظرة الخائنة وإن أبدت السلامة ـ ويعلم ما تنطوي عليه الصدور من الخفايا، وما تُكنه الضمائر من الأسرار والخبايا.

روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ قال: هو الرجل يَدْخل على أهل البيت بَيْتَهُم، وفيه المرأة الحسناء أو تمرّ المرأة الحسناء بعيدة عنه؛ فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غضَّ بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ إليها ثانية، فإذا فطنوا غضّ بصره ـ يُظهر الأمانة والعفَّة، وقد اطلع الله تعالى على قلبه أَنّه ودَّ لو أَنَّه رأى فرجها. اهـ.

قال العلماء: ويدخل في خائنة الأعين الغمز، وقول الرجل: رأيتُ كذا وكذا ولم ير شيئاً، وقول الرجل: لم أر، وقد رأى ـ يعني: أنه يكذب في ذلك كله.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ وذلك أَنّ الله تعالى هو الحقُّ ـ أي: واجب الوجود ـ ودينه حقٌّ، وشرعه حقٌّ، وخَلَقَ السموات والأرض وما بينهما بالحق، فلا بدَّ أَنْ ينتهي أمر العالم إلى الحق، ليقضي الملك الحق بين عباده بالحقّ.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾.

فليس هناك ظلم، ولا ثمة عبث، ولا لهو ولا لعب، ولا باطل.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول في دعاء التهجد: «أنت الحقُّ، ووعدك حقٌّ، ولقاؤك حقٌّ، والجنة حقٌّ، والنبيون حقٌّ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم حقٌّ، والساعة حقٌّ».

نعم يا ربنا ونحن نشهد بذلك شهادة حقٍّ.

هيبة فصل القضاء
وتجلِّي ربِّ العزّة للحكم بين العباد

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

وفي هذا تهديد لمن كفر بالله تعالى واليوم الآخر، ووعيد له شديد؛ لعله يزدجر أو يتذكر فيعتبر، ويرجع عن إنكاره وكفره، فإنَّ الويل له ماذا يَنتظر؟

أينتظر ذلك اليوم الحق، يوم يأتي ربُّ العزة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، وهناك تُحشر الملائكة عليهم السلام بجموعها، ولهم زَجَلٌ من تسبيحهم وتقديسهم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: وقد ذكر الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى ههنا، حديث الصور، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو حديث مشهور، ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم وفيه:

«إن الناس إذا اهتمُّوا لموقفهم في العَرَصات ـ أي: عرصات موقف الحشر ـ تشفَّعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً، من آدم

فمن بعده، فكلُّهم يَحيد عنها، حتى ينتهوا إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا جاؤوا إليه قال: أنا لها أنا لها.

فيذهب صلى الله عليه وآله وسلم فيسجد لله تعالى تحت العرش، ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد.

فيشفِّعه الله تعالى ـ أي: يَقبل شفاعته ـ ويأتي في ظُللٍ من الغمام والملائكة، ولهم زَجَلٌ من تسبيحهم يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العِزَّة والجبروت، سبحان الحيِّ الذي لا يموت، سبحان الذي يُميت الخلائق ولا يموت، سُبُّوح قُدُّوس ربُّ الملائكة والروح، سُبُّوح قدّوس ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة، سبحانه سبحانه أبداً أبداً».

وقد روى ابن أبي حاتم بإسناده، عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أنه سبحانه إذا تجلَّى لفصل القضاء: بينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب)[1]. اهـ.

وقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾.

ففي هذه الآيات يُخبر سبحانه عن هيبة ذلك الموقف ورهبته، وذلك حين تُدكُّ الأرض دكاً بعد النفخة الثانية، أي: وطِّئت الأرض، وسوِّيتْ الجبال، ولم يبق فيها شيء.

---

(١) انظر: (تفسير) ابن كثير، و(تفسير) الآلوسي، وغيرهما.

وقد قام الخلائق من قبورهم لرب العالمين، وَحُشروا كلهم في أرض واحدة، وطال الموقف، واشتدت أهواله وامتدت، حتى استشفعوا فلم يَشفع فيهم إلا سيد الشفعاء، وإمام الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم، وهناك انفضَّ بهم الأمر إلى عالم الجمع لفصل القضاء، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: تجلى لفصل القضاء، وللحكم بين العباد، وجاءت الملائكة صفاً صفاً قياماً، تعظيماً وإجلالاً وإكباراً لربِّ العزّة سبحانه، وهيبةً من ذي الجلال والإكرام.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي: قُرِّبت جهنم لأهلها كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ وذلك ليروها عن كَثب، ويُشاهدوا أهوالها، وفَظائع منظرها؛ فيزيدهم ذلك خوفاً وفزعاً.

روى الإمام مسلم، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُؤتىٰ بجهنم يومئذٍ لها سَبعون ألف زمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها».

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يعني: أن الإنسان يتذكر في ذلك اليوم معاصيه؛ فيهتم لها ويخاف منها، لأنَّه يُشاهد قبحها فيندم، ولكن من أين له منفعة الذكرى حينذاك، وقد فات الأوان ـ ولات ساعة مندم.

﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ يعني: أنه يتمنى أن لو كان في الدنيا قدَّم أعمالاً صالحة؛ ليحيى في الآخرة حياة طيبة هنيئة سعيدة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: لا يتولى عذاب الله لمن حقّت كلمة العذاب عليه ـ لا يتولاه أحد غير الله، بل الأمر كله لله، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾.

قضاؤه سبحانه بالقسط وحكمه هو العدل

فلا ظلم ولا جَور

قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

والمعنى أَنَّ أرض الموقف أَشرقت بنور ربها لما تجلى ربّ العزة لفصل القضاء بين العباد، وهناك عَلِمَت كل نفس ما قدَّمت وما أخرت، وانجلت لها جميع أُمورها التي مَرَّتْ عليها في الدنيا، وعلمت كل نفس ما أحضرت، وبدا عليها ما أَضمرت، واستوى هناك السرُّ والعلانية.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

وأصل الابتلاء: الاختبار والامتحان، وابتلاء السرائر هو إظهار ما أسرَّه الإنسان في قلبه من العقائد، والنيات، والضمائر النفسية التي كان يُسرُّها في نفسه؛ ولا يبديها للناس، فالله تعالى يُظهرها، ويميز خبيثها من طيبها؛ ليجزيه ما يستحقه: إنْ كان خيراً فخير، وإن كان شراً فعذاب وعقاب، وحينئذ فماله من قوة من نفسه يمتنع بها، ولا ناصر له ينتصر به.

قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ـ أي: وضع كتاب الإحصاء العام ـ كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى.

﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ أي: جيء بالنبيين ليكونوا شهداء على أممهم، وجيء بالشهداء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين يشهدون للرسل بالتبليغ لأممهم، وهم أُمَّةُ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فلا يُراد في سيئات المسيء، ولا يُنقص من حسنات المحسن.

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي: أَخذت كل نفس جزاء عملها وافياً كاملاً ـ دون بخس.

﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ يعني: أنه سبحانه هو العليم بأفعالهم، فلا يحتاج إلى كتابة في كتاب، ولا شهادة من شُهداء، وإنما الكتاب والشهداء فيهما إقامة الحجة على العباد، وإزالة أعذارهم، حتى يكونوا على يقين بأنه سبحانه الحَكَمُ العدل، وقضاؤه هو الفَصْل، لا يُعذِّب أحداً حتى يُقيم عليه الحُجَّة، ولا يُبقي له عذراً صحيحاً يَعتذر به، فهنالك يعترف المذنب، ويقر بذنوبه وعناده، ويعترف بإبائه عن قَبول الحق الذي بيَّنه الله تعالى حين كان في الدنيا بواسطة الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، وحينئذ يحكم العبد المذنب على نفسه بأنه مستحق للعقاب.

قال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ أي: كلما أُلقي في جهنم فوج من الكفار، ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

روى ابن حبان في: (صحيحه) وأبو نعيم في: (الحلية) عن

شداد بن أوس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يا أيها الناس إنَّ الدنيا عَرَض جاضر، يأكل منه البرُّ والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر، يُحقُّ الحق، ويُبطل الباطل.

أيها الناس: كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ كلَّ أمٍّ يتبعها ولدها.

اعملوا وأنتم من الله على حَذَر، واعلموا أنكم مَعروضون على أعمالكم، وأنكم ملاقو الله لا بدّ منه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1]».

وروى الإمام الشافعي رضي الله عنه، بإسناده عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب يوماً فقال في خطبته: «ألا إنّ الدنيا عَرَض حاضر يأكل منه البر والفاجر، أَلاَ وإنَّ الآخرة أجل صادق ويقضي فيها ملك قادر، ألا وإنَّ الخير كلَّه بحذافيره في الجنة، ألا وإنَّ الشر كله بحذافيره في النار، أَلاَ فاعملوا وأنتم من الله على حَذَر، واعلموا أنَّكم معروضون على أعمالكم ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[2]».

---

(١) عزاه في: (الدر المنثور) إلى حسين بن سفيان في: (مسنده) وإلى أبي نعيم في: (الحلية) وعزاه في: (المرقاة) على: (المشكاة) إلى ابن حبان في: (صحيحه) أيضاً برواية أخصر من هذه.

(٢) انظر: (مشكاة المصابيح).

ولله در القائل:

والقول والفعل معروضان منك على
مَـنْ يفصـل الجـدَّ مما أنـتَ هـازلـه

لا تـرض بـالقـول دون الفعـل مَـنـزلـةً
فـإن ذاك خسيـس الحـظ نـازلـه

* * *

موقف إخبار الله تعالى عباده عمَّا عملوه في الدنيا

إنَّ الله تعالى سوف يُوقف عباده يوم القيامة، وينبئهم بجميع أعمالهم، وقد أخبر الله تعالي عباده بذلك: لكي يُسدِّدوا أقوالهم، ويُصلحوا أعمالهم، وذلك بانتهاجهم مَنهج شريعة الله، قبل أَنْ يأتي ذلك اليوم الذي يوقفهم الله تعالى فيه، ويُخبرهم عن أعمالهم.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فهو سبحانه مع عباده بعلمه وقدرته؛ وشهوده لأعمالهم معيَّة مَنْ ليس كمثله شيء، فهي لا يُماثلها شيء، ليست جسمية ولا روحية، وإنما أخبر عباده بذلك ليكونوا على مُراقبة له سبحانه في جميع أفعالهم وأقوالهم، وليكونوا على يقين بأنه سبحانه سوف

يُخبر كلَّ إنسان يوم القيامة بأعماله التي عملها في هذه الدنيا.

روى ابن مردويه، والبيهقي، عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله تعالى معه حيث كان».

وهذه المَعِيَّة عامة لجميع العباد، وهي بالعلم والشهود، وأما معية النصر، والتأييد والعون والتسديد والحفظ والوقاية؛ فهي خاصة بمن خصَّه الله تعالى بها، وهي على مراتب متعددة، فأعلاها هي المشار إليها بقوله سبحانه في سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فهي معية خاصَّة بالحبيب الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن المعية الخاصة قول الله تعالى في سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فهي معية للكليم.

ولله تعالى مَعِيَّةٌ لعباده المتقين على حسب مراتبهم في التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

ومن ذلك معية الله تعالى للصابرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي: ومن كان الله تعالى معه فلا بُدَّ أن تكون له العاقبة الحسنة.

ومن ذلك مَعية الله تعالى للذاكرين، كما جاء في: (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني».

وفي رواية: «وأنا معه حين يذكرني» الحديث.

فالله تعالى رقيب على عباده في سائر أحوالهم، وهو المطَّلع على سرِّهم وعلانيتهم، وظواهرهم وبواطنهم، فعلى العاقل أن يُوقن بذلك، وليحذر ذلك الموقف، وليتق الله تعالى في أقواله وأعماله.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

وإنما أخبر الله تعالى بذلك ليراقبوا مراقبته لهم: فيتقوه.

كما بين سبحانه لعباده أنه القائم على كلّ نفسٍ بما كسبت، والشاهد عليها بما عملتْ:

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

فهاهنا ثلاث خطابات: الأولان مُوجَّهان لرأس النوع الإنساني، وسيد المخاطبين عليه أفضل الصلاة والتسليم، وعلى آله أجمعين، ولذا جِيء بنصِّ الشأن في مقام التكريم له صلى الله عليه وآله وسلم، لأنَّ عمل العظيم عظيم، وشأن الكريم كريم.

فقال سبحانه لحبيبه الذي هو أكرم الأولين والآخرين عليه قال له: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ أي: وما تكون في شأن من شُؤونك الكريمة المباركة، ولما كان أعظم شؤونه صلى الله عليه وآله وسلم هو التلاوة لهذا التنزيل من ربِّ العالمين ـ خصَّه الله تعالى بالذكر فقال: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾.

ثم قال سبحانه في الخطاب الثالث الذي هو عام شامل لجميع العباد: بَرِّهم وفاجرهم، تقيهم وشقيهم ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أيَّ عملٍ: كبير أو صغير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي حين تشرعون فيه وتتلبَّسون به.

والمعنى: اعلموا ذلك علم اليقين، وارعوا مقام شُهوده سبحانه، ومقام اطِّلاعه عليكم، واحذروا أَن تعملوا ما لم يشرعه لكم، مما حرّمه عليكم، فإِنه سبحانه سوف يُنبئكم بأعمالكم، يوم يُوقفكم بين يديه عز وجلَّ، فإِنه أكبر شاهد وأعظم شهيد.

قال تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ أي: ما كنا عنهم في الدنيا غائبين، بل كنا شاهدين لأعمالهم الظاهرة والباطنة، الجسمية والقلبية، نرى أفعالهم ونسمع أقوالهم.

* * *

موقف الشهادات

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

وهذا الموقف خطير وشأنه كبير، تحقُّ فيه الحقائق، وتظهر فيه الدقائق، وتقوم به الحجة وتثبت به المحجَّة، وفي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين معذرتهم لأن الحجة قامت عليهم بشهادة الأشهاد فلا جُحود ولا عِناد، ولا عُذرَ يقبل ولا كلام يُسمع، ولا حَمِيْم يشفع.

وقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أَنَّ الشهداء يوم القيامة هم أصناف متعددة:

فهناك شهادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وشهادة الملائكة عليهم السلام، وشهادة الجوارح، وشهادة العباد بعضهم على بعض، وشهادة الأرض وما عليها من: مدرٍ، وحجرٍ، وشجر، وكلٌّ من هؤلاء سوف يُؤَدِّي شهادته في الوقت المناسب لذلك يوم القيامة.

أما شهادة الرسل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم فإنهم

يَشهدون على أممهم ـ يشهدون بالإيمان لمن آمن وبالكفر على من كفر.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وليس هناك أسعد ولا أمجد ممن شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإيمان، والعدالة والثقة ـ اللهم اجعلنا منهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾.

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وقد تقدم الكلام على الآية.

فكلُّ رسول يَشهد لمن آمن به، ويَشهد على من كفر به، ولذلك كان السلف الصالح يدعون الله تعالى في أن يشهد لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالإيمان.

كما روى أبو نعيم في: (الحلية) بسنده عن عُبيد بن عُمير أَنَّه كان إذا آخىٰ في الله أحداً، أخذه بيده واستقبل به الكعبة وقال: اللهم اجعلنا شُهداء بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم، واجعل محمداً صلى الله عليه وآله وسلم علينا شهيداً بالإيمان، وقد سبقتْ لنا منك الحسنى. اهـ.

وقد طلب الحواريون من عيسى عليه السلام حين آمنوا به أن

يشهد لهم عند الله تعالى بالإيمان:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

طلبوا من المسيح عليه السلام أن يشهد لهم يوم القيامة: لينالوا سعادة الآخرة، كما نالوا به سعادة الدنيا.

وهكذا كلُّ مَن آمن برسوله فإنّ رسوله يشهد له يوم القيامة، وبذلك تكون سعادته الأبدية، كما أن مَن شهد عليه رسوله بالكفر فإنه يشقىٰ شقاء الأبد.

قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾.

فالكفار بعد ما يشهد عليهم رُسُلُهم بالكفر والإعراض عمَّا جاؤوهم به، يتمنون أن لو تُسوّى بهم الأرض ـ أي: بأن يُدفنوا وتسوَّى الأرض ملتبسة بهم، أو تسوى عليهم كالموتى.

وقيل: يَوَدُّون أنهم بقوا تُراباً على أصلهم من غير خلقٍ، وتمنَّوا أنهم كانوا هم والأرض سواء.

وقيل: تصير البهائم تُراباً فيودون حالها.

وقيل: يَوَدُّون لو يُـعْدَل بهم الأرض ـ أي: يؤخذ منهم ما عليها فدية، وَيُدفع عنهم العذاب.

ويودّون أنهم يومئذ لا يكتمون الله تعالى حديثاً، وذلك لعدم قدرتهم على الكتمان، حيث إنَّ جوارحهم شهدت عليهم بما صنعوا، وشهدت عليهم الرسل صلوات الله تعالى عليهم، وشهدت عليهم الأشهاد من كل جانب، فلذلك وَدُّوا وتمنوا أن لو كانوا أقروا واعترفوا، ولم يكتموا ويكذبوا حين قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وهذا كان منهم في بعض المواطن، فلما صاروا في موطن آخر وشهدت الأشهاد: ندموا على كتمانهم وكذبهم.

فالواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ هي للعطف حينئذ، وقيل: الواو للحال، والمعنى: أنهم يَوَدُّون أن يدفنوا في الأرض وهم لا يكتمون الله حديثاً.

وأما شهادة الملائكة على نبينا وعليهم الصلاة والسلام فقد قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

روى ابن جرير بإسناده، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، أنه خطب فقرأ هذه الآية ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فقال: سائق يسوقها إلى الله تعالى، وشاهد يَشهد عليها بما عَمِلتْ. اهـ.

روى مسلم، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يُقال للعبد يوم القيامة كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين عليك شهودا، فيُختم على فِيْهِ، ويقال لأركانه: انطقي؛ فتنطق بعمله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام فيقول: بُعداً لكنَّ وسُحقاً، فعنكنَّ كنت أناضِل».

وأما شهادة الجوارح فقد قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وتقدم حديث أنس رضي الله عنه في شهادة أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة، وأنه يُختم على فَمِه ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم إن العبد يلوم أعضاءه حيث شهدتْ عليه، في الوقت الذي كان يدافع عنها بالباطل.

ولا معارضة بين الختم على الأفواه الوارد في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ وبين شهادة الألسنة الواردة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ الآية.

وذلك أَنَّ الختم على الأفواه منعهم من التكلم بالألسنة التي في الأفواه، وأنطق الله تعالى الألسنة نفسها، فشهدت على أصحابها، كما أنطق الله تعالى ذِراع الشاة المسمومة، فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه مسموم.

وبيان ذاك: أن الله تعالى يختم على فم الإنسان يوم القيامة، فلا يستطيع أن ينطق باختياره، وهناك تنطق الجوارح بدون اختياره، بل بإنطاق من الله تعالى لها، لأمره إياها بذلك، كما بينه سبحانه بقوله:

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ الآية.

والله تعالى القدير على إنطاق كل شيء، هو الذي أنطق الحجر والشجر، فسلَّمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وشهدت له بالرسالة، وأنطق الحَصَيَات فسبَّحت في كفِّه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، كما صح ذلك في الأحاديث، وهو

سبحانه يُنطق الحجر والشجر والمدر يوم القيامة، فتشهد على ابن آدم ـ كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى.

وإنما قال سبحانه: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ فأسند الكلام إلى الأيدي، والشهادة إلى الأرجل؛ ذلك لأن اليد هي كانت في الدنيا تُباشر الأفعال، وكانت الرِجْلُ حاضرة، وإنَّ قول الحاضر على غيره هو شهادة، وأما قول الفاعل على نفسه فهو إقرار وليس بشهادة.

وقد تقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه، الذي رواه مسلم، وفيه أَنَّ الله تعالى يقول للعبد المنافق يوم القيامة، حين يَدَّعي أَنَّه قد صلَّى وصام وتصدّق، فيقول الله تعالى: «أهاهنا من يشهد لك؟ فيقول: لا.

فيقول سبحانه: الآن نبعث عليك شاهدنا».

قال: «فيفكر في نفسه مَنْ ذَا الذي يشهد عليه، فَيختم على فِيْـهِ فَيقال لفخذه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليُعذر من نفسه، وذلك المنافق الذي سخط الله تعالى عليه».

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «مالي آخِذٌ بحُجَزكم عن النار؟

ألا إن ربي عز وجلّ داعيَّ، وإنّه سائلي: هل بلَّغتَ عبادي؟ وإني قائل: رَبِّ إني قد بلغتهم.

فليبلِّغ الشاهد منكم الغائب.

ثــم إنكــم مَـدْعُـوُّوْنَ مُـقَـدَّمَةً أفواهُـكم بالفِـدام[1]، وإن أَوّل ما يُـبِين ـ أي: يخبر ـ عن أحدكم: لفخذه وكـفُّـه».

قلتُ: يا نبي الله هذا ديننا؟

قال: «هذا دينكم، وأينما تُحسن يَكْفِك»[2].

وروى الإمام أحمد، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن أَوَّل عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختم على الأفواه فخذه من الرِجْل الشِّمال».

وروى الترمذي وأبو داود، وابن أبي شيبة وغيرهم، عن يُسَيرة رضي الله عنها وكانت من المهاجرات، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قـال: «عليكـنَّ بـالتسبيـح والتهليـل والتقـديـس، واعقـدن الأنامل، فإنهنَّ مسؤولات مُستَنْطَقات، ولا تغفلن فَتُنْسَيْنَ الرحمة» أي: فتُتركن من الرحمة.

قال العلامة المناوي في شرح قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «واعقدن الأنامل» أي: اعددن عَدَدهن مراتِ التسبيح بها، فإنهن مسؤولات عن عمل صاحبها، مُسْـتَـنْـطَقات للشهادة عليه.

قال: فأما المؤمن فتنطق عليه بخيره، وتسكت عن شرِّه سَتراً من

---

(١) الفِدام هنا هو ما يُوضع على الفم لمنع صاحبه عن الكلام، حتى تتكلم جوارحه، فتشهد عليه بما عمل.

(٢) قال الحافظ الهيثمي في: (المجمع): رواه أحمد في حديث طويل، ورجاله ثقات. اهـ.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير نحو هذا الحديث المذكور مختصراً، وعزاه للنسائي.

الله تعالى، والكافر بالعكس، فإِنّ خير الكافر هو لغير الله تعالى فهو هَبَاء. اهـ.

ثم قال المناوي رحمه الله تعالى: وهذا أصل في ندب السُبحة المعروفة، وكان ذلك معروفاً بين الصحابة.

وقد أخرج عبد الله بن أحمد، أَنّ أبا هريرة رضي الله عنه كان له خيط فيه ألفا عقدة، فلا ينام حتى يُسبح به. اهـ.

ثم قال: وقد اتخذ السبحة أولياء كثيرون.

ورؤي بيد الجنيد رضي الله عنه سُبحة، فقيل له: مِثلك يمسك بيده سبحة ـ أي: وقد بلغت مَبلغ كُمَّل الرجال، ونلت مقام الكمال؟

فقال رضي الله عنه: طريق وصلت به إلى ربي فلا أُفارقه.

وفي رواية: قال: شيء استعملناه في البدايات، لا نتركه في النهايات، أحبُّ أن أذكر الله تعالى: بقلبي ويدي ولساني. اهـ.

وأصل دليل السبحة هو حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، الذي رواه أصحاب السنن (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرَّ على امرأة وبين يديها نَوىً أو حصى تسبِّح بها) الحديث، حسَّنه الترمذي.

* * *

شهادة الأرض
والمدر والحجر والشجر

قال الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

ففي هذه السورة الكريمة يخبر الله تعالى عن عظمة يوم القيامة، وكبير خطره: يوم تُزلزل الأرض زِلزالها الشديد، وتضطرب اضطرابها العنيف، وذلك في أوقاتٍ مختلفة.

فأول زلزالها قبيل الساعة، فتُخرج ما فيها من معادن وذهب وفضة.

كما جاء في: (صحيح) مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تُلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضَّة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعَت يدي، ثم يَدَعونه ـ أي: يتركون ذلك الذهب والفضة ـ فلا يأخذون منه شيئاً».

وذلك لأن شواغل الهموم شغلتهم عما هنالك من الذهب والفضة، وهذا القطع ليد السارق يُشير إلى عهد المسيح عيسى عليه

السلام، حين ينزل في آخر الزمن، يطبِّق فيه أحكام الشرع المحمدي عليه الصلاة والسلام، وذلك عهد قريب من الساعة، ثم بعده عليه السلام تمضي مُدَّة ويَتغيَّر فيه أمر العباد، وينتشر الفسق والفساد، والهَرْج، وتكثر الزلازل والفتن.

ثم هناك الزلازل التي تقع بعد موت الخلائق، ثم إنَّ الله تعالى إذا أراد أن يحشر الأموات، أمر الأرض أن تُلقي ما في بطنها من أثقالها، ـ أي: الأموات في بطنها ـ وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

والمعنى: أنها أمرها الله تعالى أن تُلقي جميع ما في بطنها، فأصغت وانقادت لأمره سبحانه، وحُقَّ لها ذلك.

حتى إذا حشروا وصاروا في الآخرة، تُحدِّث الأرض أخبارها، بسبب أن ربك أوحى لها، وأمرها أن تَشْهد بما عُمِل على ظهرها، ولا تكتم من ذلك شيئاً.

روى الترمذي والنسائي وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنَّ أخبارها: أَنْ تشهد على كلِّ عبدٍ وأمَةٍ بما عَمل على ظهرها، تقول: عمل كذا وكذا: يوم كذا وكذا ـ فهذه أخبارها»[1].

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. اهـ.

وفي: (معجم) الطبراني، عن ربيعة الجُرَشي[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تحفَّظوا من الأرض فإنها أمُّكم، وإنه ليس من أحدٍ عاملٍ عليها خيراً أو شراً إلا وهي مُخبرة به».

وروى أبو نعيم، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (إن الجبل لينادي الجبل باسمه، يا فلان هل مرَّ بك اليوم ذاكر لله عز وجل؟

فيقول: نعم ـ فيستبشر به) أي: ويشهد له بذلك عند الله تعالى.

وروى أبو يعلى، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «ما من بقعة يُذكر الله عليها بصلاةٍ أو بذكر إلا استشرفتْ بذلك إلى منتهاها، وفَخُرت على ما حولها من البقاع، وما من عبدٍ يقوم بفلاةٍ من الأرض يريد الصلاة إلا تزخرفت له الأرض».

وروى الإمام أحمد رضي الله عنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «المؤذِّن يُغفر له مدى صوته، ويصدِّقه كلُّ رطبٍ ويابسٍ».

ورواه أبو داود وابن خزيمة في: (صحيحه) وعندهما: «ويشهد له كلّ رطبٍ ويابسٍ»[2].

ورواه النسائي وزاد فيه: «وله مثل أجر مَن صلَّى معه».

---

(١) قال في: (فيض القدير): الجرشي بضم الجيم وفتح الراء، وبعدها معجمة، وقال الذهبي: مختلف في صحبته، قتل يوم: مرج راهط، وكان فقيهاً، وثَّقه الدارقطني وغيره. اهـ.
وقد أورد هذا الحديث ابن كثير في: (تفسيره).

(٢) كما في: (ترغيب) المنذري، وأصل هذا الحديث في: (صحيح البخاري.

ولذلك أوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذكر الله تعالى عند كل شجر وحجر، لأنهما يشهدان بذلك يوم القيامة.

فعن أبي سلمة، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أوصني.

قال: «اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، واذكر الله عند كل حجر، وعند كل شجر، وإذا عملتَ سيئةً فاعمل بجنبها حسنة: السرُّ بالسرِّ، والعلانية بالعلانية»[1].

قال الحافظ المنذري: ورواه البيهقي في كتاب: (الزهد) بالسند عن معاذ رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيدي، فمشى قليلاً ثم قال: «يا معاذ: أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، ووفاء العهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وَرُحْم اليتيم، وحفظ الجوار، وكظم الغيظ، ولين الكلام، وبذل السلام، ولزوم الإمام، والتفقّه في القرآن، وحبِّ الآخرة، والجَزَعِ من الحساب، وقِصَرِ الأمل، وحُسن العمل».

قال: «وأنهاك أن: تشتم مسلماً، أو تصدِّق كاذباً، أو تعصي إماماً عادلاً، وأَنْ تُفسد في الأرض.

يا معاذ: اذكر الله عند كلِّ شجرٍ وحجرٍ، وأحدِث لكل ذنبٍ توبة: السرُّ بالسرِّ، والعلانية بالعلانية».

---

(١) قال الحافظ المنذري في: (الترغيب): رواه الطبراني بإسناد رواته ثقات، وأبو سلمة لم يُدرك معاذاً رضي الله عنه. اهـ.
وذكره المنذري في موضع آخر وحسنه.

وروى ابن أبي الدنيا، في مناقب عمر رضي الله عنه، أَنَّ الأرض تزلزلت على عهده، فضرب يده عليها وقال: مالَكِ مالَكِ؟ أما إنها لو كانت القيامة حدَّثَتْ أخبارها، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا كان يوم القيامة، فليس ذراع ولا شِبر إلا وهو ينطق»[1].

ومن ذلك شهادة الحجر الأسود على من استلمه بحقٍّ:

روى الترمذي وحسَّنه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحَجر ـ أي: الحجر الأسود ـ: «واللهِ ليَبْعثنَّه الله يوم القيامة، له عينان يُبصر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بحقٍّ».

قال الحافظ المنذري: ورواه الطبراني في: (الكبير) ولفظه: «يَبْعَثُ الله الحجر الأسود، والركن اليماني يوم القيامة، ولهما عينان ولسانان وشفتان: يشهدان لمن استلمهما بالوفاء».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يأتي الركن اليمانيُّ يوم القيامة أعظم من أبي قُبَيْس ـ أي: ذلك الجبل العظيم ـ له لسان وشفتان».

رواه أحمد بإسناد حسن، والطبراني في: (الأوسط) وزاد فيه: «يشهد لمن استلمه بالحق، وهو يَمين الله عز وجلَّ: يُصافح بها خلقه»[2].

* * *

---

(١) انظر: (الجواب الكافي).

(٢) انظر: (ترغيب) المنذري.

موقف وضع الكتاب الإمام
ونشر كتاب كلِّ إنسانٍ ليقرأه

إن من جملة مواقف الآخرة، موقفاً يوضع فيه كتاب الإحصاء العامِّ، ويُنشر فيه كتاب كل إنسان الخاصُّ به ليقرأه، وبذلك تقوم الحجة على العباد.

أما كتاب الإحصاء العام فهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

فهو سبحانه لا يظلم في أحكامه كلها، ولا في حكمه يوم يحكم بين العباد بفصل القضاء لا يظلم أحداً.

وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

فهذا الكتاب الذي يُوضع في ذلك الموقف، هو كتاب الإحصاء العامِّ، الذي أحصى كلَّ شيء من أعمال العباد؛ وأقوالهم الصادرة منهم، فلم يترك كبيرةً ولا صغيرة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصغيرة هي: التبسم، والكبيرة هي: القهقهة.

وقال سعيد بن جُبير: الصغيرة هي: اللَّمَـمُ، واللمس، والنظر للأجنبية، والكبيرة هي: الزنا. اهـ.

والمعنى: أَنَّ جميع ما عملوه وصدر عنهم من: صغيرة أو كبيرة، كل ذلكِ أُحْصِيَ عليهم، وسُطِّر في الكتاب العامِّ.

قال تعالى: ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

والمعنى: أَنَّ كل إنسان رأى عمله الصادر منه في الدنيا حاضراً مشهوداً؛ الحسنات بصورةٍ حسنة، والسيئات بصورة سيئة، فتبرز لهم أعمالهم مسطورة في الكتاب، ومشهودة بالعيان.

وهذا كتاب الإحصاء العام هو المسمى بالإمام، المذكور في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

وإنما سُمِّي هذا الكتاب بالإمام لأنه إمام جميع الكتب الخاصَّة بكل إنسان، وذلك أَنَّ كلَّ إنسان له كتاب خاصٌ، تُكتب فيه أعماله، وجميع ما يصدر منه، وهو الذي تكتبه الملائكة الكرام الكاتبون، وذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾.

وهذا الكتاب الخاصُّ بصاحبه هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾.

وهذه الكتب الخاصة بأصحابها هي مجموعة كلها، ومسطورة أيضاً في ذلك الكتاب الإمام العامِّ، قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾.

كما أن هناك القضاء العامَّ المذكور فيه كل شيء، قبل وقوع

الشيء، وهو المُسمى بالأمِّ والإمام، وهناك كتب قضائية خاصة في بعض القضايا والحوادث والوقائع في أيدي الملائكة عليهم السلام، قد وُكِّلوا بتنفيذ ما فيها.

أما كتاب الأم فهو أم الكتاب المذكور في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾.

وأمُّ الشيء أصله ومرجعه، فهو أم الكتب القضائية.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

والمعنى: أن جميع الأشياء حتى المصائب والنوائب؛ هي مكتوبة في ذلك الكتاب، قبل أن يبرأ الله تعالى البرية.

ويبين ذلك ما جاء في: (صحيح) مسلم، عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء».

فهنالك كتابان إمامان عظيمان جامعان، كما أوضح ذلك العلماء المحققون رضي الله تعالى عنهم أجمعين:

أحدهما: كتاب القضاء، المذكور فيه جميع الأشياء قبل وجودها، ثم وُجدتْ على حسب ما هي في الكتاب.

ثانيهما: كتاب الإحصاء، الذي يُحصي الأشياء بعد وجودها

وصدورها من العباد، ويُسَطِّرها عليهم ـ وهذا حجة الله تعالى على خلقه يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: يشهد عليكم بما عملتم على الوجه الحق، لا يزيد عليهم شيئاً، ولا يُنْقص منهم شيئاً ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: كنا نستكتب الملائكة أعمالكم في هذا الديوان العام.

وقال تعالى: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ أنه قال: «يا عبادي إنَّما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أُوفِّيكم إيَّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، وَمَنْ وَجَد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلاّ نفسه».

وقد جمع الله تعالى بين كتابي القضاء والإحصاء الإمامين في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: كل شيء فعلوه هو مكتوب في: كتاب الإحصاء، وفي كتب الحفظة.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ أي: هو مكتوب في أم الكتاب قبل أَن يَخلق الله تعالى هذه الخليقة، ويبرأ البرية.

وأما كتاب أعمال الإنسان الخاص به، فإنه يُنشر في هذا الموقف ليقرأه ويحاسِبَ نفسه.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾.

والمعنى أَنَّ كل إنسان ألزمه الله تعالى ما طار منه ـ أي: ما صدر

منه من قول وعمل ـ ألزمه ذلك ملازمة الطوق والقلادة للعنق: إن كان ذلك العمل خيراً.

وألزمه الله تعالى ما طار منه من قول وعمل ملازمة الغِلِّ للعنق: إن كان ذلك شراً.

فجميع ما يصدّر من الإنسان ملازم له لا ينفكّ عنه.

وإنما خَصَّ العُنُقَ بالذِّكر من بين سائر أعضاء الإنسان، لأن العنق موضع الزَّيْن والشَّين؛ فالأطواق والقلائد توضع على العنق زينة لأصحابها، والأغلال توضع في الأعناق شَيْناً وتحقيراً وتصغيراً لأصحابها.

وكذلك عمل الخير والبرِّ هو زينة لصاحبه، وأما عمل الشر فهو شَيْن لصاحبه.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ. . .﴾ الآية.

والمعنى: أَنَّ الله تعالى يُخرج لكل إنسان كتاب أعماله التي صدرتْ عنه في الدنيا ـ ليقرأ الإنسان كتاب عمله.

وقرأ بعض القراء: ﴿ويُخْرَجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا. . .﴾.

أي: وَيَلقىٰ ذلك الكتاب منشوراً ـ أي: مبسوطاً غير مطويٍّ، وإنما نُشر له بعد أن طُوي حين توفي ـ لأجل أَنْ يقرأه على مشهد من الملأِ والناس.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

أي: نشرت صحيفة كل إنسان ليقرأها بعد طيها.

روى الإمام أحمد في: (مسنده) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ليس من عملِ يومٍ إلا وهو يُختم عليه، فإذا مَرِض المؤمن قالت الملائكة: يا ربَّنا عبدك فلان قد حَبَسْتَه ـ أي: منعته بسبب المرض عن أعمال النوافل، والقربات التي كان يعملها في حال الصحة ـ.

فيقول الربّ جلّ وعلا: اختموا له على مثل عمله ـ أي: مثل عمله حال صحته ـ حتى يَبْرأ أو يموت» قال الحافظ ابن كثير: إسناده جيد قوي.

وتلا الحسن البصري رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

فقال: يا ابن آدم بُسطت لك صحيفَتُك، ووُكِّل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك: فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك.

فاعمل ما شئت: أَقْلِل أو أَكْثِر، حتى إذا مِتَّ طُوِيَتْ صحيفتُك، فَجُعِلَتْ في عنقك معك في قبرك، حتى تُخرَج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ فقد عدل والله مَنْ جعلك حسيب نفسك. اهـ.

وقد استدل العلماء بقوله تعالى لكل إنسان ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ استدلوا على أنَّ كل إنسان يُبعث يوم القيامة قارئاً، وإن كان في الدنيا أُمِّيّاً لا يقرأ ـ وذلك بعلم ضروري يَخلقه الله تعالى فيه.

وقال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾.

والمعنى: أنَّ في ذلك الموقف المُفْزِع، والمقام المخيف ﴿تَبْلُوا﴾ ـ أي: تختبر ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنة أو كافرة ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي: ما قدَّمتْ من عمل فإنها تُعاين نفعه وضَرّه معاينةً جَلِيَّةً.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿هُنَالِكَ تَتْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ من التلاوة بمعنى القراءة.

والمراد بذلك قراءة كل نفس كتاب أعمالها التي أسلفتها.

أو هو مأخوذ من التُلوِّ وهو الاتباع، والمعنى: أَنَّ كل نفس تَتْبع عملها، فإنه يتمثل لصاحبه يوم القيامة، فيتبعه صاحبه إما إلى: الجنة إن كان العمل صالحاً، وإما إلى النار إن كان العمل سَيِّئاً.

نعم إنّه لا تنافر بين القراءات، فإنَّ كل نفس سوف تَتْلو ـ أي: تقرأ كتاب أعمالها، وسوف تَتْبع أعمالها: صالحةً أو طالحة، فكتاب الإحصاء العام هو ينطق عليهم بالحق كما تقدم في الآية الكريمة، أما كتاب الأعمال الخاصِّ بالإنسان فإنه يُنشر لصاحبه ليقرأه.

وهنالك يرى الإنسان جميع ما صدر عنه من قول وعمل، ويرى ما ترتب على ذلك من آثار الخير والشر، ومن آثار الهدىٰ وآثار الضلال.

وقد نبه الله تعالى عباده إلى ذلك ليكونوا على حذر وبينة من أمرهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

فَيُكتب على الإنسان ما قَدَّمه من قول وعمل وحال، وتُكتب آثار ذلك الناشئةُ عنها.

فالكلام الطيب الذي له آثار الطيب في نفوس السامعين، والكلام الحق الذي له آثار نوره وهَدْيه كل ذلك يكتب؛ فكلام الهداة وآثاره في الذين اهتدوا به يُكتب في صحيفة داعية الهدىٰ، وكلام المضلين وآثاره الضالة في نفوس الضالين به يُكتب في صحيفة داعية الضلالة.

والهدى الساري في نفوس المهتدين يكتب في صحيفة هاديهم، وضلال الضالين يُكتب في صحيفة مُضلِّيْهم.

روى الإمام مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من دعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه؛ لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه؛ لا ينقص من آثامهم شيئاً».

وروى الحاكم وصححه، عن حُذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنِ استَنَّ خيراً فاستُنَّ به فله أجره، ومثل أُجور من اتبعه غير منتقص من أجورهم، وَمنِ استنّ شراً فاستُنَّ به فعليه وزره، ومثل أوزار من اتبعه غير مُنتقص من أوزارهم».

وتلا حذيفة رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾.

أي: ما قدمت من عملها الصادر منها، وما أخَّرت من أعمال

غيرها، لكونها عُمِلتْ بسببها: خيراً أو شراً.

فليحذر الإنسان أن يعمل سوءاً، أو يقول سوءاً يُؤَدِّي ذلك إلى اقتداء غيره به، فإنَّ أمره خطير، ووزره كبير، فإنَّ من تبعه في ذلك كل آثامهم هي في صحيفة المتَسَبِّب، وفي هذا تنبيه للآباء وللأمهات والمعلمين والمعلمات، فإن هؤلاء موضع القدوة للأبناء وللبنات، والمتعلمين والمتعلمات، فإن الولد يَتبع أباه في عمله وقوله، والبنت تتبع أُمَّها في أَعمالها حتى في زينتها، والمتعلم يتبع مُعلمه.

فالواجب على هؤلاء جميعاً أن يُحسنوا العمل، وَيُسدِّدوا القول، ليكونوا قُدوة حسنة، ولا يكونوا قدوة سيئة، فإن آثارهم تُكتب في صحيفتهم إلى يوم القيامة.

قال مجاهد التابعي المفسر في قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ الآية الكريمة، قال: آثارهم هي ما أَوْرثوا من الضلالة. اهـ

ـ أي: وهذا بالنسبة للمضلين، والهدايةُ تكتب أيضاً بالنسبة لأئمة الهدىٰ.

وهكذا كُلُّ عَمَل له أثر فإنَّه يُكتب: كالمشي مثلاً له أثره وهو الخطّ في الأرض، فتكتب آثار الخُطا إلى المساجد في صحيفة الماشي إلى المسجد، وهكذا الماشي إلى مجالس العلم والعبادة، ومجالس تلاوة القرآن الكريم، ومجالس ذكر الله تعالى، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن آثار خُطاهم تكتب.

روى أبو نعيم في: (الحلية) بإسناده إلى ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (كنا نؤمر أن نُقارب الخُطا إلى الصلاة) وذلك ليكثر

عدد الخطوات؛ فتكتب في صحيفة الحسنات.

وروى الإمام مسلم، والإمام أحمد في: (المسند) عن جابر رضي الله عنه قال: خَلَتِ البقاع حول المسجد ـ أي: المسجد النبوي الشريف ـ فأراد بنو سلمة أن يَنْتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهم: «إنِّي بلغني أنكم تُريدون أن تنتقلوا قرب المسجد»؟

قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا بني سلمة ديارَكم، تكتب آثاركم، ديارَكم تكتب آثاركم» فأقاموا مكانهم.

والمعنى: الزموا ديارَكم البعيدة عن المسجد تكتب آثار خطاكم في صحيفة حسناتكم.

فأعمال الإنسان التي قدَّمها تكتب عليه، ويكتب عليه أيضاً آثاره في الخير والشر.

فالأولاد الذين تأثَّروا بإيمان آبائهم، وصلاح آبائهم، ونُصحهم لهم فآمنوا وصلحوا فإنَّ ذلك يُكتب في صحيفة الآباء، باعتبار أنه من آثارهم، ويكتب في صحيفة الأبناء لأنه من أعمالهم التي قدموها.

والأولاد الذين تأثروا بكفر آبائهم، وتضليل آبائهم لهم، وفسق آبائهم، كلُّ ذلك يكون في صحيفة آبائهم لأنه من آثارهم، وفي صحيفة الأبناء لأنه من عملهم الذي قدموه.

وإلى ذلك نبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنذر:

روى الشيخان وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يمجِّسانه، كما تُنتَج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تُحسُّون فيها من جدعاء حتى أنتم تجدعونها».

ثم يقرأ قول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تُغيِّروا خلق الله، وذلك بأن تُغيِّروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها؛ فهو خبر بمعنى الإنشاء[1] وذلك أَنَّ الله تعالى فطر العباد على توحيده والإيمان به، وبما جاء من عنده.

كما قال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فالإشارة في قوله سبحانه: ﴿ذلك﴾ تعود إلى ما تقدَّمها وهو الفطرة التي فطر الناس عليها، فإنَّها فطرة على الدين القيِّم المستوي، الذي لا عوج فيه[2] ولا خلل، ولا إفراط فيه ولا تفريط.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استقامته وعدله واعتداله، لعدم تدبرهم، وعدم تعقلهم وتفهمهم، فإنَّه دين قويم حكيم: لقوم يفقهون، ولقوم يدبَّرون آيات كتابه، التي أنزلها الله تعالى الحكيم الخبير.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

* * *

---

(١) انظر: (تفسير) ابن كثير وغيره.

(٢) انظر (تفسير) البيضاوي وغيره.

عـالَـم القِصـاص

القصاص هو: أخذ الحقِّ من الظالم للمظلوم، ومن الباغي للمبغيِّ عليه.

وقد جاء أَنَّ القصاص يوم القيامة هو عامٌّ بين كل ظالمٍ ومظلوم، وباغٍ ومَبغيٍّ عليه، سواء أكان ذلك من المكلفين من الثقلين أو غيرهما.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: خاب يوم القيامة من حمل ظلماً لخلق الله تعالى في الدنيا، فإِنَّ الله تعالى سوف يُوصل كلَّ حقٍّ إلى صاحبه، حتى إنه يقتص للشاة الجمَّاء من الشاة القرناء.

طريقـة قصاص المظالم بين العباد

روى البخاري وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ كانت عنده مَظلمة ـ أي: ظُلامة ـ لأخيه فلْيتحلَّله منه اليوم، فإنه ليس ثَمّ ـ أي: ليس في الآخرة ـ دينار ولا درهم، من قبل أن يُؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات أخيه فطُرِحتْ عليه».

فقد بَـيَّـن النبـي صلى الله عليه وآله وسلم طريقـة المُقاصَّـة بين

العباد يوم القيامة، وذلك بأن يؤخذ من حسنات الظالم للمظلوم بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات طُرِح من سيئات المظلوم فطرحت على ظالمه.

وهذا هو حقيقة الإفلاس، وهو ذهاب حسنات الإنسان إلى غيره، وتحمُّله سيئات غيره، من باب الحوالة اللازمة عليه.

روى مسلم وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أتدرون ما المفلس»؟

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن المفلس من أمتي: من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وصدقة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فَيُعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإنْ فنيت حسناته قبل أَن يُقضىٰ ما عليه، أُخذ من سيئاتهم؛ فطرحت عليه، ثم طرح في النار».

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يجيء الظالم يوم القيامة، حتى إذا كان على جسر جهنم بين الظُّلمة والوعرة: لقيه المظلوم فعرفه، وعرف ما ظلمه به، فما يبرح الذين ظُلموا يَقصُّون ـ أي: يقتصّون ـ من الذين ظَلَموا، حتى ينزعوا ما في أيديهم من الحسنات، فإن لم تكن لهم حسنات رُدَّ عليهم من سيئاتهم ـ أي: سيئات أصحاب الحقوق ـ حتى يُورَدوا الدرك الأسفل من النار»[1].

---

(١) قال في: (مجمع الزوائد): رواه الطبراني في: (الأوسط) ورجاله وثقوا. اهـ. =

القصاص يوم القيامة يجري في جميع المظالم كبيرها وصغيرها حتى اللَّطمة

روى الإمام أحمد بإسناد حسن، عن عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يَحشر الله العبادَ يوم القيامة» أو قال: «يَحشر الله الناس عُراة غُرلاً بُهماً».

قال: فقلنا: يا رسول الله، وما بُهماً؟

قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوتٍ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرب يقول: أنا الدَيَّان، أنا الملك.

لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حقٌّ حتى أقصَّه منه.

ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حقٌّ حتى أقصَّه منه ـ حتى اللطمة».

قال: فقلنا يا رسول الله، كيف وإنما نأتي عُراة غرلاً بُهماً ـ أي: ليس معنا شيء من الدنيا، حتى نُؤدي الحقوق علينا؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «بالحسنات والسيئات».

والمعنى أَنَّ القصاص يَجري بين الناس يوم القيامة بالحسنات والسيئات، لا بالدنانير والدُريهمات؛ فإنها متروكة في الدنيا.

والحسنات التي يَأخذها المؤمن في مقابلة الحق الذي له عند غيره: تنفعه في تكفير سيئاته، أو رفع درجاته على حسب حاله وحال تلك الحسنات.

وأما الحسنات التي يأخذها الرجل من أهل النار، في مقابل حقِّه الذي له على غيره: فإنها تنفعه في تخفيف العذاب من حيث الشدة لا من حيث المُدَّة.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيتي، وكان في يده سواك، فدعا وصيفةً ـ أي: جارية مملوكة ـ له، أو لها، حتى استبان الغضب في وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: غضب صلى الله عليه وآله وسلم حين دعا الوصيفة ولم تُجبه متشاغلةً في اللعب ـ.

فخرجت أم سلمة إلى الحُجرات فوجدت الوصيفة وهي تلعب بِبُهْمَةٍ ـ أي: ولد الضأن ـ فقالت: ألا أراك تلعبين بهذه البُهْمة، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعوك؟

فقالت: لا وَالذي بعثك بالحقِّ ما سمعتُك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لولا خشية القَوَد ـ أي: القصاص ـ لأوجعتك بهذا السِّوَاك».

وفي رواية: «لولا القصاص لعذبتكِ بهذا السواك».

قال في: (الترغيب): رواه أبو يعلى بأسانيد أحدها جيِّد[1]. اهـ.

وفي هذا دليل واضح على أَنّ حقوق العباد لا يُتَجاوز عنها، ولا تعفى ما لم يَعفُ صاحبها ويسمح.

---

(١) وقال في: (مجمع الزوائد): روى هذا كله أبو يعلى، والطبراني، وإسناده جيد عند أبي يعلى والطبراني. اهـ. =

روى الإمام أحمد، والحاكم، عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الدواوين ثلاثة:

فديوان لا يغفر الله منه شيئاً.

وديوان لا يعبأ الله به شيئاً.

وديوان لا يترك الله منه شيئاً».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**فأما الديوان الذي لا يغفر الله منه شيئاً**: فالإشراك بالله تعالى.

وأما الديوان الذي لا يَعبأ الله به شيئاً: فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها: فإِنَّ الله يغفر ذلك إن شاء ويتجاوز.

وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً: فمظالم العباد بينهم، القصاص لا محالة»[1].

والمعنى: أَنّ الدواوين عند الله تعالى، وهي الكتب الكبرى الجامعة للأعمال هي ثلاثة أصناف:

فديوان لا يغفر الله منه شيئاً وهو الإشراك بالله تعالى، لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾.

وأما الديوان الذي لا يعبأ به شيئاً ـ أي: لا يبالي به، فيغفر إن شاء عما شاء لمن شاء، ويتجاوز عنه، وذلك يتعلق بذنوب العبد

---

(١) قال الحافظ الهيثمي في: (مجمع الزوائد): في سند أحمد صدقة بن أبي موسى ضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات. اهـ، وصححه الحاكم، ورمز السيوطي إلى حسنه.

بينه وبين ربه، لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ الآية.

فالمذنب مع ربه بغير الشرك، وذلك من معاصٍ قد ارتكبها، وسيئات قد اقترفها، فإنَّ أمر عاقبته معلَّق على مشيئة الله تعالى: إنْ شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه، كما جاء ذلك مُصرحاً في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، المروي في: (الصحيحين) وغيرهما: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فَمَن وَفَّىٰ منكم فأجره على الله، وَمَن أصاب مِنْ ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفّارة له، وَمَن أصاب مِنْ ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ـ أي: أمره إلى الله تعالى ـ إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك.

وأما الديوان الثالث فالقصاص إن لم يَعْفُ صاحب الحق.

قال العلامة الطيبي رحمه الله تعالى: إنما قال صلى الله عليه وآله وسلم في القرينة الأولى: «لا يغفر الله منه»، ليدلَّ على أن الشرك لا يُغفر أصلاً، وفي الثالثة: «لا يترك» ليؤذن بأن حق الغير لا يُهمل قطعاً: إما بأن يَقتصّ من خصمه، أو يُرضيه الله تعالى عنه ـ أي: عن خصمه. اهـ.

فليس ثَمة ترك ولا إهمال لحق العبد على غيره، وإنما هو القصاص، أو إرضاء الله تعالى صاحب الحق يوم القيامة عن

خصمه؛ إن لم يعفُ عنه في الدنيا، فإنَّ من عفا عن أخيه فأجره على الله تعالى، ولذلك نَدب الله تعالى عباده إلى العفو وبيَّن عُلُوَّ مقام العافين عن الناس:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

فهذه صفات كُمَّل المؤمنين، أنَّه إذا أُسيء إليهم: كظموا غيظهم، فلم يُنفِّذوا غضبهم، وعفوا من قلوبهم، فلا يبقى في نفوسهم مَوْجِدَةٌ، ثم يُحسنون إلى من أساء إليهم: فهم المتقون حقاً.

وعن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اسمحْ يُسمحْ لك»[1].

وروى الإمام أحمد، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أَنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرِّين الذين يُصرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون».

فمن أراد أن يغفر الله تعالى له، وأَنْ يرحمه: فليغفر لعباد الله تعالى، وليرحمهم.

هذا وإن العبد المذنب مع عباد الله تعالى، المسيء إليهم، قد تشمله عِناية من الله بسبب أعمال صالحة كثيرة تقرَّب بها إلى الله

---

(١) رواه الطبراني في: (الصغير) و(الأوسط) ورجالهما رجال الصحيح، ورواه البزار كما في: (مجمع الزوائد).

تعالى، فإن الله تعالى إذا أراد الرحمة والعناية به، يَعرض على خصمه منزلة من الجنة عالية، فيرغب فيها حين يراها، ويسأل ربه تعالى الوصول إليها، فيقول له سبحانه إنما تَنالها بعفوك عن ذلك الأخ المؤمن، فيعفو عنه ويدخلان الجنة جميعاً.

جاء عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس، إذ رأيناه بَدَتْ ثناياه.

فقال له عمر رضي الله عنه: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «رجلان من أمتي جَثيا بين يدي ربِّ العزَّة:

فقال أحدهما: يا ربِّ خُذ لي مظلمتي من أخي.

فقال الله تعالى: أعطِ أخاك مظلمته.

قال: يا ربِّ لم يبق من حسناتي شيء.

فقال: يا ربِّ فليحمل من أوزاري».

وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبكاء - أي: من باب الرأفة والرحمة للمؤمنين - ثم قال: «إن ذلك ليوم عظيم، يحتاج الناس إلى أن يُحمل عنهم من أوزارهم.

فقال الله تعالى - أي: لطالب حقه -: ارفع بصرك فانظر.

فقال: يا ربِّ أرى مدائن من ذهب وفضةٍ، مكللةً باللؤلؤ، لأيِّ نَبيٍّ هذا؟ ولأيِّ صِدِّيق هذا؟ ولأي شهيدٍ هذا؟

قال الله تعالى: هذا لمن أعطى الثَّمَن.

قال: يا ربِّ ومَنْ يملك ذلك؟

قال: أنت تملكه.

قال: بماذا؟

قال: بعفوك عن أخيك.

قال: يا ربِّ فإني قد عفوتُ عنه.

قال الله تعالى: فخذ بيد أخيك فادخل الجنة».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك: «اتقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم؛ فإنَّ الله يُصلح بين المؤمنين يوم القيامة»[1] أي: يوفق بينهم، بإلهام المظلوم العفو عن ظالمه، وتعويضه بأحسن الجزاء.

وروى الطبراني بسندٍ حسن، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا التقىٰ الخلائق يوم القيامة نادى منادٍ: يا أهل الجمع تداركوا المظالم بينكم، وثوابكم عليَّ» أي: على الله تعالى.

وروى الطبراني عن أم هانىء رضي الله عنها مرفوعاً: «إنَّ الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحدٍ، ثم

---

(١) رواه البيهقي في: (البعث)، ورواه أبو يعلى، وسعيد بن منصور، والحاكم وصحح إسناده.
قال الحافظ الزرقاني: وله شواهد ترفعه إلى درجة الحسن: منها حديث أنس رضي الله عنه وإسناده حسن، وحديث أم هانىء رضي الله عنها. اهـ ـ أي: الحديثان المذكوران بعده.

يُنادي منادٍ من تحت العرش: يا أهل التوحيد إنّ الله عز وجلّ قد عفا عنكم، فيقوم الناس فيتعلّق بعضهم ببعض في ظُلاماتٍ ـ أي: حقوق بينهم ـ فينادي منادٍ: يا أهل التوحيد ليعْفُ بعضكم عن بعضٍ؛ وعليّ الثواب».

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: هذا محمول على من تاب من الظلم، ولم يَعد إليه، وهم الأوَّابون في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

قال العلامة القرطبي: وهذا تأويل حسن، أو يكون فيمن له خبيئة من عملٍ صالح، يَغفر الله له به، ويُرضي خُصماءه؛ ولو كان عامّاً في جميع الناس ما دخل أحد النار. اهـ.

وفي الحديث عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة يقضي الله عنهم يوم القيامة:

رجل خاف العدوّ على بيضة[1] المسلمين، وليس عنده قُوّة، فادّان ديناً فابتاع سلاحاً، وتقوّى به في سبيل الله عز وجل؛ فمات قبل أن يقْضيه، ولم يقدر على قضائه ـ فهذا يقضي الله عنه.

ورجل مات عنده أخوه المسلم، فلم يجد ما يُكفنه فيه، فاستقرض واشترى به كفناً؛ فمات ولم يقدر على قضائه ـ فهذا يقضي الله عنه.

---

(١) المراد ببيضة المسلمين: مُجتمعهم، وموضع سلطانهم، ومستقرّ دعوتهم كما في: (النهاية).

ورجل خاف على نفسه العَنَت ـ أي: الإثم والوقوع في الزنا ـ واشتدَّت عليه العزوبة، فاستقرض فتزوّج، ولم يقدر على قضائه؛ فمات ـ فهذا يقضي الله عنه يوم القيامة»[1].

القصاص بين الحيوانات

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

قال قتادة حول هذه الآية: يُحشر كل شيء حتى الذُّباب للقصاص، فإذا قضي بينها رُدَّت تراباً، فلا يبقى منها إلا ما فيه سُرور لبني آدم: كالطاووس ونحوه. اهـ.

وروى مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لَتُؤدَّنَّ الحقوقُ إلى أهلها، حتى يُقاد للشاة الجَلْحاء من الشاة القرناء».

فالشاة القرناء التي نَطحت بقرونها في الدنيا شاة جلحاء ـ لا قرون لها ـ يُقتص منها يوم القيامة لا محالة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُقتصُّ للخلق من بعضهم لبعض، حتى للجلحاء من القرناء، وحتى من الذَّرَّة للذَّرَّة» رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

---

(١) رواه أبو نعيم في: (الحلية) ٣: ٢٥٥.

وعن أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان جالساً، وشاتان تعتلفان، فنطحت إحداهما الأخرى، فأجهضتها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقيل: ما يضحكك يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عجبتُ لها، والذي نفسي بيده ليُقادَنَّ يوم القيامة».

وفي رواية أَنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى شاتين تنتطحان فقال: «يا أبا ذر هل تدري فيما انتطحتا»؟

قال: لا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ولكنّ الله يدري وسيقضي بينهما»[1].

فهذه الأحاديث النبوية تُبين الحكمة في الحشر العام لدواب الأرض، وسائر الطيور، الذي دلت عليه الآية المتقدمة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

فالضمير في ﴿يُحْشَرُونَ﴾ يعود إلى جميع ما تقدم ذكره، وعمومه.

---

(١) قال في: (مجمع الزوائد): رواه كله أحمد والبزّار، بالرواية الأولى، وكذلك الطبراني في: (المعجم الأوسط) وفيها ليث بن أبي سُليم وهو مدلس، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح، غير شيخه ابن عائشة وهو ثقة، ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح، وفيها راوٍ لم يُسمَّ. اهـ.

وفي هذا بيان وإعلان وإعلام بعظمة عدل الله تعالى بين سائر خلقه، حتى بين الذرة والذرة، وبين الحيوان والحيوان، فكيف يُهمل الحُكم العدْلَ بين الإنسان والإنسان؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فليتق الإنسان ربه في حقوق الله تعالى، وفي حقوق العباد، وفي حقوق الحيوانات.

وقد تقدم في الحديث أَن العُصفور الذي قُتِل في الدنيا عَبثاً، يَعجّ إلى الله يوم القيامة يطالب بحقه يقول: «يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً».

وروى البخاري، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «دخلت امرأة النار في هِرّة ربطتها، فلم تُطعمها، ولم تدعها تأكل من خَشاش الأرض»[١].

وفي رواية: «عُذِّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكلُ من خشاش الأرض».

وفي رواية لأحمد: «فوجبت لها النار بذلك».

وفي هذا تنبيه إلى الاهتمام بحقوق الحيوانات والبهائم، وفيه التحذير من ظلمها وتعذيبها، فإن الله تعالى الذي خلقها وسخرها للإنسان سوف يحاسب الإنسان، ويسأله عما خوَّله وسخر له من البهائم والحيوانات، هل أَدَّاها حقها؟ أم ظلمها بأن أجاعها أو

---

(١) قال المنذري: «خشاش الأرض»: مثلثة الخاء المعجمة، وبشينين معجمتين: هو حشرات الأرض، والعصافير ونحوها.

أجهدها، أو حمّلها فوق طاقتها ـ فليتق الإنسان ربه في ذلك.

روى أبو داود، عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال: مرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببعير قد لصق ظهره ببطنه ـ أي: من شدة جوعه ـ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة».

كما حذر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من إيلام الحيوان وتعذيبه:

فقد روى مسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرَّ على حمارٍ قد وُسم في وجهه.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لعن الله الذي وسَمَه».

وفي رواية: (نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الضرب في الوجه، وعن الوسْم في الوجه).

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه سوف يَجري في ذلك القصاص.

فعن جُنادة بن جَراد بن جُنادة رضي الله عنه قال: (أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإبلٍ قد وسمتُها في أنفها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا جُنادة فما وجدت عُضواً تسمه إلا في الوجه، أمَا إن أمامك القصاص».

فقال: أَمْرها إليك يا رسول الله) الحديث، قال المنذري: رواه الطبراني.

* * *

خطر حقوق العباد
وعِظَم أمرها يوم القيامة

روى الشيخان وغيرهما، عن أبي بكرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في خطبته في حَجّة الوداع: «إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا؛ ألا هل بلَّغتُ»؟

وروى مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه».

فهناك حقوق الدماء، وهناك حقوق الأموال، وهناك حقوق الأعراض، وكل واحد من هذه الحقوق جاءت في بيان خطره، وعقاب من انتهكه أحاديث كثيرة، ليس موضع تفصيلها هنا، ولكن نذكر أطرافاً منها، لكي يَعلم الإنسان أَنّ حقوق العباد خطرها جسيم، وعقابها أليم، وأمرها عند الله تعالى عظيم.

أما حقوق الدماء فاعتبر فيما جاء عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمنٍ لأكبَّهم الله في النار».

رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وروى الطبراني في: (الصغير) نحوه.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لزَوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمنٍ بغير حق» رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

قال الحافظ المنذري: ورواه البيهقي والأصفهاني وزاد فيه: «ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم النار».

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لزَوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم».

قال المنذري: رواه مسلم، والنسائي والترمذي مرفوعاً وموقوفاً، ورجح الموقوف.

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن قتل مُعاهداً لم يَرَحْ رائحة الجنة ـ أي: لم يجد ريحها ـ وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً».

قال المنذري: رواه البخاري واللفظ له، والنسائي إلا أنه قال: «مَن قتل قتيلاً من أهل الذِّمَّة».

وفي رواية للنسائي: «وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً».

وعند ابن حبان في: (صحيحه): «وإن ريح الجنة ليوجد من مسيرة مائة عام».

هذا وقد جاء الوعيد الشديد في شأن الذي يُعين على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة:

روى ابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة: لقي الله مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله».

ورواه الأصبهاني وزاد: قال سفيان بن عيينة: هو أن يقول: (اُقْ) يعني: لا يتم كلمةْ اقتل. اهـ.

وروى البيهقي نحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ـ كما في: (ترهيب) المنذري.

وأما حقوق الأموال فاعتبر فيما جاء في حق الذي يستدين ولا يفي الديون:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «نَفْسُ المؤمن معلَّقة بدَينه حتى يُقضىٰ عنه».

رواه أحمد، والترمذي وحسّنه، وابن ماجه، وابن حبان في: (صحيحه) ولفظه: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «نَفْس المؤمن معلَّقة ما كان عليه دين».

وعن أبي موسى رضي الله عنه، أَنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أعظم الذنوب عند الله تعالى، أَن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التي نهى الله عنها: أن يموت رجل وعليه دَيْن لا يَدَع ـ أي: لا يترك ـ له قضاءً» رواه أبو داود والبيهقي.

وقد جاء أن مَن أخذ أموال الناس وهو يريد إتلافها ولا يريد وفاءها فليعلم أن الله سوف يُتْلِفُهُ:

روى البخاري وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن أخذ أموال الناس يُريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يُريد إتلافها أتلفه الله تعالى».

وعن مَيمون الكُردي عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أيُّما رجلٍ تزوّج امرأةً على ما قلّ من المهر أو كثر، ليس في نفسه أَنْ يُؤَدِّي إليها حقها: خدعها؛ فمات ولم يؤدِّ إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان، وأيما رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدي إلى صاحبه حقه: خدعه؛ حتى أخذ ماله فمات ولم يؤدِّ إليه دينه لقي الله وهو سارق»[1].

فليحذر المسلمون من أكل مهور نسائهم بأنواع الحيل، وليحذروا أكل أموال بعضهم ظلماً فإن هناك موقفاً بين يدي الحَكَم العدل سبحانه وتعالى.

وأما حقوق الأعراض: والأعراض جمع عِرضٍ وهو موضع المدح والذمِّ من الإنسان، سواء كان في نفسه أو سَلَفِه؛ كما قال العلماء، فيجب أن تُصان الأعراض عن الانتهاك: وهو تناولها بغير حقٍّ.

ويدخل تحت انتهاك الأعراض أمور كثيرة منها: القذف والشتم، والبُهْتان، والغيبة، وإشاعات الكلمات حول من هو بريء

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني في: (الصغير) و(الأوسط) ورواته ثقات. اهـ.

منها؛ فإنَّ ذلك يجري فيه القصاص يوم القيامة.

وقد تقدم في الحديث الشريف أن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وصدقة ـ أي: هو متمسك بأوامر الشريعة ـ ولكن يأتي وقد قذف هذا، وشتم هذا، وضرب هذا، وسفك دم هذا، فيأخذون من حسناته، فإن فنيتْ طُرِح من سيئاتهم عليه ثم طُرِحَ في النار.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ ذَكر امرءاً بشيء ليس فيه؛ ليعيبه به: حبسه الله في نار جهنم، حتى يَأتِيَ بنفاذ[1] ما قال فيه» رواه الطبراني بإسناد جيد.

وفي رواية له: «أيُّما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها بريء؛ يَشِيْنُهُ بها في الدنيا: كان حقاً على الله أن يُذِيبَهُ يوم القيامة في النار، حتى يأتي بِنفاذ ما قال».

وروى أبو داود، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مَنْ قال في مؤمنٍ ما ليس فيه: أسكنه الله رَدْغة الخَبال[2]، حتى يخرج مما قال».

وفي رواية الطبراني: «وليس بخارج».

---

(١) النفاذ: المخرج والمخلص قاله في: (النهاية).

(٢) قال المنذري: «رَدْغة» بفتح الراء وإسكان الدال المهملة وبالغين المعجمة، و«الخبال»: بفتح الخاء المعجمة، و«ردغة الخبال» هي: عُصارة أهل النار ـ كذا جاء مُفسراً مرفوعاً. اهـ.

والذي يُعاب عنده أخوه المسلم، أو يُغتاب وهو ساكت على ذلك: فهو آثم في الدنيا والآخرة.

روى أبو داود، وابن أبي الدنيا وغيرهما، عن جابر بن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من امرئٍ مسلم يَخذُل امرءاً مسلماً في موضع تُنتَهك فيه حرمته، ويُنتقص فيه من عِرضه: إلاَّ خذله الله في موطن يُحب فيه نصرته.

وما من امرىء مُسلم ينصر مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه، ويُنتهك فيه من حرمته: إلا نصره الله في موطن يُحبُّ فيه نصرته».

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من اغتيب عنده أخوه المسلم فلم ينصره؛ وهو يستطيع نصره: أدركه إثمه في الدنيا والآخرة».

رواه أبو الشيخ في كتاب: (التوبيخ) والأصبهاني كما في: (ترهيب) المنذري.

ولا أريد أَنْ أبسط الكلام في بيان حقوق المسلمين على بعضهم، وأنواعها، وبيان أحكام مَن ضيعها، أو انتهك شيئاً منها، فإِنَّها كثيرة جداً.

وسوف يُسأل عنها العبد يوم القيامة، وإن تفصيل الكلام عليها يحتاج إلى مجلَّد كبير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإلى الله المشتكى، وأين أكثر المسلمين من تلك الحقوق؟!

وإنَّني أَذكر قضية هي جزئية بالنسبة للأكبر منها ـ وقعت بين

صحابيين عظيمين، لعلّ مُتذكِّراً يَتَـذَكَّر، ولعلَّ مُعتبراً يعتبر بها، فيدرك دِقَّةَ الحقوق بين المسلمين، ودقة المسؤولية عنها، ومنها يَعرف رِقَّة المزاج الإيماني، ولطافة الطبع الإسلامي، وأن الإنسان المسلم هو الإنسان؛ ليس بحيوان ولا ثعبان.

روى الإمام أحمد، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: مَررتُ بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد، فسلَّمتُ عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يَرُدَّ عليَّ السلام.

فأتيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقلت: يا أمير المؤمنين: هل حدث في الإسلام شيء؟

فقال عمر رضي الله عنه: لا وما ذاك؟

قلتُ: لا ـ أي: ليس هناك شيء ـ إلا أَني مررت بعثمان رضي الله عنه آنفاً في المسجد، فسلَّمت عليه فملأ عينيه مني، فلم يردَّ عليّ السلام.

فأرسل عمر رضي الله عنه إلى عثمان رضي الله عنه فدعاه فقال له: ما منعك أن لا تكون ـ أي: أن تكون ـ رددتَ على أخيك السلام؟

فقال عثمان رضي الله عنه: ما فعلتُ.

فقال سعد رضي الله عنه: قلت: بلى ـ أي: فَعلتَ ـ حتى حَلَفَ وحلفتُ.

قال سعد: ثم إن عثمان رضي الله عنه ذكره ـ أي: تذكَّر فقال: بلى وأستغفر الله وأتوب إليه؛ إنك مررتَ بي آنفاً، وأنا أُحدِّث نفسي بكلمة سمعتُها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

لا والله ما ذكرتها قطّ إلا تغشّى بصري وقلبي غشاوة.

قال ـ سعد ـ: فأنا أنبئك بها.

إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكر لنا أَوَّل دعوة، ثم جاء أعرابيٌّ فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاتبعتُه، فلما أشفقت أن يَسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض فالتفتَ إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «مَن هذا؟ أبو إسحاق»؟

قال سعدٌ: نعم يا رسول الله.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فمهْ»؟ ـ أي: ما جاء بك ـ.

قلتُ: لا والله، إلا أنك ذكرتَ لنا أوّلَ دعوةٍ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم: دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فإنّه لم يدعُ بها مسلم ربَّه في شيءٍ قط: إلا استجاب له» الحديث وقد رواه الترمذي والنسائي أيضاً وغيرهما.

فهذا سعد رضي الله عنه يمرّ فيسلم على عثمان بن عفان رضي الله عنه فلم يردَّ عليه، لأنه كان مشغول البال مستغرق الحال في التفكر حول دعاء عظيم، أراد صلى الله عليه وآله وسلم أن يُعَلِّمه للصحابة، ولكن دخل الأعرابي فشغله عن ذلك حتى قام صلى الله عليه وآله وسلم من المجلس، فحزن عثمان رضي الله عنه لذلك وكرب، حتى صار كلما تذكر ذلك يَتَغَشَّاه الحزن والكرب.

وها هنا يَمرُّ سعد رضي الله عنه فيسلم فيؤدِّي ما عليه من حق

البَدءِ بالسلام، ولكن لم يَسمع جواباً من عثمان رضي الله عنه قياماً بما عليه من حق ردِّ السلام، فراح سعد يرفع الأمر إلى أمير المؤمنين، **ويسأل هل حصل شيء في حكم الإسلام وشرعيَّته؟ وإذا** بعمر رضي الله تعالى عنه يُحضر عثمان رضي الله عنه ويسأله عن ذلك، ثم بعد ذلك يعتذر عثمان رضي الله عنه بأنه مشغول البال، مستغرق الحال، لم يُصْغِ إلى سلام سعد رضي الله عنهم أجمعين.

فاعْبُر من هذه القضية المتعلِّقة بحق التحية بين المسلمين؛ إلى ما وراءها من الحقوق بين المسلمين بعضهم لبعض، فكم ترى من المسلمين يَمرّون ولا يُسلِّمون، وإذا سُلِّم عليهم لا يُجيبون.

ألم يعلموا أَنَّ فصل القضاء يوم القيامة سيفصل بينهم، وأن هناك قنطرة الحقوق سيمرون عليها.

اللهم اجعلنا من الذين قلت فيهم: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وإنّ لنا بحثاً واسعاً حول بيان حقوق الإسلام وواجباته، سوف نوافيك به إن شاء الله تعالى في غير هذا المصنف، مع بسط الأدلة من الكتاب والسنة.

وعن ابن عثمان عن سلمان الفارسي وسعد بن مالك، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن مسعود حتى عدَّ ـ ابن عثمان ـ ستة أو سبعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورضي الله عنهم قالوا: (إن الرجل لترفع له يوم القيامة صحيفته، حتى يَرى أنه ناجٍ، فما تزال مظالم بني آدم تتبعه: حتى ما يبقى له حسنة، ويُحمل عليه من سيئاتهم).

قال الحافظ المنذري: رواه البيهقي في: (البعث) بإسناد جَيِّدٍ. اهـ.

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته، والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها، ويشهدان عليها بما كانت تعيب لزوجها، وتشهد يداه ورجلاه بما كان يُولِيها.

ثم يُدعى الرجل وخدمه فمثل ذلك، ثم يدعى أهل الأسواق.

وما يُوجد ثَمَّ دوانيق ولا قراريط، ولكن حسنات هذا تُدفع إلى هذا الذي ظُلم، وسيئات هذا الذي ظلمه توضع عليه.

ثم يؤتىٰ بالجبَّارِين في مقامع من حديد فيقال: أوردوهم إلى النار» الحديث.

قال في: (مجمع الزوائد): رواه الطبراني، وفيه عبد الله بن عبد العزيز الليثي وهو ضعيف، وقد وثَّقه سعيد بن منصور، وقال: كان مالك يرضاه، وبقية رجاله رجال الصحيح. اهـ.

* * *

عـالَم الصـراط

قال العلاَّمة القرطبي: الصراط لغةً: هو الطريق.

وعرفاً: هو جسر يُضرب على ظهر جهنم، تمرُّ الناس عليه إلى الجنة، فينجو المؤمنون على كيفياتٍ متعددة ـ يأتي بيانها ـ ويسقط المنافقون. اهـ.

وقد أخبر الله تعالى أَنَّ جميع العباد سوف يَردون يوم القيامة على جهنم، ويمرون على هذا الصراط، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

والكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه متعددة:

أولاً: عموم الورود لجميع الثقلين، وأنهم كلهم سيردون جهنم يوم القيامة، ثم ينجو من يُنْجيه الله تعالى، ويُترك فيها الظالمون.

ثانياً: البحث في المراد بالورود في هذه الآية الكريمة، وقد اختلف العلماء في ذلك:

فذهب بعضهم إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ الجواز على الصراط، لأنه ممدود على النار.

قال في: (المواهب وشرحها): ورجح هذا القول الإمام

النووي، وروى ابن عساكر عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وكعب الأحبار أنهم قالوا: الورود هو المرور على الصراط.

وكذا قال الحسن البصري عند البيهقي بلفظ: الورود: المرور عليها من غير أن يَدخلها.

وكذا قاله: خالد بن معدان، وعكرمة عند البيهقي وغيره. اهـ.

وذهب كثير من العلماء إلى أَنَّ المراد بالورود هنا الدخول، وقد رجح هذا القول العلامة القرطبي، وأخرجه الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقاله جماعة[1].

قال الحافظ ابن كثير: وإلى هذا القول ذهب علي وابن عباس رضي الله عنهم، وعليه جمهور أهل العلم سلفاً وخلفاً. اهـ.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى ـ مُخبراً عن فرعون وقومه يوم القيامة: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

والمعنى: أَنَّ فرعون يتقدَّم قومه إلى النار، قائداً لهم كما قادهم في الدنيا، حتى يرد بهم النار ـ أي: يُدخلهم النار.

واستدلوا على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي: داخلون فيها.

---

(١) كذا في: (شرح المواهب) ٨: ٣٩٣.

واستدلوا على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

فإن الله تعالى أخبر عن نتيجة الواردين فقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

فقد نجى الله تعالى المتقين بعدما وردوها، وقد أبقى فيها ـ أي: في داخلها الظالمين، جاثين على الركب من الزحام والضيق فيها.

فهذا دليل على أَنَّ الذين اتقوا أنجاهم الله تعالى منها؛ بعدما دخلوها، فأخرجهم ناجين لم يَمسسهم سوء، إذ أَنّ النجاة تكون بعد الدخول فيها، والتعرض لنيرانها.

فالمؤمنون الأتقياء يدخلونها دخول مرور وعبور، أما الكفار فإنهم يدخلونها دخول بقاء فيها وقرار.

واستدل العلماء على أن المراد بالورود في هذه الآية: الدخول ـ استدلوا على ذلك بما جاء عن أبي سُميَّة قال: اختلفنا في الورود ـ المذكور في الآية ـ.

فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن.

وقال بعضنا: ندخلها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا.

قال: فلقيت جابر بن عبد الله رضي الله عنه فقلتُ له: إنا اختلفنا في الورود.

فقال جابر رضي الله عنه: يردونها جميعاً ـ أي: المؤمن والكافر ـ.

فقلت له: إنا اختلفنا في ذلك، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: ندخلها جميعاً[1].

فأهوى بإصبعيه إلى أذنيه وقال: صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الورود الدخول، لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بَرْداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ـ أو قال: «لجهنم» ـ ضجيجاً ـ أي: صياحاً قوياً ـ من بردهم: ثم يُنجِّي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثياً».

قال الحافظ المنذري: رواه أحمد ورواته ثقات، والبيهقي بإسناد حسن. اهـ. ورواه الحاكم وصححه[2].

وروى عبد الرزاق، أَنّ ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: الورود في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ هو الدخول.

فقال نافع بن الأزرق: لا.

فقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ أدَخلوا أم لا؟

ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمَّا أنا وأنتَ يا نافع

---

(١) قال الحافظ الزرقاني: أعاد أبو سُمية على جابر رضي الله عنه السؤال لِيَعلم دليله، لأنه أجابه أَوّلاً بدون دليل، فلما فهم منه طلبَ الدليل ـ لأنه القاطع للنزاع ـ ذكره. اهـ.

(٢) انظر: (المواهب وشرحه).

فسندخلها، فانظر هل تخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مُخرجك منها بتكذيبك ـ فضحك نافع.

وروى الإمام مسلم، عن أُم مُبَشِّر الأنصارية رضي الله عنها، أنها سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول عند حفصة رضي الله عنها: «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها».

وفي رواية أحمد: «لا يدخل النار أحد شهد بدراً، والحديبية».

قالت حفصة رضي الله عنها: بلى يا رسول الله.

فانتهرها صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالت حفصة رضي الله عنها: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قد قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾».

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد» أراد بذلك البشرى لأهل بيعة الرضوان، الذين بايَعُوْهُ تحت الشجرة على الموت.

ووجه البشرى لهم بأنهم لا يُعذَّبون في النار، ولا يدخلونها دُخول مُكث وقرار فيها، كما هو شأن من يعذبه الله تعالى في النار.

وأما دخول المرور والعبور بسلام وأمان، فهذا لا بُدَّ منه، كما دلَّت عليه آية ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ الآية.

فتوهمت السيدة حفصة رضي الله عنها أن أصحاب الشجرة

لا يَرِدون النار أصلاً، فاستشكلت، فأجابها صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم يَرِدونها، ولكن الله تعالى يُـنَجِّيهم بتقواهم، ويُسلِّمُهُم من حَرِّ جهنم، فلا يَمسُّهم منها سوء ولا مكروه.

قال خالد بن معدان: يقول أهل الجنة يوم القيامة: ألم يَعدْنا ربنا أن نرد النار؟

فيقال لهم: بلى، ولكنكم مَرَرتم بها، وهي خامدة. اهـ.

وجاء في الحديث الذي رواه الطبراني، وابن عدي، عن يَعلى بن مُنْية، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تقول النار للمؤمنين يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن ـ أي: امش وجاوِزْني بسلام ـ فقد أطفأ نورك لهبي».

والمعنى: أَنَّ نور إيمانك أطفأ لهبي وحرِّي، وذلك لأَنَّ نور الإيمان يُطفىء النيران على نسبة قوته وضعفه، وإن دَمعة عين المؤمن من خشية الله: تطفىء بُحوراً من نيران جهنم.

روى البيهقي، والإمام أحمد في: (الزهد) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «ما من شيء إلا له مقدار وميزان، إلا الدمعة فإِنَّه يطفأ بها بحار من النار»[1].

قال الحافظ في: (الفتح): ولا تنافي بينهما ـ أي: بين القولين ـ في معنى ورود النار، لأن مَنْ عبَّر بالدخول تجوّز به عن المرور، لأن المار على النار فوق الصراط؛ في معنى مَن دخلها، لكن

---

(١) هذا لفظ البيهقي، ولفظ أحمد في: (الزهد) نحوه بزيادة كما في: (شرح المواهب) للزرقاني ٨: ٣٨٩.

تختلف أحوالهم باختلاف أعمالهم إلخ.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الآية، في هذا بيان لمنزلة تقوى الله تعالى، وآثارها في وقاية المتقي من حرِّ جهنم وعذابها، وسوء منظرها، وشدة لَفَحاتها، وذلك لأنَّ التقوى يكون بها التوقي من المكاره، فمن اتقى الله تعالى فقد توقَّى عذاب الله تعالى، وعقابه وغضبه، وسوء الحساب.

والتقوى هي على مراتب، ووقاياتها على مراتب أيضاً.

والتوقي من عذاب الله تعالى وعقابه، وغضبه وحجابه، إنما يكون بامتثال أوامره سبحانه، وباجتناب ما نهى عنه، ولذلك فسَّر العلماء التقوى بذلك.

ومن هنا يفهم العاقل أَنَّ الأعمال والأقوالِ التي شرعها الله تعالى لعباده، لها آثارها في نفوس العباد وقلوبهم، وعقولهم وأجسادهم، فمن امتثل أوامر الله تعالى، واجتنب ما نهى عنه سبحانه فقد انصبغ بصبغة الله تعالى النورانية، ووقاه الله تعالى بالوقايات، حتى إنَّه ليمرُّ على نار جهنم ولا تمسه بسوء، بل تكون عليه بَرداً وسلاماً، وذلك لأن لباس التقوى فيه الوقاية والمنعة.

قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الآية.

فكما أَنّ أَلْبِسَةَ الدنيا من الصوف والقطن تَقِي الحرَّ والقرَّ، فإِنَّ لباس التقوى يقي ما هو أعظم وأشدُّ وأخطر، وهو حرُّ جهنم وقرُّها.

ومن ترك أوامر الله تعالى، وركب ما نهى الله تعالى عنه، وهو مُصرٌّ على ذلك، مُعرض عن جميع ما هنالك، فقد ظلم نفسه،

حيث لم يَتعاط لها أسباب الوقايات، فإن النار تُؤلمه، وتتصل بذرَّاتِ جِسمه، بل تطَّلع على فؤاده قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي: لأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، فلم يقوها من النار، بل أعرضوا عن التقوى؛ ففقدوا الوقاية من جهنم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ الآية.

ووقاية الإنسان نفسه وأهله من النار، إنما هي بأن يتقي الله تعالى، ويأمر أهله: زوجه وأولاده ومن يلوذ به ممن له عليهم ولاية، يأمرهم بالتقوى، وهي: امتثال أوامر الله تعالى، وأهمها الصلاة والزكاة والصيام، إلى ما هنالك من الفروض والواجبات، كما أنَّه ينهاهم عما نهى الله تعالى عنه من المحرَّمات.

فهاهنا شيئان: وقاية النفس، ووقاية الأهل، وذلك بالائتمار، وبالأمر ـ أي: بامتثال أمر الله تعالى، وتطبيقه على النفس، وبأمر الأهل بذلك، فمن قصَّر في واحدة من هاتين، فقد عرّض نفسه لنار جهنم.

رابعاً: في حِكمة وُرود المؤمنين، ومرورهم على جهنم.

قال العلامة المفسر المعروف بالخازن: **فإن قلتَ**: إذا لم يكن على المؤمنين عذاب ـ أي: في وُرُودهم جِهنم ـ فما فائدة دخولهم النار؟

قلتُ: فيه وجوه:

أحدها: أن ذلك مما يزيدهم سروراً، إذا علموا الخلاص منها ـ أي: وأيقنوا بالنجاة من عذابها؛ بعد أن عاينوها، وبذلك يفرحون ويطمئنون.

ثانيها: أن فيه ـ أي: في وُرود المؤمنين جهنم ـ مزيد غـمٍّ على أهل النار، حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها ـ بسلام ـ وهم باقون فيها.

ثالثها: أَنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب الذي يكون على الكفار، صار ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة. اهـ.

يعني: لأنه بضدها تتميَّز الأشياء، وذلك مما يزيدهم فرحاً بنعيم الجنة وسروراً، وشكراً لله تعالى الذي تفضَّل عليهم بالإيمان، والأعمال الصالحة، وتفضل عليهم بقبولها منهم، وتفضل عليهم بأن نجَّاهم من عذاب جهنم، وتفضل عليهم بأن أدخلهم جنات النعيم، ولم يَجعلهم في دار الجحيم، ولذلك راحوا يَحمدون الله تعالى، ويُثنون عليه، فقالوا كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية.

خامساً: قوله سبحانه في الآية: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ في هذا يبيِّن سبحانه لعباده، أَنَّ هذا المرور العامَّ هو مقتضى حكمة ربوبيَّته سبحانه، وأنه قضى ذلك وحتَّمه على نفسه، فلا مَحيص للإنسان عنه، ولا مخلص له منه.

روى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يمـوت لأحدٍ من المؤمنين ثلاثـة من الولد، فَـيَـلِـجَ النـار ـ إلا تحلَّة القسم».

قال بعض السلف الصالح: أراد صلى الله عليه وآله وسلم بالقسم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

وفي هذا دليل لأهل السنة، على أَن الله تعالى قد يُحتِّم هو على نفسه أموراً، كما أنه سبحانه قد يُحقُّ على نفسه، كما أَنه سبحانه قد يكتب على نفسه، ويُوجب على نفسه، كما أنه سبحانه هو قد يُحرِّم على نفسه ـ كل ذلك عائد إلى حكمته، وفضله، وجوده وكرمه سبحانه وتعالى.

وليس للعباد عليه حقٌّ، ولا واجب ولا ملزم له منهم، ولا معقِّبَ لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، وإنما هو سبحانه هو يُحقُّ على نفسه، ويكتب على نفسه، ويُحتِّم على نفسه، ويوجب على نفسه، ويُحرم على نفسه سبحانه، كلُّ ذلك من باب التفضل على عباده والتكرم، والتعطف والترحم، كما هو مقتضى حكمة ربوبيته ورحمانيته سبحانه.

قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

وجاء في: (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله عزَّ وجل: وجبتْ محبتي للمتحابين فِيَّ، وللمتزاورين فِيَّ، وللمتباذلين فِيَّ».

كما أنه سبحانه هو يُحرم على نفسه:

فقد روى مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يرويه عن ربه عزَّ وجل أنه قال: «يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلتُه بينكم محرّماً ـ فلا تظالموا» الحديث الطويل.

ومن جملة ما أوجب على نفسه، أن يبيِّن لعباده السبيل القصد، والصراط المستقيم الموصل إلى كلِّ خير، والمبعد عن كل شرٍّ!

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

قال الزجَّاجُ: معناه: وعلى الله تَبيين الطريق الواضح المستقيم، والدعاء إليه بالحُجج. اهـ.

فلقد أوجب سبحانه على نفسه أن يُبيِّن قصد السبيل ـ أي: السبيل القصد.

والقصد هو: الوسط لا إفراط فيه ولا تفريط، فإن خير الأمور أوساطها ـ كما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنما كان الوسط خير الأمور، لأنَّـه يجمع كمال طرفيه، ويترك لهما نقصهما.

وذلك كالشجاعة: فإنها وسط بين التهوُّر والجُبن:

فالتهوّر هو: الإقدام في الخير والشر، أي: الإقدام في موضع الإقدام وفي موضع الإحجام.

والجبن هو: الإحجام في موضع الإحجام، وموضع الإقدام.

فأما الشجاعة فهي: الإقدام في موضع الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام، فأخذتْ كمال طرفيها، وتركتْ نقصهما ـ فالخير في وسطيتها.

وكالكرم: فإنَّـه وسط بين الإسراف وبين البخل:

فإنَّ البخل: إمساك المال عن مستحقِّه، وغير مستحقه.

والإسراف هو: بذل المال في حقٍّ وغير حق.

وأما الكرم فهو: بذل المال في موضعه، وإمساكه عن غير أهله، وإمساكه عن بذله في غير موضعه.

فبذل المال في طُرق الغيِّ والضلال دَمار ووبال، وبَذْل المال في مُساعدة الفقراء والمساكين وذوي الحاجة والعيال ذلك موضعه، وباذله هو الكريم عند الله تعالى وعند الناس.

فالطريق الذي دعا إليه الله تعالى عباده، وبيَّنه لهم في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم هو: السبيل القصد، الجامع لكل خير وصلاح وعدل، والمانع من كل شرٍّ ونقص وفساد وجَوْر.

قال الله تعالى لحبيبه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

فمن أراد سلوك الصراط المستقيم، فعليه باتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك بأن يجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إمامه، ويَنصب نفسه مُقتدياً به، وليلاحِظْه صلى الله عليه وآله

وسلم أمامه؛ في سائرأعماله، وأقواله وأحواله فهو الأُسوة الحسنة، الجامعة لكل حسنة.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

ولذلك لم يبق عذر لمعتذر، بعدما بيّن الله تعالى لعباده على لسان رسله صلوات الله تعالى عليهم، وأوضح لهم الطريق الحق، وهداهم السبيل السويَّ الحقيق.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيّنا له طريق الخير وسبيل السعادة، فهو بعد ذلك ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ أي: بينا لهم الهدى وكل ما فيه الخير لهم ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ الآية.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي: لما مالوا وأعرضوا عن الهدى الذي جاءهم به رسولهم من عند الله تعالى، الثابت بالبرهان والعيان ﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي: أمالَها عن الحق، فهي معوجة لا تستقيم.

وقال تعالى في الكفار: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

فهو سبحانه ﴿ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾.

وقال: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

فالله تعالى يُخبر عباده عما هو الحق، ويعرِّفهم بآياته الأمر الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

وقد أخبر عباده بأنه لا يظلم، ولا يريد أَن يَظلم، ولذلك يجب عليهم أن يعتقدوا أَن جميع ما قضاه، وسائر ما يُجريه وما أجراه، كلُّ ذلك بالحق والعدل، لا ظُلم في ذلك ولا حَيْف.

كما يجب على العباد أن يعتقدوا أَنَّ جميع ما شرعه الله تعالى من الأوامر والمناهي، ومن الحلال والحرام، كلُّ ذلك حق وعدل، فيه سعادة الدنيا والآخرة، لم يَظلم عباده فيما شرعه لهم، وأمرهم به، أو نهاهم، ولم يَظلمهم فيما حرَّم عليهم، أو أحل لهم، ولا يُريد أن يظلمهم في ذلك، ولا في غير ذلك.

فأحكامه القضائية القدرية كلُّها حَقٌّ لا ظلم ولا حَيْف، وأحكامه التشريعية كلُّها حق لا ظلم فيها ولا حيف.

قال تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

فجميع الأحكام الشرعية إنَّما جاءت لإسعاد البشرية وإصلاحها، ونجاحها وفلاحها، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

والمعنى: أَنَّ الله تعالى ما يريد ليجعل على عباده من حرج فيما شرعه في الدين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الآية.

أي: ولكنه يُريد أن يطهِّر عباده من كل دنسٍ بهيمي، وفساد حيواني، ونقص نفساني، فنهاهم عما نهاهم عنه ليكون ذلك تخليةً لهم من العيوب والنقائص.

ويُريد فيما شرعه من الأوامر أن يتمَّ نعمته عليهم، وفي هذا تَحْليتهم وكمالهم، وذلك بما أمرهم به من الأوامر التي فيها الإصلاح والكمال، والارتقاء بالنفس إلى حظيرة القدس حتى تكون فيها الأهلية لأن تَحلَّ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

فالشرائع السماوية نُظُم إلَهية، ناط الله تعالى بها سعادة العباد، وصلاح البلاد، وفلاح الآباء والأولاد، وإنَّ الذي خلق العالَم هو أعلم بما فيه صلاح العالَم جلَّ وعلا.

صفة الصراط

روى الإمام مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: بلغني أن الجسر ـ أي: الصراط ـ أدقّ من الشعر، وأحدّ من السيف.

وروى الإمام أحمد في: (مسنده) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عائشة أمَّا عند ثلاث فلا؛ أمّا عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا، وأمّا عند تطاير الكتب فإمّا أن يُعطى بيمينه أو يُعطى بشماله، وحين يخرج عنق النار فينطوي عليهم، ويقول ذلك العنق وُكِّلت بثلاثة:

وكِّلتُ بمن ادّعى مع الله إلّهاً آخر، ووكِّلتُ بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكِّلتُ بكل جبَّارٍ عنيد».

قال: «فينطوي عليهم ـ أي: على الثلاثة ـ ويرمى بهم في غمرات النار».

قال: «ولجهنم جسر أدقّ من الشعر، وأحدّ من السيف، عليه كلاليب وحَسَك، يأخذون مَنْ شاء الله تعالى، والناس عليه كالطَّرْف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب.

والملائكة يقولون: ربِّ سَلِّم سَلِّم ـ فناجٍ مُسلَّم، ومخدوش مسلَّم، ومكوَّر في النار على وجهه».

وروى الطبراني، والبيهقي بسند صحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (يُوضع الصراط على سواء جهنم، مثل حدِّ السيف المرهف، مَدْحَضَةٌ، مزلَّة، عليه كلاليب من نار، يخطف بها، فَمُمْسَك يهوي فيها، ومصروع، ومنهم من يمرّ كالبرق فلا ينشب ذلك أن ينجو، ثم كالريح فلا ينشب ذلك أن ينجو، ثم كجري الفرس، ثم كَرَمَل الرجل، ثم كمشي الرجل).. إلخ كما سيأتي[1].

وروى البيهقي، وابن أبي الدنيا، وابن المبارك من مرسل عُبيد ابن عمير، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الصراط

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني بإسناد حسن، وعزاه الزرقاني إلى الطبراني، والبيهقي بإسناد صحيح، كما في: (شرح المواهب ٨: ٣٩٢).

على جهنم مثل حرف السيف، وبجنبتيه كلاليب، وحسك، يركبه الناس، فَيُختطفون.

والذي نفسي بيده إنه ليؤخَذ بالكلُّوب الواحد أكثر من ربيعة ومُضر.

والملائكة على جنبتيه يقولون: ربِّ سَلِّم سَلِّم».

وأخرج ابن عساكر، عن الفضيل بن عياض قال: (بلغنا أن الصراط مسيرة خمسة عشر ألف سنة: خمسة آلاف صعود، وخمسة آلاف هبوط، وخمسة آلاف مستوى.

أدقّ من الشعر، وأحدّ من السيف.

على متن جهنم، لا يجوز عليه ـ أي: لا يسلكه ولا يجتازه ـ إلا ضامر مهزول من خشية الله تعالى).

أحوال العباد في جَوازهم الصراط

تختلف أحوال العباد حين يَمرُّون على الصراط، فمنهم السالم الذي ينجو، ومنهم الهالك، ومنهم الذي يُخدش ثم ينجو.

روى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه، في حديث طويل قال فيه صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم يُضرب الصراط بين ظهراني جهنم»[1].

وفي رواية: «ويضرب جسر جهنم ـ أي: الصراط ـ فأكون أول

---

(١) والمعنى: أَنَّ الصراط يُنصَبُ، ويمدّ بين ظهراني جهنم، أي: بين أجزاء ظهرها، كأنها محيطة به، اهـ زرقاني. =

من يجوز[١] من الرسلِ بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل[٢] وكلام الرسل يومئذٍ: اللَّهم سَلِّم سلِّم[٣].

وفي جهنم كلاليب، مثل شوك السعدان.

هل رأيتم شوك السعدان»؟

قالوا: نعم.

قال: «فإنها مثلها، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى، تخطف الناس بأعمالهم».

وفي رواية لمسلم: «ثم يُضرَب الجسر على جهنم، وتَحلُّ الشفاعة، ويقولون: اللهم سلِّم سلِّم».

قيل: يا رسول الله وما الجسر؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «دحض مزلَّة، فيه خطاطيف[٤]، وكلاليب[٥]، وحسك تكون بنجدٍ فيها شويكة يقال لها السعدان[٦].

---

(١) أي: يقطعه ويمضي عليه، يقال: جاز الوادي وأجازه بمعنى قطعه، وقال الأصمعي: جازه: مشى فيه، وأجازه قطعه ـ حكاه النووي وغيره.

(٢) أي: لا يتكلم حين الإجازة على الصراط إلا الرسل، وذلك لشدة الهول وعظم الفزع.
أما في غيره من المواطن، فهم يسأل بعضهم بعضاً، ويلوم بعضهم بعضاً، ويُجادل بعضهم بعضاً.

(٣) وهذا الدعاء من الرسل هو لأمتهم شفقة عليهم ورحمة بهم.

(٤) جمع خِطاف، وهي حديدة يُختطف بها.

(٥) جمع كلُّوب: حديدة معطوفة الرأس، يعلق فيها، ويقال لها الكلاب.

(٦) قال الزرقاني: السعدان بفتح السين والدال، بينهما عين ساكنة =

فيمر المؤمنون: كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب.

فناجٍ مسلَّمٌ، ومخدوش[1] مرسل، ومكدوس[2] في نار جهنم.

حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشدّ مناشدة لله تعالى في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة؛ لإخوانهم الذين في النار.

يقولون: ربنا كانوا يصومون، ويُصلون، وَيَحُجُّون.

فيقال: لهم: أخرجوا مَنْ عرفتم ـ فتحرَّم صُورهم على النار، فيُخرِجون خَلقاً كثيراً، قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه» الحديث.

قال الإمام النووي رضي الله عنه عند قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فناجٍ مُسلَّم» الحديث قال: معناه أنهم في ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم يُسلَّم فلا يناله شيء أصلاً.

٢ ـ وقسم يُخدش ثم يُرسل فيخلص.

٣ ـ وقسم يُكردس، ويلقى فيسقط في جهنم. اهـ.

= مهملات، جمع سعدانة: نبات ذو شوك، والتشبيه به لسرعة اختطافها، وكثرة الانتشاب فيها. اهـ.

(١) أي: مخموش ممزَّق.

(٢) أي: يلقى بعضهم فوق بعض في جهنم.

فالمؤمنون الصادقون يمرون على الصراط وهم في أمان وسلام، يُضيء لهم نور إيمانهم وأعمالهم الصالحة، ويسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

فكلُّ مؤمن يمشي على نور إيمانه، الشامل للاعتقاد والعمل والقول، وقوة نورهم هي على حسب قوة إيمانهم، فمنهم قويُّ النور، ومنهم الأقوى، ومنهم الأقوى.

روى ابن أبي حاتم، وابن جرير، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ قال: (على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط: منهم مَنْ نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً مَن نوره في إبهامه يتَّقِدُ مرة ويُطفأ مرة).

وقال قتادة: ذُكر لنا أن نبيَّ الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: «من المؤمنين مَنْ يضيء نوره من المدينة إلى عَدَن أبين، وصنعاء، فدون ذلك، حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه»[1].

وروى الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الصراط كحدِّ السيف، دحض مزلَّة» قال: «فيمرّون على قدر نورهم، فمنهم مَنْ يمرّ كانقضاض

---

(١) انظر هذه الآثار في تفسير ابن كثير وغيره.

الكوكب، ومنهم من يمرّ كالطرف، ومنهم من يمرّ كالريح، ومنهم من يمرّ كشدِّ الرجل، ويرمُل رملاً، فيمرُّون على قدر أعمالهم، حتى يمرّ الذي نوره على إبهام قدميه: تخِرُّ يدٌ وتعلق يد، وتخرّ رِجل وتعلق رِجل، فتصيب جوانبه النار»[1].

وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[2].

فشيبة الإسلام تُضيء الصراط لصاحبها، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تنتفوا الشيب..» الحديث رواه الترمذي وحسنه.

وعند الطبراني في: (الأوسط): «مَنْ شابَ شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة».

فقال له رجل: إن رجالاً ينتفون الشيب!

قال: «من شاء نتف نوره».

وعند الحاكم في: (الكنى) بإسناد حسن: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً، ما لم يغيِّرها».

قال العلامة المناوي: أَيْ ما لم يغيِّر شيبته بالسواد.

وقال في شرح قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كانت له نوراً

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني، والحاكم واللفظ له. اهـ.

(٢) قال الحافظ المنذري: رواه النسائي في حديث، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. اهـ.

يوم القيامة»: أي: يصير الشيب نفسه نوراً، يهتدي به صاحبه، ويسعى بين يديه في ظلمات الحشر إلى أن يدخله الجنة، ثم قال: فَكُرِه نتف الشيب من نحو: لحية، وشاربٍ، وعنفقةٍ، وحاجب، وعذار؛ للفاعل والمفعول به.

قال النووي: ولو قيل يحرم لم يبعد. اهـ.

وأما الكفار المتظاهرون بالكفر فإنهم أُمِرَ بهم إلى جهنم من بدء الأمر.

وأما المنافقون فهم كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

فالمنافقون لما كانوا في الدنيا يُخادعون ـ وذلك بإظهارهم الإسلام وإبطانهم الكفر ـ فإن الله تعالى هو خادعهم في الدنيا بأن عصم دماءهم وأموالهم، استدراجاً لهم في الضلال والطغيان، وهو خادعهم في الآخرة، وذلك بأن يتمثل لهم إسلامهم الذي تظاهروا به في الدنيا؛ يتمثل لهم بشيء من النور يمشون به خطوات قليلة على الصراط، حتى يظن أحدهم أنه قد أَمِنَ ونجا، فبيناهم كذلك ذَهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات كفرهم ونفاقهم، لا يُبصرون، وإذا بهم يستغيثون بالمؤمنين أمامهم يقولون لهم:

﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ أي: انتظرونا نستضيء بنوركم،

ولا تسرعوا إلى الجنة، أو المعنى: انظروا إلينا.

قال العلامة البيضاوي رحمه الله تعالى: فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، فيستضيؤون بنورٍ من بين أيديهم. اهـ.

وحينئذ أجابهم المؤمنون بما أخبر الله تعالى عنهم:

﴿ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾.

والمعنى: كما في: (تفسير) البيضاوي رحمه الله تعالى: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً، وذلك بتحصيل المعارف الإلٰهية، والأخلاق الفاضلة، فإن النور يتولد منها.

أو المعنى: ارجعوا إلى الموقف فإنه من ثَمَّ يُقتبس، أي: ارجعوا إلى الموقف الذي تُعطىٰ فيه الأنوار لأصحابها. اهـ.

أَوِ المعنى: ارجعوا إلى حيث شئتم، فاطلبوا نوراً آخر، فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا، فإنه لا يوجد عندكم استعداد إلى الاستمداد من أنوارنا، كما أن الأعمى لا استعداد عنده لأن يستمد من بصر البصير، ويستضيء من البصر، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

وقال تعالى في الكفار الظاهرين والمنافقين: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فهم صمّ القلوب، وبُكمها، وعُميها.

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

ولما كان مُرور المارِّين على الصراط هو على حسب نور إيمانهم وأعمالهم، وسلامتهم من الخدش والكلاليب هي على حسب صلاح أعمالهم، وامتثال أوامر الله تعالى، واجتناب ما نهى

عنه، لأن ذنوب الإنسان وخطاياه هي التي تُحرك عليه كلاليب جهنم لتخدشه وتصرعه.

لذلك أمر الله تعالى المؤمنين أَن يتوبوا إليه من ذنوبهم ومخالفاتهم، قبل أَنْ يأتي عليهم ذلك اليوم ـ ليمرّوا على الصراط آمنين سالمين.

فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فالله تعالى نادى عباده المؤمنين من هذه الأمة المحمدية على رسولها الصلاة والسلام، ناداهم بصيغة التأييه لما في ذلك من قوة التنبيه إلى الأمر الذي يأتي وراء النداء وهو قوله تعالى: ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: ليتبْ كلُّ مؤمن منكم من ذنوبه التي صدرت منه، وذلك بأن يُقلع عن ذنوبه، ويندم من قلبه على فعلها أيضاً، ويعزم على أن لا يعود إليها، وإنْ كان ذلك الذنب مما يَتعلّق بحقوق المخلوقات فَلْيُوَفِّهم حقهم، أو يَسمحوا عنه، وبذلك تكون توبة نصوحاً.

فَنُصح التوبة إما سلامتها من الغشّ، وذلك بأن تكون عن ندم القلب، وحسرة النفس مما جَنَتْ وارتكبت، كما هو الشأن في العسل الناصح، وهو السالم من الغش والعكر.

وإما أن يكون نُصْح التوبة هو: استيفاءها لعامَّة الذنوب، بأن

يتوب المؤمن من ذنوبه كلِّها، لا أنَّـه يتوب من ذنب، ويبقى مصراً على آخر.

فتكون التوبة النصوح في كمالها واستيفائها كالثوب الناصح، وهو الذي لا خَرق فيه، ولا فتق، بل هو سالم سابغ.

ويقال للخياط ناصح، وللإبرة مِنْصحة.

فمعنى الآيـة على الوجه الأول: ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَـةً نَّصُوحًا ﴾ أي: توبة صادقة من قلوبكم، نادمين على ما فعلتم، ولا تكن توبتكم توبة المنافقين المخادعين، الذين يتوبون بلسانهم ولم تندم قلوبهم على ما فعلوا، ولم يأسفوا على إجرامهم.

قال الله تعالى: ﴿ لَا يَـزَالُ بُنْيَـٰنُهُـمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُـلُوبُهُـمْ ﴾ أي: تتقطع قلوبهم بالندم، والتحسُّر على ذنبهم.

وفي: (مسند) أحمد وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الندم توبة».

وروى ابن أبي حاتم، عن زرِّ بن حُبيش[1] قال: سألت أبيّ بن كعب رضي الله عنه عن التوبة النصوح فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال: «هو الندم على الذنب حين يفرط منك، فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبداً».

وعلى الوجه الثاني: فمعنى الآية ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَـةً نَّصُوحًا ﴾ أي: توبة من جميع ذنوبكم، تكون سابغة وافية، واقية لكم من العقاب

---

(١) انظر: (تفسير) ابن كثير.

والعذاب، ولا تكونوا كالذين يتوبون من بعض الذنوب وهم مصرّون على غيرها، فإنَّ ذلك لا يدفع عنكم خطر العقاب والعذاب.

ثم بَيَّن لهم سبحانه أنَّهم إذا تابوا توبة نصوحاً فإن الله تعالى يفتح لهم باب رجاء محقق؛ لا يخيبون فيه، وذلك بأن يُكفِّر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار.

قال تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾.

فهو سبحانه يُعطيهم ما يرجون من تكفير السيئات، ودخول الجنات في ذلك اليوم العظيم، الذي أخزى الله تعالى فيه الكفار والمنافقين، والظالمين والفاسقين ـ وما أعظمه من خِزيٍ، وما أشده من خذلان وهوان.

أما هذا النبي الأكرم، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو في أعلى درجة الإكرام، وعزَّة المقام، وعلوِّ الشأن والمكان.

والذين آمنوا به واتبعوه هم معه في عِزّة وكرامة، وعطاء وفضل، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾.

فالله تعالى يُكرم النبي صلى الله عليه وآله وسلم دائماً على مدِّ العوالم بأنواع العزّة والكرامة، ويرفعه درجات في الفضيلة وعلوِّ المقامة.

فلقد أعطاه الله تعالى الكوثر الذي فيه الخير العام الطامُّ ـ كما تقدم، وأعطاه الشفاعة العامة، وأعطاه السيادة العامة، وأعطاه لواء الحمد الجامع لأنواع المحامد، الذي اجتمع تحته جميع الأنبياء

والرسل صلوات الله تعالى عليه وعليهم فقال: «آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر».

ثم بيَّن سبحانه أثر نور إيمانهم المحيط بهم، فقال سبحانه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ فلقد اكتنفهم نور إيمانهم من جميع جهاتهم، فهم يَمرّون على الصراط ونورهم محيط بهم، وهم يدعون ربهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

دعوا الله تعالى أَن يُتمم لهم النور، فلا يطفأ ولا يذهب به أبداً، حتى يدخلوا الجنة وهم سالمون آمنون.

نقل الحافظ ابن كثير في: (تفسيره) عن الضحاك أنه قال: ليس أحد ـ من المسلمين ـ إلا يُعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طفىء نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يُطفأ نورهم كما طفىء نور المنافقين فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾.

ومن أجل ذلك جاءت البشارة النبوية للمَشَّائين في ظلمات الليل إلى الصلاة في المساجد بالنور التام يوم القيامة ـ ويدخل تحت هذا صلاة العشاء والفجر في المساجد، لأنهما ثقيلتان على المنافقين.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بشِّر المشائين في الظُلمِ إلى المساجد بالنور التامِّ يوم القيامة»[1].

---

(١) قال المنذري: رواه ابن ماجه، وابن خزيمة في: (صحيحه) والحاكم =

ودعوا الله تعالى أن يغفر لهم ذنوبهم، حتى لا تَخدشهم كلاليب جهنم، وهم يمرُّون على الصراط، فإنها تَخدش المذنب على حسبِ كِبَرِ ذنبه وصغره.

هيبة المرور على الصراط وخطورة مَزلَّة الأقدام

إنَّ لورود العباد جهنم، ومرورهم على الصراط المضروب بين ظهرانيها، فزعاً في قلوب الواردين، وخوفاً من زَلّة الأقدام، والتردِّي في نار جهنم، وقد نبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خطورة ذلك الورود حيث قال: «ثم يُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أَول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذٍ: اللهم سَلِّم سَلِّم».

فما أعظم ذلك المرور، وما أخطره، حتى إنَّ جميع المارِّين لزموا الصمت، فلا كلام إلا من الرسل، وكلام الرسل يومئذ: «اللهم سلِّم سلِّم».

فراحوا يدعون الله تعالى لأتباعهم، أَنْ يجعلهم الله تعالى في سلامٍ وأمانٍ، بحيث يجتازون الصراط سالمين، آمنين من المخاوف والمكاره.

فما أرحم الرسل بأتباعهم، وما أشدَّ رأفتهم وعطفهم على الذين آمنوا بهم، وتمسَّكوا حق التمسك بشريعتهم، لقد أهمَّهم أمر أتباعهم، فراحوا يدعون الله تعالى، ويلحُّون في الدعاء أن يُسلِّم

= واللفظ له، وقال: صحيح على شرط الشيخين. اهـ. =

أتباعهم من مفزعات الصراط، ومخاوفه.

وأعظمهم رحمةً، وأشدُّهم رأفة، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقال تعالى فيه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين.

روى الإمام مسلم، عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يجمع الله الناس...» فذكر الحديث إلى أن قال: «فيأتون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فيقوم، ويُؤذن له، وترسل معه الأمانة والرحم، فيقومان جَنبتي الصراط: يميناً وشمالاً، فيمرُّ أوَّلكم كالبرق».

قال: قلت: بأبي أنت وأمي أيُّ شيء كمرِّ البرق؟

قال: «ألم تر إلى البرق كيف يَمرُّ ويرجع في طرفة عين؟

ثم كمرِّ الريح، ثم كمرِّ الطير، وشدِّ الرجال؛ تجري بهم أعمالهم.

ونبيُّكم صلى الله عليه وآله وسلم قائم على الصراط يقول: ربِّ سلِّم سلِّم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زاحفاً».

قال: «وفي حافَتَيِّ الصراط كلاليب معلقة، مأمورة، تأخذ مَن أُمرتْ به، فمخدوشٌ ناجٍ، ومكدوس في النار» الحديث.

فالله تعالى يُنجي المتقين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الآية، ويجعلهم في سِلْمٍ وأمان.

قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ اللهم اجعلنا منهم.

ولما كان المرور على الصراط خطيراً، بَيَّن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أَنّ الذين تَزلُّ أقدامهم حين يمرّون على الصراط هم كثيرون.

روى البيهقي، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن على جهنم جِسراً أدقّ من الشعر، وأحد من السيف، أعلاه نحو الجنة ـ دحض مزلَّة، بجنبيه كلاليب، وحَسَكُ النار، يَحشر الله به من يشاء من عباده، الزالُّون والزالاّت يومئذ كثير» الحديث.

وقد حضَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على تعاطي الأعمال التي يُثبت الله تعالى بها قدم صاحبها على الصراط:

فمن ذلك ملازمة المساجد:

كما جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «المسجد بيت كل تقيٍّ، وتكفَّل الله لمن كان المسجد بيته بالرَّوْح والريحان، والرحمة، والجواز على الصراط إلى رضوان الله؛ إلى الجنة».

قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في: (الكبير) و(الأوسط) والبزار وقال: إسناده حسن، وهو كما قال رحمه الله تعالى. اهـ.

وعزاه الزرقاني أيضاً إلى سعيد بن منصور.

ومن ذلك إحسان الصدقة: وذلك بأن تكون من مال حلال، وأن تَقَع موقعها.

فقد روى أبو نعيم والأصبهاني مرفوعاً: «مَن أحسن الصدقة جاز على الصراط مُدِلاًّ».

قال في: (النهاية): أي: مُنبسطاً، لا خوف عليه، وهو من الإدلال. اهـ.

ومن ذلك إقالة المسلم بيعته وعثرته:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أقال مسلماً بيعته: أقاله الله عثرته يوم القيامة».

قال المنذري: رواه أبو داود وابن ماجه، وابن حبان في: (صحيحه) واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

قال: وفي رواية لابن حِبان: «مَن أقال مسلماً عثرته: أقاله الله عثرته يوم القيامة».

قال: وفي رواية لأبي داود في: (المراسيل): «مَنْ أقال نادماً: أقاله الله نفسه يوم القيامة».

ومن ذلك تيسير الإنسان ما عَسُر على غيره:

عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن كان وُصْلةً لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بِرٍّ، أو تيسير عسيرٍ: أعانه الله تعالى على إجازة الصراط يوم القيامة؛ عند دَحض الأقدام» أي: عندما تزل الأقدام عند مرور الصراط.

قال في الترغيب: رواه الطبراني في: (الصغير) و(الأوسط)، وابن حبان في: (صحيحه).

ومن ذلك إعانة العباد في حاجاتهم، والمشيُ في قضاء مُهمَّاتهم:

عن أنس رضي الله عنه، أَنَّ رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله: أيُّ الناس أحبّ إلى الله؟

فقال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلَّ سرور تُدخله على مسلم: تكشف عنه كربةً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جُوعاً.

ولأَن أمشي مع أخي في حاجةٍ أحبّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً.

ومن كظم غيظه ـ ولو شاء أن يُمضيه أمضاه ـ ملأ الله قلبه يوم القيامة رِضىً.

ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له يُثَبِّتُ الله قدميه يوم تزول الأقدام».

رواه الأصبهاني وابن أبي الدنيا.

وعند ابن حبان: «من أعان عبداً في حاجته: ثبَّت الله له مقامه يوم تزول الأقدام».

ومن ذلك حماية المؤمن من منافق:

فعن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَني، عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ حمى مؤمناً من منافق:

بعث الله ملكاً يَحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً يريد به شينه: حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» رواه أبو داود.

وخلاصة القول: إنَّ من أراد أن يتبيَّن له أمر سيره على الصراط غداً في الآخرة، وأحبَّ أَنْ يعرف كيف مشيه على صراط الآخرة، فلينظر إلى مشيته على صراط شريعة الله تعالى في الدنيا، وكيفية سيره عليها، هل هو يمشي سوياً مستقيماً عليها بلا ميل إلى محرمات الشهوات، ولا انحرافٍ نحو الشبهات والضلالات؟ أم هو في ذلك يروغ رَوَغان الثعالب، يستقيم تارة في سيره، وينحرف انحرافات ويخادع مخادعات.

وقد نبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك حيث قال، كما جاء في: (مسند) أحمد، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سُوران، فيهما أبواب مفتَّحة، وعلى الأبواب سُتور مُرْخاة، **وعلى باب الصراط داعٍ** يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً، ولا تعوجوا.

وداعٍ يدعو من فوق الصراط.

فإِذا أراد الإنسان أَن يفتح شيئاً قال: ويحك لا تفتحه، فإِنك إن تفتحه تلجه» ـ أي: تدخله ـ.

قال: «فالصراط: الإسلام، والسُوران: حدود الله تعالى، والأبواب المفتَّحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط

كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم».

قال الحافظ ابن كثير: ورواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، وهو إسناد حسن صحيح والله أعلم. اهـ.

أوّل مَن يجـوز الصـراط
هو سيِّـدنا محمـد صلى الله عليه وآله وسلم

إن أول من يجوز الصراط بأمته، ويشرِّفه بنظرته، وينوِّره للمؤمنين؛ ليسيروا في ضيائه، وعلى محجَّته هو سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين، صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين، الذي جمع الله تعالى له فضائل الأوليات، الجامعة لأكمل المراتب وأعلى الدرجات

فهو صلى الله عليه وآله وسلم أَول الأنبياء في الخَلْق في عالم الأرواح، وآخرهم في البعث في عالم الأشباح ـ كما تقدم دليل ذلك في الكلام حول الروح.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أَوّلُ من نَبَّأَهُ الله تعالى في عالم الأرواح؛ قبل الأنبياء كلهم.

كما جاء في: (سنن) الترمذي وغيرها، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قيل له: يا رسول الله متى وجبتْ لك النبوة، وفي رواية: متى استنبئت، وفي رواية: متى كنت نبياً؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد».

وتقدم تفصيل ذلك أيضاً في الكلام حول الروح.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أَوّلُ من تنشق عنه الأرض:

كما روى مسلم وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أول من ينشقّ عنه القبر، وأنا أول شافع وأول مُشفَّع».

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أول شافع وأول مشفَّع:

روى الترمذي وغيره، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذ: آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشقُّ عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر»(١).

فهو صلى الله عليه وآله وسلم أول من يشفع عند الله تعالى، ويَقْبَلُ الله تعالى شفاعته، وبه صلى الله عليه وآله وسلم يُفتح باب الشفاعات، فتشفع الرسل والأنبياء، ويشفع الصديقون والشهداء، والعلماء والأولياء، والصلحاء؛ كما تقدم في بحث الشفاعة.

وتشفع الأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة بصاحبها، فالصيام يشفع بصاحبه، والقرآن يشفع بصاحبه، والصلاة على النبي صلى

---

(١) قال الحافظ الزرقاني: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وكذا رواه ابن ماجه، وأحمد.. اهـ.

الله عليه وآله وسلم، والتسبيح والتحميد والتكبير.

وتقدم في الحديث: «الصيام والقرآن يشفعان في العبد يوم القيامة» الحديث.

وحديث: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» الحديث.

وحديث: «إنَّ ممَّا تذكرون من جلال الله تعالى التسبيح والتحميد والتكبير، يتعاطفن حول العرش، يَذْكرن بصاحبهن» الحديث.

فجميع هذه الشفاعات إنما فَتح بابها الفاتح الأول، والشفيع الأفضل، صاحب مقام الوسيلة، وأعلى درجات الفضيلة، الحبيب الأكرم، والسيد الأفخم، رحمة الله تعالى المهداة للعالمين، ليرحمهم الله تعالى به في جميع العوالم، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه منقبة كبرى، ومنزلة عظمىٰ، خُصَّ بها نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهي: أَنَّ جميع الخلائق يحتاجون إلى شفاعته بهم عند الله تعالى، وهو غير محتاج إلى مَنْ يشفع به.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم الشفيع لغيره ولا شفيع له.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أول من يُؤذن له حين يستأذن على ربه، وهو أول من يسجد لربه:

روى الإمام أحمد، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا أول من يُؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يَرفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من

بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك».

فقال رجل: يا رسول الله: كيف تعرف أمتك من بين الأمم؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هم غرٌّ مُحَجَّلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يُؤتَوْن كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى ذريتهم بين أيديهم»[1] الحديث.

وتقدم في حديث الشفاعة أنه صلى الله عليه وآله وسلم يَذهب ليسجد لله تعالى تحت العرش، فيدعه ما شاء الله، ويفتح الله تعالى عليه من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبله.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أول من يُفتح له باب الجنة، وهو أول من يدخلها، والكلُّ يدخلونها من ورائه صلى الله عليه وآله وسلم.

روى مسلم، والترمذي، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: مَنْ؟

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه أحمد وفي إسناده ابن لهيعة، وهو حديث حسن في المتابعات. اهـ.
وقال في: (مجمع الزوائد): رواه أحمد والبزار باختصار، إلا أنه قال: «وذراريهم نور بين أيديهم» قال: ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن لهيعة وهو ضعيف قد وُثِّق. اهـ.
قلت: ورواه ابن أبي حاتم، ومحمد بن نصر المروزي، كما في: (تفسير) الحافظ ابن كثير، عند سورة الحديد، وعند سورة التحريم.

فأقول: محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

فيقول: بكَ أمِرتُ أن لا أفتح لأحد قبلك».

قنـاطر الصراط

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾.

قال الإمام البيضاوي رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ قال: موضع يَرصد فيه خزنة النار: الكفار، أو خزنة الجنة: المؤمنين، ليحرسوهم مِنْ فَيْحِهَا في مجازهم عليها ـ أي: حين يجوزون الصراط على متن جهنم ـ كالمضمار، فإنه الموضع الذي يُضمر فيه الخيل إلخ.

وقال الحسن البصري وقتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ يعني: أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يَجتاز النار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس. اهـ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن جسر جهنم سبع محابس، يُسأل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إلّه إلا الله ـ أيْ: مع شهادة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما سئل عن ذلك في القبر، فإن جاء بها تامـةً جاز إلى المحبس الثاني.

فيسأل فيه عن الصلوات؛ فإن جاء بها تامةً جاز إلى الثالث.

فيسأل عن الزكاة؛ فإن جاء بها تامةً جاز إلى الرابع.

فيسأل عن الصوم؛ فإن جاء به تاماً جاز إلى الخامس.

فيسأل فيه عن الحج ـ أي: وكان ممن استطاع إليه سبيلاً ـ فإنْ جاء به تاماً جاز إلى المحبس السادس.

فيسأل عن العمرة؛ فإن جاء بها تامةً جاز إلى السابع.

فيسأل عن مظالم العباد؛ فإن خرج منها انطُلق به إلى الجنة[1]. اهـ.

وهذا من الأمور الثابتة عند أهل العلم، ولذلك نقل العلامة القرطبي رحمه الله تعالى في: (التذكرة) عن أهل العلم، أنه لن يجوز أحد الصراط حتى يُسأل عن سبع قناطر:

فأما القنطرة الأولى: فيسأل فيها عن الإيمان بالله تعالى، وهي شهادة أن لا إلَه إلا الله ـ أي: مع شهادة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإن جاء بها مخلصاً جاز على الصراط، وإلا وقع في النار.

ثم يُسأل في القنطرة الثانية: عن الصلاة، فإن جاء بها تامة جاز، وقطع المسافة إلى ما وراءها وإلا وقع في النار.

ثم يُسأل في القنطرة الثالثة: عن صوم شهر رمضان، فإن جاء به تاماً جاز.

ثم يُسأل في القنطرة الرابعة: عن الزكاة، فإن جاء بها تامة جاز.

ثم يُسأل في القنطرة الخامسة: عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما تامَّين جاز.

ثم يُسأل في القنطرة السادسة: عن الغُسل والوضوء؛ فإن جاء بهما تامين جاز.

---

(١) انظر تفسير الخازن وغيره.

ثم يُسأل في القنطرة السابعة: عن ظُلامات الناس ـ وليس في القناطر أصعب منها، فإن خَلُص منها انتهى إلى الجنة[1]. اهـ.

فآخر قناطر الصراط، وآخر محابسه، تلك القنطرة التي يُسأل فيها المؤمنون عن مظالم بينهم، بسبب تبعات وحقوق، على وجه التدقيق لكل حقٍّ وتبعة؛ وإن كان ذلك جُزئياً صغيراً، حتى يحصل التصافي التامُّ والتسامح العامُّ، فهناك يُؤذن في دخول الجنة.

كما يدل على ذلك ما رواه البخاري وغيره، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَخلص المؤمنون يوم القيامة من النار، فيُحبَسُون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتصُّ من بعضهم لبعض، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة.

فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا».

يعني: أنَّ المؤمنين يعرفون منازلهم في الجنة، أكثر من معرفتهم بمنازلهم في الدنيا.

قال تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾.

فلما خلص المؤمنون من النار، وذلك بالمرور على الصراط: حُبسوا على تلك القنطرة لقصاص التبعات والمظالم بينهم، وهذا

---

(١) وقد تناقل كثير من محققي المفسرين والمحدثين هذا الكلام عن العلامة القرطبي في: (التذكرة) بتسليم وإقرار، دون ردٍ وإنكار، ومنهم شراح البخاري، والحافظ الزرقاني في: (شرح المواهب) وغيرهم.

لا يتنافى مع القِصاص العامِّ السابق الذي جرى بين الكفار بعضهم من بعض، وبين الكفار والمؤمنين، فإن ذلك وقع قُبيل الصراط.

وذلك لأنَّ الكفار لا يقدرون على جواز الصراط، وكذلك المنافقون، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث كما تقدم: «يَحشر الله الناس عُراةً غرلاً بُهماً.

ثم يناديهم بصوت يَسمعه مَن بَعُد كما يسمعه مَن قَرب يقول: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حقٌّ حتى أقصَّه منه» إلى تمام الحديث والله تعالى أعلم.

* * *

الأعـراف

قال الله تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

يخبر سبحانه عن ذلك السُور، وهو الحجاب الحاجز بين أهل الجنة وأهل النار، وعن الذين هم على مَشارفه وأعرافه فيقول سبحانه:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين الجنة والنار حجاب، وهو السُور الذي قال تعالى فيه: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أعراف السُور هي شُرَفه. اهـ. أي: أعاليه المشرفة.

قال العلامة القرطبي في: (تفسيره): والأعراف في اللغة: المكان المشرف، جمع عُرْف.

قال يحيى بن آدم: سألت الكسائي عن واحد الأعراف فسكت، فقلت له: حدثنا إسرائيل، عن جابر، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الأعراف سُور، له عُرف كعرف الديك.

فقال: نعم والله، واحده يعني وجماعته أعراف، يا غلام هاتِ القرطاس فكتبه. اهـ.

وقد تكلم العلماء في بيان أصحاب الأعراف، على عشرة أقوال بل أكثر.

والذي ذهب إليه جمهور كثير من الصحابة والتابعين، هو أنهم طائفة من الموحِّدين، قَصُرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ـ وذلك بأن استوت حسناتهم وسيئاتهم.

واستدلوا على ذلك بما رواه البيهقي، عن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُجمَعُ الناس يوم القيامة، فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة، ويؤمر بأهل النار إلى النار، ثم يقال لأصحاب الأعراف: ما تنتظرون؟.

فيقولون: ننتظر أمرك.

فيقال لهم: إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم ـ فادخلوا الجنة بمغفرتي ورحمتي»[1].

وقال بعض العلماء: أصحاب الأعراف: قوم قُتلوا في سبيل الله، وهم عاصون لآبائهم، واستدلوا على ذلك بما رواه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، والبيهقي، وغيرهم، عن عبد الرحمن المزني رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أصحاب الأعراف فقال: «هم قوم قُتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم، فمنعهم من

---

(١) وروى أبو الشيخ، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم وغيرهم نحو هذا كما في: (الدر المنثور) وغيره.

النار قتلهم في سبيل الله، ومنعهم من الجنة معصية آبائهم»[1].

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد أنه قال: أصحاب الأعراف هم قوم صالحون فقهاء علماء.

وقال العلامة القرطبي في: (تفسيره): وقيل هم الشهداء، ذكره المهدويُّ.

وقال القشيري: وقيل هم فضلاء المؤمنين، والشهداء، فرغوا من شغل أنفسهم، وتَفرَّغوا لمطالعة حال الناس. اهـ.

وهنالك أقوال أُخرى في تعيين أصحاب الأعراف، وأرجح الأقوال كما قال العلامة القرطبي: هو القول الأول، وهو أَنَّهم قوم استوتْ حسناتهم وسيئاتهم، فيقومون مُدةً على الأعراف، ثم يؤمر بهم إلى الجنة.

قال العلامة الآلوسي: وجمع بعضهم ـ أي: بعض العلماء المحققين ـ بين تلك الأقوال، بأنه يجوز أن يَجلس الجميع ممن ورد فيهم أنهم أصحاب الأعراف هناك، مع تفاوت مراتبهم. اهـ.

قال عبد الله: وهذا القول بالجمع مبني على أن الأعراف جمع عُرف، فهناك عِدة شرفات مرتفعة، وأماكن عالية مطَّلعة، وعلى كل واحدة منها قوم من الذين وَرد فيهم أنهم أصحاب الأعراف، ولكنهم على مراتب متعددة متفاوتة، ولكل مرتبة أحكامها

---

(١) وقد رُوي نحو هذا عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم مرفوعاً كما في: (الدر المنثور) وغيره. =

وخصائصها، والله تعالى أعلم بحقيقة ما هنالك.

قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾.

أي: يعرفون كلاً من أصحاب الجنة، وأصحاب النار، بعلامتهم التي خصَّهم الله تعالى بها، وميَّزهم عن غيرهم بها، وهي: بياض الوجوه وحسنها ونضارتها في أهل الجنة، وسواد الوجوه وقبحها وظلمتها في أهل النار، إلى غير ذلك من معرفة حيِّز هؤلاء، وحيِّز هؤلاء، وقُوَّاد هؤلاء إلى الجنة، وقُوَّاد هؤلاء إلى النار.

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نادى رجال الأعراف أصحابَ الجنة، حين رأوهم وعَرفوهم: أن سلامٌ عليكم ـ على طريق الدعاء والتحية لهم، أو على طريق الإخبار بنجاتهم من العقوبات والمكاره.

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ وقد ذكر كثير من علماء التفسير أن جملة لم يدخلوها: حالٌ من فاعل نادوا، أو من مفعوله ـ فتدبَّر الآية تعقل المعنى.

وقد عدَّ بعض العلماء المحققين من مواقف الآخرة، موقفاً آخر هو موقف الأعراف فقال:

الخامس: الأعراف، وأما الأعراف فسور بين الجنة والنار، باطنه فيه الرحمة؛ وهو ما يلي الجنة منه، وظاهره من قبله العذاب؛ وهو ما يلي النار منه، يكون عليه من تساوت كفَّتا ميزانه، فهم ينظرون إلى النار وينظرون إلى الجنة، ومالهم رُجحان بما يُدخلهم أحد الدارين.

فإذا دُعُوا إلى السجود، وهو الذي يَبقى يوم القيامة من

التكليف، فيسجدون، فيرجح ميزان حسناتهم فيدخلون الجنة.

وقد كانوا ينظرون إلى النار بما لهم من السيئات، وينظرون إلى الجنة بما لهم من الحسنات، ويرون رحمة الله فيطمعون. اهـ. أي: في كرم الله تعالى ورحمته.

وقد تلا الحسن البصري رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فقال: والله ما جعل الله تعالى ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يُريدها بهم سبحانه. اهـ.

وروى الإمام أحمد في: (الزهد) عن قتادة: أنَّ سالماً مولى أبي حذيفة رضي الله عنه كان يقول: وددتُ أني بمنزلة أصحاب الأعراف. اهـ.

أي: من الذين لم تَغلب سيئاتهم حسناتهم، بل استوت حسناتهم وسيئاتهم، حتى تشمله مغفرة الله تعالى ورحمته، ويحقق الله تعالى له ما يطمع فيه وهو دخول الجنة.

وقد تقدم حديث حذيفة رضي الله عنه عن أصحاب الأعراف، وأن الله تعالى يقول لهم: «ادخلوا الجنة بمغفرتي ورحمتي».

وهذا الكلام من سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه يدل على إشفاقه من عذاب الله تعالى، الذي هو غير مأمون، فهو من جملة الذين وَصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾.

فسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه يودُّ أن ينجوَ من عذاب الله تعالى ولو كان من أهل الأعراف، الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، لأن مصيرهم إلى الجنة ـ وهذا شأن المشفقين من عذاب

الله تعالى، ولما كان هذا وصفهم أمَّنهم الله تعالى يوم القيامة، ووقاهم عذاب الجحيم.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

روى ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما، عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قرأت هذه الآية: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فقالت: (اللهمّ مُنَّ علينا وَقِنَا عذاب السَّموم، إنك أنت البرُّ الرحيم ـ اللهم آمين).

قال عبد الله: اللهم آمين.

ومن المعلوم أَن سالماً مولى أبي حذيفة رضي الله عنه هو صحابي جليل، كما قال في: (الإصابة): هو أحد السابقين الأولين، وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خذوا القرآن عن أربعة: ابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبيٌّ بن كعب، ومعاذ بن جبل» كما في: (الصحيحين) وغيرهما.

وروى الإمام أحمد، وابن ماجه، والحاكم من طرق متعددة، عن ابن سابط أن السيدة عائشة رضي الله عنها احْتَبَستْ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: تأخرت وهي في المسجد ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما حبسك»؟

قالت: سمعت قارئاً يقرأ، فَذَكرتْ من حُسن قراءته.

فأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم رداءه وخرج ـ إلى المسجد ـ فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك».

وروى البزار بسند رجاله ثقات، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمع سالماً مولى أبي حذيفة رضي الله عنه يقرأ من الليل فقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله».

وقال في: (الإصابة) أيضاً: وروى ابن المبارك في كتاب: (الجهاد) أن لواء المهاجرين كان مع سالم رضي الله عنه، فقيل له في ذلك.

فقال: بئس حامل القرآن أنا ـ يعني: إن فررت ـ.

فقطعت يمينه فأخذه بيساره، فقطعت فاعتنقه ـ أي: أخذ اللواء بعنقه ـ إلى أن صُرع ـ أي: قتل ـ رضي الله عنه.

هذا وإنني قد ذكرت في هذا الكتاب ما اشتهر من عوالم الآخرة ومواقفها، ولم ألتزم ذكرها مرتبةً ترتيباً عامّاً، وإنما ذكرتها مرتبة من حيث الجملة.

وأما البحث في عالم الجنة، وعالم النار، وأنواع نعيم الجنة، وألوان عذاب النار، وحال أهل الجنة، وحال أهل النار، ودرجات أهل الجنة، ودَرَكات أهل النار، فإِنَّ الكلام على ذلك ذيله طويل، وله شرح وتفصيل ـ وسوف يأتي في مصنف آخر بعد هذا إن شاء الله تعالى.

وإنني أسأل الله تعالى القريب المجيب، مُتوجهاً إليه بوجاهة وجه الحبيب، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أَن يجعل

جَميع كُتبي منار هَدْيٍ محمديٍّ، ومِرآة نور أحمديٍّ، تستنير بها العقول والضمائر، والأبصار والبصائر، وتحيىٰ بها الأرواح والسرائر.

وصلى الله العظيم على سيدنا وسندنا، وروح أرواحنا، وشرفنا وفخرنا محمدٍ المحمود في الأولين والآخرين، وأحمد الحامدين لربِّ العالمين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين، عدد ما وسعه علم الله العظيم ـ آمين.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تم الكتاب في / ٣٠/ رمضان المبارك سنة / ١٣٩٧/ هـ



المحتوى

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبة أجمعين.

* * * *
* * *
* *
*

كتب للمؤلف

- حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
- حول تفسير سورة الحجرات .
- حول تفسير سورة قٓ .
- حول تفسير سورة الملك .
- حول تفسير سورة الإنسان .
- حول تفسير سورة الكوثر .
- حول تفسير سورة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ .
- حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
- هدي القرآن الكريم إلىٰ الحجة والبرهان .
- هدي القرآن الكريم إلىٰ معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
- تلاوة القرآن المجيد ـ فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
- شهادة لا إلَه إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ فضلها ـ معانيها ـ مطالبها .
- سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
- الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
- التقرب إلىٰ الله تعالىٰ : فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
- الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدِّين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .
- الصلاة علىٰ النَّبي ﷺ : أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها .
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلىٰ الكبير المتعال ذي العزة والجلال .
- الدعاء : فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن .
- خول ترجمة الإمام العلامة المرحوم محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالىٰ .
- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
- أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .
- مناسك الحج ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .